أخلاق أهل البيت عليهم السلام



محمد مهدي الصدر

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي


أخلاق
أهل البيت


بسم الله الرحمن الرحيم



السيد محمد مهدي الصدر

مؤسسة دار الكتاب الإسلامي



الكتاب : ....اخلاق اهل البيت عليهم السلام

المؤلف: ....السيد محمد مهدي الصدر (ره)

الناشر: ....مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة: .... الرابعة ١٤٢٩هـ.ق / ٢٠٠٨م

المطبعة: .... مطبعة ستار

عدد النسخ: ....(٢٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي : ٨- ٠١٥ - ٤٦٥- ٩٦٤- ٩٧٨

ISBN: 978 - 964- 465- 015-8

قم - ميدان المعلم - شارع سميه ٢٢ - رقم المبني ٢٦

تلفن: ٧٧٤٤٩٧٠ - ٧٧٣٠٩٩٤

فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فإنّ علم الأخلاق هو: العلم الباحث في محاسن الأخلاق ومساوئها، والحث على التحلي بالأولى والتخلي عن الثانية.

ويحتل هذا العلم مكانة مرموقة، ومحلاً رفيعاً بين العلوم، لشرف موضوعه، وسمو غايته. فهو نظامها، وواسطة عقدها، ورمز فضائلها، ومظهر جمالها، إذ العلوم بأسرها منوطة بالخُلق الكريم، تزدان بجماله، وتحلو بآدابه، فإن خلت منه غدت هزيلة شوهاء، تثير السخط والتقزز.

ولا بدع فالأخلاق الفاضلة هي التي تحقق في الإنسان معاني الإنسانية الرفيعة، وتحيطه بهالة وضّاءة من الجمال والكمال، وشرف النفس والضمير، وسمو العزة والكرامة، كما تمسخه الأخلاق الذميمة، وتحطّه إلى سويّ الهمج والوحوش.

وليس أثر الأخلاق مقصوراً على الأفراد فحسب بل يسري إلى الأمم والشعوب، حيث تعكس الأخلاق حياتها وخصائصها ومبلغ رقيها، أو تخلفها في مضمار الأمم.

وقد زخر التاريخ بأحداث وعبر دلّت على أنّ فساد الأخلاق وتفسخها كان معولاً هدّاماً في تقويض صروح الحضارات، وانهيار كثير من الدول والممالك:

وإذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

وناهيك في عظمة الأخلاق، أن النبي (ص) أولاها عناية كبرى، وجعلها الهدف والغاية من بعثه ورسالته، فقال:

(بعثت لأتمم مكارم الأخلاق).

وهذا هو ما يهدف إليه علم الأخلاق، بما يرسمه من نظم وآداب، تهذّب ضمائر الناس وتقوّم أخلاقهم، وتوجههم إلى السيرة الحميدة، والسلوك الأمثل.

وتختلف مناهج الأبحاث الخلقية وأساليبها باختلاف المعنيين بدراستها من القدامى والمحدثين: بين متزمت غال في فلسفته الخلقية، يجعلها جافة مرهقة عسيرة التطبيق والتنفيذ. وبين متحكم فيها بأهوائه، يرسمها كما اقتضت تقاليده الخاصة، ومحيطه المحدود، ونزعاته وطباعه، مما يجردها من صفة الأصالة والكمال. وهذا ما يجعل تلك المناهج مختلفة متباينة، لا تصلح أنْ تكون دستوراً أخلاقياً خالداً للبشرية.

والملحوظ للباحث المقارن بين تلك المناهج أنّ أفضلها وأكملها هو: النهج الإسلامي، المستمد من القرآن الكريم، وأخلاق أهل البيت عليهم السلام، الذي ازدان بالقصد والاعتدال، وأصالة المبدأ، وسمو الغاية، وحكمة التوجيه، وحسن الملائمة لمختلف العصور والأفكار.

وهو النهج الفريد الأمثل الذي يستطيع بفضل خصائصه وميزاته أن يسمو بالناس فرداً ومجتمعاً، نحو التكامل الخُلقي، والمثل الأخلاقية العليا، بأسلوب شيق محبب، يستهوي العقول والقلوب، ويحقق لهم ذلك بأقرب وقت، وأيسر طريق.

هو منهج يمثل سمّو آداب الوحي الإلهي، وبلاغة أهل البيت عليهم السلام، وحكمتهم، وهم يسيرون على ضوئه، ويستلهمون مفاهيمه، ويستقون من معينه، ليحيلوها إلى الناس حكمة بالغة، وأدباً رفيعاً، ودروساً أخلاقية

فـذة، تشع بنـورها وطهـورها عـلى النفس، فتزكيّهـا وتنيرهـا بمفـاهيمهـا الخـيّرة وتوجيهها الهادف البنّاء.

من أجل ذلك تعشّقت هـذا النهج، وصبـوت إليه، وآثـرت تخطيط هـذه الرسالة ورسم أبحاثها على ضوئه وهداه.

ولئن اهتدى به أنـاس وقصر عنه آخـرون، فليس ذلك بقـادح في حكمته وسمـو تعاليمـه، وإنما هـو لاختلاف طبـاع الناس، ونـزعاتهم في تقبّـل مفـاهيم التـوجيه والتـأديب، وانتفاعهم بهـا، كاختـلاف المرضى في انتفـاعهم بـالأدويـة الشافية، والعقاقير الناجعة: فمنهم المنتفع بها، ومنهم من لا تجديه نفعاً.

وممـا يحز في النفس، ويبعث عـلى الأسى والأسف البالغين، أنّ المسلمين بعد أن كانوا قادة الأمم، وروّادها إلى الفضائـل، ومكارم الأخـلاق، قد خسروا مثاليتهم لانحرافهم عن آداب الإسـلام، وأخلاقـه الفذّة، مـا جعلهم في حالـة مزرية من التخلف والتسيب الخلقيـين. لذلـك كان لـزاماً عليهم ـ إذا مـا ابتغوا العـزة والكرامـة وطيب السمعة ـ أن يستعيـدوا ما أغفلوه من تـراثهم الأخـلاقي الضخم، وينتفعوا برصيده المذخور، ليكسبوا ثقة الناس وإعجابهم من جديـد، وليكونوا كما أراد الله تعالى لهم: ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾.

وتلك أمنيـة غاليـة، لا تُنال إلا بتـظافر جهـود المخلصين من أعـلام الأمة الإسـلامية ومـوجهيها، عـلى توعيـة المسلمين، وحثهم عـلى التمسك بـالأخلاق الإسلامية، ونشر مفاهيمها البنّاءة والإهتمام بعرضها عرضاً شيّقـاً جذابـاً، يغري الناس بدراستها والإفادة منها.

وهذا ما حداني إلى تأليف هـذا الكتاب، وتخـطيطه عـلى ضوء الخصـائص التالية:

(١) إن هذا الكتاب لم يستوعب علم الأخلاق، وإنما ضمّ أهمّ أبحاثـه، وأبلغهـا أثراً في حيـاة الناس. وقـد جهدت مـا استطعت في تجنب المصـطلحات العلمية وألفاظها الغامضة، وعرضتها بأسلوب واضح مركّز، يمتع القـارىء، ولا يرهقه بالغموض والإطناب، الباعثين على الملل والسأم.

(٢) اختيار الأحاديث والأخبار الواردة فيه من الكتب المعتبرة والمصادر الوثيقة لدى المحدثين والرواة.

(٣) الإهتمام بذكر محاسن الخلق الكريم، ومساوىء الخلق الذميم، وبيان آثارهما الروحية والمادية في حياة الفرد أو المجتمع.

والجدير بالذكر: أن المقياس الخلقي في تقييم الفضائل الخلقية، وتحديد واقعها هو: التوسط والإعتدال، المبرأ من الإفراط والتفريط. فالخلق الرضيّ هو: ما كان وسطاً بين المغالاة والإهمال، كنقطة الدائرة من محيطها، فإذا انحرف عن الوسط إلى طرف الإفراط أو التفريط غدى خلقاً ذمياً.

فالعفة فضيلة بين رذيلتي الشر والجمود: فإن أفرط الإنسان فيها كان جامداً خاملاً، معرضاً عن ضرورات الحياة ولذائذها المشروعة، وإن فرّط فيها وقصّر، كان شرهاً جشعاً، منهمكاً في اللذائذ والشهوات.

والشجاعة فضيلة بين رذيلتي التهور والجبن: فإن أفرط الشجاع فيها كان متهوراً مجازفاً فيما يحسن الاحجام عنه، وإن فرّط وقصّر كان جباناً هيّاباً محجماً عمّا يحسن الإقدام عليه.

والسخاء فضيلة بين رذيلتي التبذير والبخل: فإن أفرط فيها كان مسرفاً مبذراً سخياً على من لا يستحق البذل والسخاء، وإن فرّط فيها وقصر كان شحيحاً بخيلاً فيما يجدر الجود والسخاء فيه... وهكذا دواليك.

من أجل ذلك كان كسب الفضائل، والتحليّ بها، والثبات عليها، من الأهداف السامية التي يتبارى فيها، ويتنافس عليها، ذوو النفوس الكبيرة، والهمم العالية، ولا ينالها إلا ذو حظ عظيم.

ولم أرَ أمثال الرجال تفاوتاً لدى المجد حتى عُدّ ألف بواحد

وإني لأرجو الله عز وجل أن يتقبل مني هذا المجهود المتواضع ويثيبني عليه، بلطفه الواسع، وكرمه الجزيل، وأن يوفقني وإخواني المؤمنين للانتفاع به، والسير على ضوئه، إنّه وليّ الهداية والتوفيق.

الكاظمية مهدي السيد علي الصدر

حسن الخلق

حسن الخلق هو: حالة نفسية تبعث على حسن معاشرة الناس، ومجاملتهم بالبشاشة، وطيب القول، ولطف المداراة، كما عرّفه الإمام الصادق عليه السلام حينما سُئل عن حدّه فقال: «تلين جناحك، وتطيب كلامك، وتلقى أخاك ببشر حسن»[1].

من الأماني والآمال التي يطمح إليها كل عاقل حصيف، ويسعى جاهداً في كسبها وتحقيقها، أن يكون ذا شخصية جذّابة، ومكانة مرموقة، محبباً لدى الناس، عزيزاً عليهم.

وإنها لأمنية غالية، وهدف سامي، لا يناله إلا ذوو الفضائل والخصائص التي تؤهلهم كفاءاتهم لبلوغها، ونيل أهدافها، كالعلم والأريحية والشجاعة ونحوها من الخلال الكريمة.

بيد أن جميع تلك القيم والفضائل، لا تكون مدعاة للإعجاب والإكبار، وسمو المنزلة، ورفعة الشأن، إلا إذا اقترنت بحسن الخلق، وازدانت بجماله الزاهر، ونوره الوضّاء. فإذا ما تجردت منه فقدت قيمها الأصيلة، وغدت صوراً شوهاء تثير السأم والتذمر.

لذلك كان حسن الخلق ملاك الفضائل ونظام عقدها، ومحور فلكها،

---

(١) الكافي للكليني.

وأكثرها إعداداً وتأهيلاً لكسب المحامد والأمجاد، ونيل المحبة والإعزاز.

انظر كيف يمجد أهل البيت عليهم السلام هذا الخلق الكريم، ويطرون المتحلين به إطراءاً رائعاً، ويحثون على التمسك به بمختلف الأساليب التوجيهية المشوقة، كما تصوره النصوص التالية:

قال النبي (ص): «أفاضلكم أحسنكم أخلاقاً، الموطئون أكنافاً، الذين يألفون ويؤلفون وتوطأ رحالهم»[١].

وقال الباقر (ع): «إن أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً»[٢].

وقال الصادق (ع): «ما يقدم المؤمن على الله تعالى بعمل بعد الفرائض، أحبّ إلى الله تعالى من أن يسع الناس بخلقه»[٣].

وقال عليه السلام: «إنّ الله تعالى ليعطي العبد من الثواب على حسن الخلق، كما يعطي المجاهد في سبيل الله، يغدو عليه ويروح»[٤].

وقال النبي (ص): «إن صاحب الخلق الحسن له مثل أجر الصائم القائم»[٥].

وقال الصادق (ع): «إن الخلق الحسن يميث الخطيئة، كما تميث الشمس الجليد»[٦].

وقال (ع): «البر وحسن الخلق يعمران الديار، ويزيدان في الأعمار»[٧].

وقال (ع): «إن شئت أنْ تُكرم فَلِنْ، وإن شئت أنْ تُهانَ فاخشن»[٨].

وقال النبي (ص): «إنكم لم تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم»[٩].

---

(١) الكافي. والأكناف جمع كنف، وهو: الناحية والجانب، ويقال «رجل موطأ الأكناف» أي كريم مضياف.

(٢)، (٣)، (٤)، (٥)، (٦) عن الكافي.

(٧) عن الكافي.

(٨) تحف العقول.

(٩) من لا يحضره الفقيه.

وكفى بحسن الخلق شرفاً وفضلاً، ان الله عز وجل لم يبعث رسله وأنبياءه إلى الناس إلاّ بعد أن حلاّهم بهذه السجية الكريمة، وزانهم بها، فهي رمز فضائلهم، وعنوان شخصياتهم.

ولقد كان سيد المرسلين (ص) المثل الأعلى في حسن الخلق، وغيره من كرائم الفضائل والخلال. واستطاع بأخلاقه المثالية أن يملك القلوب والعقول، واستحق بذلك ثناء الله تعالى عليه بقوله عز من قائل: ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾.

قال أمير المؤمنين علي (ع) وهو يصور أخلاق رسول الله (ص): «كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة. من رآه بديهة هابه. ومن خالطه فعرفه أحبّه، لم أرَ مثله قبله ولا بعده»[١].

وحسبنا أن نذكر ما أصابه من قريش، فقد تألبت عليه، وجرّعته ألوان الغصص، حتى اضطرته إلى مغادرة أهله وبلاده، فلما نصره الله عليهم، وأظفره بهم، لم يشكّوا أنّه سيثأر منهم، وينكّل بهم، فما زاد أن قال لهم: ما تقولون إني فاعل بكم؟! قالوا: خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم. فقال: أقول كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، اذهبوا فأنتم الطلقاء.

وجاء عن أنس قال: كنت مع النبي (ص)، وعليه برد غليظ الحاشية، فجذبه أعرابي بردائه جذبة شديدة، حتى أثرت حاشية البُرد في صفحة عاتقه، ثم قال: يا محمد إحمل لي على بعيريّ هذين من مال الله الذي عندك، فإنك لا تحمل لي من مالك، ولا مال أبيك. فسكت النبي (ص) ثم قال: المال مال الله، وأنا عبده. ثم قال: ويقاد منك يا أعرابي ما فعلت بي؟! قال: لا. قال: لِمَ؟ قال: لأنك لا تكافىء بالسيئة السيئة. فضحك النبي، ثم أمر أن يحمل له على بعير شعيراً، وعلى الآخر تمراً[٢].

---

(١) سفينة البحار ـ مادة خلق ـ.

(٢) سفينة البحار ـ مادة خلق ـ.

وعن أمير المؤمنين (ع) قال: إن يهودياً كان له على رسول الله (ص) دنانير، فتقاضاه، فقال له: يا يهودي ما عندي ما أعطيك. فقال: فإني لا أفارقك يا محمد حتى تقضيني. فقال: إذن أجلس معك، فجلس معه حتى صلى في ذلك الموضع الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة والغداة، وكان أصحاب رسول الله يتهددونه ويتواعدونه، فنظر رسول الله إليهم وقال: ما الذي تصنعون به؟! فقالوا: يا رسول الله يهودي يحبسك! فقال: لم يبعثني ربي عز وجل بأن أظلم معاهداً ولا غيره. فلما علا النهار قال اليهودي: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، وشطر مالي في سبيل الله، أما والله ما فعلت بك الذي فعلت، إلا لأنظر إلى نعتك في التوراة، فإني قرأت نعتك في التوراة: محمد بن عبدالله، مولده بمكة، ومهاجره بطيبة، وليس بفظ ولا غليظ، ولا سخّاب، ولا متزين بالفحش، ولا قول الخنا، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنّك رسول الله، وهذا مالي فاحكم فيه بما أنزل الله، وكان اليهودي كثير المال[1].

وهكذا كان الأئمة المعصومون من أهل البيت عليهم السلام في مكارم أخلاقهم وسمو آدابهم. وقد حمل الرواة إلينا صوراً رائعة ودروساً خالدة من سيرتهم المثالية، وأخلاقهم الفذة.

من ذلك ما ورد عن أبي محمد العسكري (ع) قال: ورد على أمير المؤمنين (ع) أخوان له مؤمنان، أب وابن، فقام إليهما وأكرمهما وأجلسهما في صدر مجلسه، وجلس بين يديهما، ثم أمر بطعام فأحضر فأكلا منه، ثم جاء قنبر بطست وإبريق خشب ومنديل، فأخذ أمير المؤمنين عليه السلام الإبريق فغسل يد الرجل بعد أن كان الرجل يمتنع من ذلك، وتمرغ في التراب، وأقسم له أمير المؤمنين عليه السلام أن يغسل مطمئناً، كما كان يغسل لو كان الصابّ عليه قنبر ففعل، ثم ناول الإبريق محمد بن الحنفية وقال: يا بني لو كان هذا الابن حضرني دون أبيه لصببت على يده، ولكن الله عز وجل يأبى أن يُسوّي بين ابن وأبيه، إذا جمعهما مكان، ولكن قد صب الأب على الأب، فليصب الابن على

(١) البحار م٦ في مكارم أخلاق النبي (ص).

الابن، فصب محمد بن الحنفية على الابن.

ثم قال العسكري (ع): فمن اتّبع علياً على ذلك فهو الشيعي حقاً[١].

وورد أن الحسن والحسين مرّا على شيخ يتوضأ ولا يُحسن، فأخذا في التنازع، يقول كل واحد منهما أنت لا تحسن الوضوء، فقالا: أيّها الشيخ كن حَكَماً بيننا، يتوضأ كل واحد منّا، فتوضئا ثم قالا: أيّنا يحسن؟ قال: كلاكما تحسنان الوضوء، ولكن هذا الشيخ الجاهل هو الذي لم يكن يحسن، وقد تعلّم الآن منكما، وتاب على يديكما ببركتكما وشفقتكما على أمة جدّكما[٢].

وجنى غلام للحسين عليه السلام جناية توجب العقاب عليه، فأمر به أن يضرب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: خلّوا عنه. فقال: يا مولاي والعافين عن الناس. قال: قد عفوت عنك. قال: يا مولاي والله يحب المحسنين. قال: أنت حرٌّ لوجه الله، ولك ضعف ما كنت أعطيك[٣].

وحدّث الصولي: أنه جرى بين الحسين وبين محمد بن الحنفية كلام، فكتب ابن الحنفية إلى الحسين: «أما بعد يا أخي فإن أبي وأباك علي لا تفضلني فيه ولا أفضلك، وأمّك فاطمة بنت رسول الله، لو كان ملء الأرض ذهباً ملك أميّ ما وفت بأمّك، فإذا قرأت كتابي هذا فصر إليّ حتى ترضاني. فإنك أحق بالفضل مني، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته» ففعل الحسين فلم يجر بعد ذلك بينهما شيء[٤].

وعن محمد بن جعفر وغيره قالوا: وقف على علي بن الحسين (ع) رجل من أهل بيته فأسمعه وشتمه، فلم يكلمه، فلما انصرف قال لجلسائه: لقد سمعتم ما قال هذا الرجل، وأنا أحب أن تبلغوا معي إليه حتى تسمعوا مني ردّي عليه.

فقالوا له: نفعل، ولقد كنّا نحب أن يقول له ويقول. فأخذ نعليه ومشى

(١) سفينة البحار ـ مادة وضع ـ.
(٢) البحار م ١٠ عن عيون المحاسن ص ٨٩.
(٣) البحار م ١٠ ص ١٤٥ عن كشف الغمة.
(٤) البحار م ١٠ ص١٤٤ عن مناقب ابن شهرآشوب.

وهو يقول: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين» فعلمنا أنه لا يقول له شيئاً.

قال: فخرج حتى أتى منزل الرجل، فصرخ به، فقال: قولوا له هذا علي بن الحسين. قال: فخرج متوثباً للشر، وهو لا يشك أنه إنما جاء مكافئاً له على بعض ما كان منه.

فقال له علي بن الحسين: يا أخي إنك وقفت عليّ آنفاً وقلت وقلت فإن كنت قلت ما فيّ فأستغفر الله منه، وإن كنت قلت ما ليس فيّ فغفر الله لك. قال: فقبّله الرجل بين عينيه، وقال: بل قلت فيك ما ليس فيك وأنا أحق به[١].

وليس شيء أدل على شرف حسن الخلق، وعظيم أثره في سمو الإنسان وإسعاده، من الحديث التالي:

عن علي بن الحسين (ع) قال: ثلاثة نفر آلوا باللات والعزى ليقتلوا محمداً (ص)، فذهب أمير المؤمنين وحده إليهم وقتل واحداً منهم وجاء بآخرين، فقال النبي (ص): قدّم إليّ أحد الرجلين، فقدّمه فقال: قل لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله. فقال: لنقل جبل أبي قبيس أحبّ إليّ من أن أقول هذه الكلمة. قال: يا علي أخره واضرب عنقه. ثم قال: قدم الآخر، فقال: قل لا إله إلا الله، وأشهد أني رسول الله. قال: ألحقني بصاحبي. قال: يا علي أخره واضرب عنقه. فأخره وقام أمير المؤمنين ليضرب عنقه فنزل جبرئيل على النبي (ص) فقال: يا محمد إنّ ربك يقرئك السلام، ويقول لا تقتله فإنه حسن الخلق سخي في قومه. فقال النبي (ص): يا علي أمسك، فإن هذا رسول ربي يخبرني أنه حسن الخلق سخي في قومه. فقال المشرك تحت السيف: هذا رسول ربك يخبرك؟ قال: نعم. قال: والله ما ملكت درهماً مع أخ لي قط، ولا قطبت وجهي في الحرب، فأنا أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. فقال رسول الله: هذا ممن جرّه حسن خلقه وسخائه إلى جنات النعيم[٢].

---

(١) البحار م١١ ص١٧ عن إعلام الورى وإرشاد المفيد.

(٢) البحار م١٥ ج٢ ص ٢١٠ في حسن الخلق.

سوء الخلق

وهو: انحراف نفساني، يسبب انقباض الإنسان وغلظته وشراسته، نقيض حسن الخلق.

من الثابت أنّ لسوء الخلق آثاراً سيئة، ونتائج خطيرة، في تشويه المتصف به، وحط كرامته، مما يجعله عرضة للمقت والإزدراء، وهدفاً للنقد والذم.

وربما تفاقمت أعراضه ومضاعفاته، فيكون حينذاك سبباً لمختلف المآسي والأزمات الجسمية والنفسية المادية والروحية.

وحسبك في خسة هذا الخلق وسوء آثاره، أن الله تعالى خاطب سيد رسله، وخاتم أنبيائه، وهو المثل الأعلى في جميع الفضائل والمكرمات قائلاً: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾.

من أجل ذلك فقد تساند العقل والنقل على ذمه والتحذير منه، وإليك طرفاً من ذلك:

قال النبي (ص): «عليكم بحسن الخلق، فإنّ حسن الخلق في الجنة لا محالة، وإياكم وسوء الخلق، فإن سوء الخلق في النار لا محالة»[١].

وقال الصادق (ع): «إن شئت أن تكرم فلِن، وإن شئت أن تهان فاخشن»[٢].

وقال النبي (ص): «أبى الله لصاحب الخلق السيىء بالتوبة، قيل: فكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: لأنه إذا تاب من ذنب وقع في ذنب أعظم منه»[٣].

وقال الصادق (ع): «إنّ سوء الخلق ليفسد العمل كما يُفسد الخل العسل»[٤].

وقال (ع): «من ساء خلقه عذّب نفسه»[٥].

(١) عيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق (ره).
(٢) تحف العقول.
(٣)، (٤)، (٥) عن الكافي.

الأخلاق بين الإستقامة والإنحراف

كما تمرض الأجساد وتعتورها أعراض المرض من شحوب وهزال وضعف، كذلك تمرض الأخلاق، وتبدو عليها سمات الاعتلال ومضاعفاته، في صور من الهزال الخلقي، والانهيار النفسي، على اختلاف في أبعاد المرض ودرجات أعراضه الطارئة على الأجسام والأخلاق.

وكما تعالج الأجسام المريضة، وتسترد صحتها ونشاطها، كذلك تعالج الأخلاق المريضة، وتستأنف اعتدالها واستقامتها، متفاوتة في ذلك حسب اعراضها، وطباع ذويها، كالأجسام سواء بسواء.

ولولا إمكان معالجة الأخلاق وتقويمها، لحبطت جهود الأنبياء في تهذيب الناس، وتوجيههم وجهة الخير والصلاح، وغدا البشر من جراء ذلك كالحيوان وأخس قيمة، وأسوأ حالاً منه، حيث أمكن ترويضه، وتطوير أخلاقه، فالفرس الجموح يغدو بالترويض سلس المقاد، والبهائم الوحشية تعود داجنة أليفة.

فكيف لا يجدي ذلك في تهذيب الإنسان، وتقويم أخلاقه، وهو أشرف الخلق، وأسماهم كفاءة وعقلاً؟؟

من أجل ذلك فقد تمرض أخلاق الوادع الخَلُوق، ويغدو عبوساً شرساً منحرفاً عن مثاليته الخلقية، لحدوث إحدى الأسباب التالية:

(١) ـ الوهن والضعف الناجمان عن مرض الإنسان واعتلال صحته، أو طرو أعراض الهرم والشيخوخة عليه، مما يجعله مرهف الأعصاب عاجزاً عن التصبر، واحتمال مؤونة الناس ومداراتهم.

(٢) ـ الهموم: فإنّها تذهل اللبيب الخلوق، وتحرفه عن أخلاقه الكريمة، وطبعه الوادع.

(٣) ـ الفقر: فإنه قد يسبب تجهم الفقير وغلظته، أَنَفَةً من هوان الفقر وألم الحرمان، أو حزناً على زوال نعمته السالفة، وفقد غناه.

(٤) ـ الغنى: فكثيراً ما يجمح بصاحبه نحو الزهو والتيه والكبر والطغيان، كما قال الشاعر:

لقد كشف الإثراء عنك خلائقاً   من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

(٥) ـ المنصب: فقد يُحدث تنمراً في الخُلق، وتطاولاً على الناس، منبعثاً عن ضعة النفس وضعفها، أو لؤم الطبع وخسته.

(٦) ـ العزلة والتزمت: فإنه قد يسبب شعوراً بالخيبة والهوان، مما يجعل المعزول عبوساً متجهماً.

علاج سوء الخلق

وحيث كان سوء الخلق من أسوأ الخصال وأخس الصفات، فجدير بمن يرغب في تهذيب نفسه، وتطهير أخلاقه، من هذا الخلق الذميم، أن يتبع النصائح التالية:

(١) ـ أن يتذكر مساوىء سوء الخلق وأضراره الفادحة، وأنّه باعث على سخط الله تعالى، وازدراء الناس ونفرتهم، على ما شرحناه في مطلع هذا البحث.

(٢) ـ أنْ يستعرض ما أسلفناه من فضائل حسن الخلق، ومآثره الجليلة، وما ورد في مدحه، والحث عليه، من آثار أهل البيت عليهم السلام.

(٣) ـ التريض على ضبط الأعصاب، وقمع نزوات الخلق السيىء وبوادره، وذلك بالتريّث في كل ما يصدر عنه من قول أو فعل، مستهدياً بقول الرسول الأعظم (ص): «أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه». يتبع تلك النصائح من اعتلت أخلاقه، ومرضت بدوافع نفسية، أو خلقية. أما من ساء خلقه بأسباب مرضية جسمية، فعلاجه بالوسائل الطبية، وتقوية الصحة العامة، وتوفير دواعي الراحة والطمأنينة، وهدوء الأعصاب.

الصدق

وهو: مطابقة القول للواقع، وهو أشرف الفضائل النفسية، والمزايا الخلقية، لخصائصه الجليلة، وآثاره الهامة في حياة الفرد والمجتمع.

فهو زينة الحديث ورواؤه، ورمز الاستقامة والصلاح، وسبب النجاح

والنجاة، لذلك مجدّته الشريعة الإسلامية، وحرضت عليه، قرآناً وسنةً.

قال تعالى: ﴿والذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتقون، لهم ما يشاؤون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين﴾ (الزمر: ٣٣ ـ ٣٤).

وقال تعالى: ﴿هذا يومُ ينفع الصادقين صدقهم، لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، خالدين فيها أبداً﴾. (المائدة: ١١٩).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وكونوا مع الصادقين﴾. (التوبة: ١١٩)

وهكذا كرّم أهلُ البيت عليهم السلام هذا الخلق الرفيع، ودعوا إليه بأساليبهم البليغة الحكيمة:

قال الصادق (ع): «لا تغتروا بصلاتهم، ولا بصيامهم، فإنّ الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث، وأداء الأمانة»[1].

وقال النبي (ص): «زينة الحديث الصدق»[2].

وقال أمير المؤمنين (ع): «إلزموا الصدق فإنّه منجاة»[3].

وقال الصادق (ع): «من صدق لسانه زكى عمله»[4].

أي صار عمله ببركة الصدق زاكياً نامياً في الثواب، لأنّ الله تعالى «إنّما يقبل من المتقين» والصدق من أبرز خصائص التقوى وأهم شرائطه.

مآثر الصدق

من ضرورات الحياة الاجتماعية، ومقوماتها الأصلية هي:

شيوع التفاهم والتآزر بين عناصر المجتمع وأفراده، ليستطيعوا بذلك

(١) الكافي.
(٢) الإمامة والتبصرة.
(٣) كمال الدين للصدوق.
(٤) الكافي.

النهوض بأعباء الحياة، وتحقيق غاياتها وأهدافها، ومن ثم ليسعدوا بحياة كريمة هانئة، وتعايش سلمي.

وتلك غايات سامية، لا تتحقق إلا بالتفاهم الصحيح، والتعاون الوثيق، وتبادل الثقة والائتمان بين أولئك الأفراد.

وبديهي أنّ اللسان هو أداة التفاهم، ومنطلق المعاني والأفكار، والترجمان المفسر عمّا يدور في خلَدَ الناس من مختلف المفاهيم والغايات، فهو يلعب دوراً خطيراً في حياة المجتمع، وتجاوب مشاعره وأفكاره.

وعلى صدقه أو كذبه ترتكز سعادة المجتمع أو شقاؤه، فإن كان اللسان صادق اللهجة، أميناً في ترجمة خوالج النفس وأغراضها، أدىّ رسالة التفاهم والتواثق، وكان رائد خير، ورسول محبة وسلام.

وإن كان متصفاً بالخداع والتزوير، وخيانة الترجمة والإعراب، غدا رائد شر، ومدعاة تناكر وتباغض بين أفراد المجتمع، ومعول هَدْمٍ في كيانه.

من أجل ذلك كان الصدق من ضرورات المجتمع، وحاجاته الملحة، وكانت له آثاره وانعكاساته في حياة الناس.

فهو نظام عقد المجتمع السعيد، ورمز خلقه الرفيع، ودليل استقامة أفراده ونبلهم، والباعث القويّ على طيب السمعة، وحسن الثناء والتقدير، وكسب الثقة والائتمان من الناس.

كما له آثاره ومعطياته في توفير الوقت الثمين، وكسب الراحة الجسمية والنفسية.

فإذا صدق المتبايعون في مبايعاتهم، ارتاحوا جميعاً من عناء المماكسة، وضياع الوقت الثمين في نشدان الواقع، وتحري الصدق.

وإذا تواطأ أرباب الأعمال والوظائف على التزام الصدق، كان ذلك ضماناً لصيانة حقوق الناس، واستتباب أمنهم ورخائهم.

وإذا تحلى كافة الناس بالصدق، ودرجوا عليه، أحرزوا منافعه الجمّة، ومغانمه الجليلة.

وإذا شاع الكذب في المجتمع، وهت قِيَمُه الأخلاقية، وساد التبرم والسخط بين أفراده، وعزَّ فيه التفاهم والتعاون، وغدا عرضة للتبعثر والانهيار.

أقسام الصدق

للصدق صور وأقسام تتجلى في الأقوال والأفعال، وإليك أبرزها؟

(١) ـ الصدق في الأقوال، وهو: الإخبار عن الشيء على حقيقته من غير تزوير وتمويه.

(٢) ـ الصدق في الأفعال، وهو: مطابقة القول للفعل، كالبر بالقسم، والوفاء بالعهد والوعد.

(٣) ـ الصدق في العزم، وهو: التصميم على أفعال الخير، فإنْ أنجزها كان صادق العزم، وإلا كان كاذبه.

(٤) ـ الصدق في النيّة، وهو: تطهيرها من شوائب الرياء، والإخلاص بها إلى الله تعالى وحده.

الكذب

وهو: مخالفة القول للواقع. وهو من أبشع العيوب والجرائم، ومصدر الآثام والشرور، وداعية الفضيحة والسقوط. لذلك حرمته الشريعة الإسلامية، ونعت على المتصفين به، وتوّعدتهم في الكتاب والسنة:

قال تعالى: ﴿إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب﴾ (غافر: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿ويل لكل أفاك أثيم﴾ (الجاثية: ٧).

وقال تعالى: ﴿إنما يفتري الكَذِبَ الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون﴾ (النحل: ١٠٥).

وقال الباقر (ع): «إنَّ الله جعل للشر أقفالاً، وجعل مفاتيح تلك الأقفال الشراب، والكذب شرّ من الشراب»[١].

(١) الكافي.

وقال (ع): «كان علي بن الحسين يقول لولده: إتقوا الكذب، الصغير منه والكبير، في كل جدّ وهزل، فإن الرجل إذا كذب في الصغير، إجترأ على الكبير، أما علمتم أنّ رسول الله (ص) قال: ما يزال العبد يصدق حتى يكتبه الله صدّيقاً، وما يزال العبد يكذب حتى يكتبه الله كذّاباً»[١].

وقال الباقر (ع): «إنّ الكذب هو خراب الإيمان»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «إعتياد الكذب يورث الفقر»[٣].

وقال عيسى بن مريم (ع): «من كثر كذبه ذهب بهاؤه»[٤].

وقال رسول الله (ص) في حجة الوداع: «قد كثرت عليّ الكذّابة وستكثر، فمن كذب عليّ متعمداً، فليتبوأ مقعده من النار، فإذا أتاكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله وسنتي، فما وافق كتاب الله فخذوا به، وما خالف كتاب الله وسنتي فلا تأخذوا به»[٥].

مساوىء الكذب

وإنما حرمت الشريعة الإسلامية (الكذب) وأنذرت عليه بالهوان والعقاب، لما ينطوي عليه من أضرار خطيرة، ومساوىء جمّة، فهو:

(١) ـ باعث على سوء السمعة، وسقوط الكرامة، وانعدام الوثاقة، فلا يُصدّق الكذاب وإن نطق بالصدق، ولا تقبل شهادته، ولا يوثق بمواعيده وعهوده.

ومن خصائصه أنّه ينسى أكاذيبه ويختلق ما يخالفها، وربما لفق الأكاذيب العديدة المتناقضة، دعماً لكذبة افتراها، فتغدو أحاديثه هذراً مقيتاً، ولغواً فاضحاً.

---

(١)، (٢) الكافي.
(٣) الخصال للصدوق.
(٤) الكافي.
(٥) احتجاج الطبرسي.

(٢) ـ إنه يضعف ثقة الناس بعضهم ببعض، ويشيع فيهم أحاسيس التوجس والتناكر.

(٣) ـ إنه باعث على تضييع الوقت والجهد الثمينين، لتمييز الواقع من المزيف، والصدق من الكذب.

(٤) ـ وله فوق ذلك آثار روحية سيئة، ومغبة خطيرة، نوهت عنها النصوص السالفة.

دواعي الكذب

الكذب انحراف خلقي له أسبابه ودواعيه، أهمها:

(١) ـ العادة: قد يعتاد المرء على ممارسة الكذب بدافع الجهل، أو التأثر بالمحيط المتخلف، أو لضعف الوازع الديني، فيشبّ على هذه العادة السيئة، وتمتد جذورها في نفسه، لذلك قال بعض الحكماء: «من استحلى رضاع الكذب عسر فطامه».

(٢) ـ الطمع: وهو من أقوى الدوافع على الكذب والتزوير، تحقيقاً لأطماع الكذّاب، وإشباعاً لنهمه.

(٣) ـ العداء والحسد: فطالما سوّلا لأربابهما تلفيق التهم، وتزويق الافتراءات والأكاذيب، على من يعادونه أو يحسدونه. وقد عانى الصلحاء والنبلاء الذين يترفعون عن الخوض في الباطل، ومقابلة الإساءة بمثلها ـ كثيراً من مآسي التهم والافتراءات والأراجيف.

أنواع الكذب

للكذب صور شوهاء، تتفاوت بشاعتها باختلاف أضرارها وآثارها السيئة، وهي:

الأولى ـ اليمين الكاذبة

وهي من أبشع صور الكذب، وأشدّها خطراً وإثماً، فإنّها جناية مزدوجة:

جرأة صارخة على المولى عز وجل بالحلف به كذباً وبهتاناً، وجريمة نكراء تمحق الحقوق وتهدر الكرامات.

من أجل ذلك جاءت النصوص في ذمها والتحذير منها:

قال رسول الله (ص): «إيّاكم واليمين الفاجرة، فإنها تدع الديار من أهلها بلاقع»[1].

وقال الصادق (ع): «اليمين الصُبْر الكاذبة، تورث العقب الفقر»[2].

الثانية ـ شهادة الزور

وهي كسابقتها جريمة خطيرة، وظلم سافر هدّام، تبعث على غمط الحقوق، واستلاب الأموال، وإشاعة الفوضى في المجتمع، بمساندة المجرمين على جرائم التدليس والابتزاز.

أنظر كيف تنذر النصوص شهود الزور بالعقاب الأليم:

قال رسول الله (ص): «لا ينقضي كلام شاهد الزور من بين يدي الحاكم حتى يتبوأ مقعده من النار، وكذلك من كتم الشهادة»[3].

ونهى القرآن الكريم عنها فقال تعالى:﴿واجتنبوا قول الزور﴾.(الحج : ٣٠)

أضرار اليمين الكاذبة وشهادة الزور

وإنما حرمت الشريعة الإسلامية اليمين الكاذبة، وشهادة الزور، وتوعدت عليهما بصنوف الوعيد والإرهاب، لآثارهما السيئة، وأضرارهما الماحقة، في دين الإنسان ودنياه، من ذلك:

(١) ـ أن مقترف اليمين الكاذبة، وشهادة الزور، يسيء إلى نفسه إساءة كبرى بتعريضها إلى سخط الله تعالى، وعقوباته التي صورتها النصوص السالفة.

(٢) ـ ويسيء كذلك إلى من سانده ومالأه، بالحلف كذباً، والشهادة

(١)، (٢) الكافي.
(٣) الكافي ومن لا يحضره الفقيه.

زوراً، حيث شجّعه على بخس حقوق الناس، وابتزاز أموالهم، وهدر كراماتهم.

(٣) - ويسيء كذلك إلى من اختلق عليه اليمين والشهادة المزورتين، بخذلانه وإضاعة حقوقه، وإسقاط معنوياته.

(٤) - ويسيء إلى المجتمع عامة بإشاعة الفوضى والفساد فيه، وتحطيم قيمه الدينية والأخلاقية.

(٥) - ويسيء إلى الشريعة الإسلامية بتحدّيها، ومخالفة دستورها المقدس، الذي يجب اتباعه وتطبيقه على كل مسلم.

الثالثة - خلف الوعد

الوفاء بالوعد من الخلال الكريمة التي يزدان بها العقلاء، ويتحلى بها النبلاء، وقد نوّه الله عنها في كتابه الكريم فقال: ﴿واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبياً﴾ (مريم: ٥٤).

ذلك أنّ إسماعيل عليه السلام وعد رجلاً، فمكث في انتظاره سنة كاملة، في مكان لا يبارحه، وفاءاً بوعده.

وإنّه لمن المؤسف أن يشيع خلف الوعد بين المسلمين اليوم، متجاهلين نتائجه السيئة في إضعاف الثقة المتبادلة بينهم، وإفساد العلاقات الاجتماعية، والإضرار بالمصالح العامة.

قال الصادق (ع): «عِدة المؤمن أخاه نذر لا كفارة له، فمن أخلف فبخلف الله تعالى بدأ، ولمقته تعرض، وذلك قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون، كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾»[1].

وقال (ع): «إنّ رسول الله (ص) وعد رجلاً إلى صخرة فقال: أنا لك هاهنا حتى تأتي. قال: فاشتدت الشمس عليه، فقال أصحابه: يا رسول الله لو أنّك تحولت إلى الظل. فقال: قد وعدته إلى هاهنا: وإن لم يجيء كان منه إلى المحشر»[2].

---

(١) الكافي.

(٢) علل الشرائع.

الرابعة ـ الكذب الساخر

فقد يستحلي البعض تلفيق الأكاذيب الساخرة، للتندر على الناس، والسخرية بهم، وهو لهو عابث خطير، ينتج الأحقاد والآثام.

قال الصادق (ع): «من روى على مؤمن رواية، يريد بها شينه، وهدم مروّته ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان»[1].

علاج الكذب

فجدير بالعاقل أن يعالج نفسه من هذا المرض الأخلاقي الخطير، والخُلُق الذميم، مستهدياً بالنصائح التالية:

(١) ـ أن يتدبر ما أسلفناه من مساوىء الكذب، وسوء آثاره المادية والأدبية على الإنسان.

(٢) ـ أن يستعرض فضائل الصدق ومآثره الجليلة، التي نوّهنا عنها في بحث الصدق.

(٣) ـ أن يرتاض على التزام الصدق، ومجانبة الكذب، والدأب المتواصل على ممارسة هذه الرياضة النفسية، حتى يبرأ من هذا الخلق الماحق الذميم.

مسوغات الكذب

لا شك أنّ الكذب رذيلة مقيتة حرمها الشرع، لمساوئها الجمة، بيد أنّ هناك ظروف طارئة تبيح الكذب وتسوغه، وذلك فيما إذا توقفت عليه مصلحة هامة، لا تتحقق إلا به، فقد أجازته الشريعة الإسلامية حينذاك، كإنقاذ المسلم، وتخليصه من القتل أو الأسر، أو صيانة عرضه وكرامته، أو حفظ ماله المحترم، فإنّ الكذب والحالة هذه واجب إسلامي محتم.

وهكذا إذا كان الكذب وسيلة لتحقيق غاية راجحة، وهدف إصلاحي،

---

(١) الكافي.

فإنه آنذاك راجح أو مباح، كالإصلاح بين الناس، أو استرضاء الزوجة واستمالتها أو مخادعة الأعداء في الحروب.

وقد صرحت النصوص بتسويغ الكذب للأغراض السالفة.

قال الصادق (ع): «كل كذب مسؤول عنه صاحبه يوماً إلا في ثلاثة: رجل كايد في حربه فهو موضوع عنه، أو رجل أصلح بين اثنين يلقى هذا بغير ما يلقى هذا يريد بذلك الإصلاح فيما بينهما، أو رجل وعد أهله شيئاً وهو لا يريد أن يتم لهم»[1].

الحلم وكظم الغيظ

وهما: ضبط النفس إزاء مثيرات الغضب. وهما من أشرف السجايا، وأعز الخصال، ودليلا سمو النفس، وكرم الأخلاق، وسببا المودة والإعزاز.

وقد مدح الله الحلماء والكاظمين الغيظ، وأثنى عليهم في محكم كتابه الكريم.

فقال تعالى: ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما﴾ (الفرقان: ٦٣).

وقال تعالى: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (فصلت: ٣٤ - ٣٥).

وقال تعالى: ﴿والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين﴾ (آل عمران: ١٣٤).

وعلى هذا النسق جاءت توجيهات أهل البيت عليهم السلام:

قال الباقر (ع): «إنّ الله عز وجل يحب الحييّ الحليم»[2].

وسمع أمير المؤمنين (ع) رجلاً يشتم قنبراً، وقد رام قنبر أن يردّ عليه،

---

(١) الكافي.

(٢) الكافي.

فناداه أمير المؤمنين (ع): مهلاً يا قنبر، دع شاتمك، مُهاناً، ترضي الرحمن، وتسخط الشيطان، وتعاقب عدوك، فوالذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أرضى المؤمن ربه بمثل الحلم، ولا أسخط الشيطان بمثل الصمت، ولا عوقب الأحمق بمثل السكوت عنه»[١].

وقال (ع): «أول عوض الحليم من حلمه، أن الناس أنصاره على الجاهل»[٢].

وقال الصادق (ع): «إذا وقع بين رجلين منازعة نزل ملكان، فيقولان للسفيه منهما: قلت وقلت، وأنت أهل لما قلت، ستُجزى بما قلت. ويقولان للحليم منهما: صبرت وحلمت، سيغفر الله لك، إن أتممت ذلك. قال: فإن ردّ الحليم عليه ارتفع الملكان»[٣].

وقال الصادق (ع): «ما من عبد كظم غيظاً، إلا زاده الله عز وجل عزّاً في الدنيا والآخرة، وقد قال الله عز وجل: ﴿والكاظمين الغيظ، والعافين عن الناس، والله يحب المحسنين﴾ وأثابه مكان غيظة ذلك»[٤].

وقال الإمام موسى بن جعفر (ع): «إصبر على أعداء النعم، فإنك لن تكافىء من عصى الله فيك، بأفضل من أن تطيع الله فيه»[٥].

وأحضر عليه السلام ولده يوماً فقال لهم: «يا بَنِيّ إني موصيكم بوصية، فمن حفظها لم يضع معها، إن أتاكم آت فأسمعكم في الأذن اليمنى مكروهاً، ثم تحوّل إلى الأذن اليسرى فاعتذر وقال: لم أقل شيئاً فاقبلوا عذره»[٦].

وقد يحسب السفهاء أن الحلم من دلائل الضعف، ودواعي الهوان، ولكنّ العقلاء يرونه من سمات النبل، وسمو الخلق، ودواعي العزة والكرامة.

فكلما عظم الإنسان قدراً، كرمت أخلاقه، وسمت نفسه، عن مجاراة

---

(١) مجالس الشيخ المفيد.
(٢) نهج البلاغة.
(٣)، (٤)، (٥) الكافي.
(٦) كشف الغمة للأربلي.

السفهاء في جهالتهم وطيشهم، معتصماً بالحلم وكرم الإغضاء، وحسن العفو، ما يجعله مثار الإكبار والثناء.

كما قيل:

وذي سفه يخاطبني بجهل فـآنف أن أكون لـه مجيبا
يـزيـد سفـاهـةً وأزيـد حلماً كعـودٍ زاده الإحـراق طيبـا

ويقال: إنّ رجلاً شتم أحد الحكماء، فأمسك عنه، فقيل له في ذلك قال: «لا أدخل حرباً الغالب فيها أشرّ من المغلوب».

ومن أروع ما نظمه الشعراء في مدح الحلم، ما رواه الإمام الرضا (ع)، حين قال له المأمون: أنشدني أحسن ما رويت في الحلم، فقال (ع):

إذا كـان دوني مـن بليـت بجـهله أبيت لنفسي أن تقـابـل بـالجهـل
وإنْ كـان مثـلي في محـلي من النهى أخذت بحلمي كي أجلّ عن المثل
وإن كنت أدنى منه في الفضل والحجى عـرفت لـه حق التقـدم والفضـل

فقال له المأمون. ما أحسن هذا، هذا من قاله؟ فقال: بعض فتياننا[١].

ولقد كان الرسول الأعظم (ص) والأئمة الطاهرون من أهـل بيته، المثـل الأعلى في الحلم، وجميل الصفح، وحسن التجاوز.

وقد زخرت أسفار السير والمناقب، بالفيض الغمر منها، وإليك نموذجاً من ذلك:

قـال الباقـر (ع): «إن رسول الله (ص) أتي بـاليهوديـة التي سمت الشـاة للنبي، فقال لها: ما حملك على ما صنعت؟ فقالت: قلت إن كـان نبياً لم يضره، وإن كان ملكاً أرحت الناس منه، فعفى رسول الله عنها»[٢].

وعفى (ص) عن جماعة كثيرة، بعد أن أباح دمهم، وأمر بقتلهم.

منهم: هبّـار بن الأسود بن المـطلب، وهو الـذي روّع زينب بنت رسـول الله، فألقت ذا بطنها، فأباح رسول الله دمـه لذلـك، فروي أنّـه اعتذر إلى النبي

---

(١) معاني الأخبار، وعيون أخبار الرضا للشيخ الصدوق.
(٢) الكافي.

(ص) من سوء فعله، وقال: وكنا يا نبي الله أهل شرك، فهدانا الله بك، وأنقذنا بك من الهلكة، فاصفح عن جهلي، وعما كان يبلغك عني، فإني مقرّ بسوء فعلي، معترف بذنبي. فقال (ص): قد عفوت عنك، وقد أحسن الله إليك، حيث هداك إلى الإسلام. والإسلام يجب ما قبله.

ومنهم: عبدالله بن الزبعرى، وكان يهجو النبي (ص) بمكة، ويعظم القول فيه، فهرب يوم الفتح، ثم رجع إلى رسول الله واعتذر، فقبل (ص) عذره.

ومنهم: وحشي قاتل حمزة سلام الله عليه، روي أنّه لما أسلم، قال له النبي: أوحشي؟ قال: نعم. قال: أخبرني كيف قتلت عمي؟ فأخبره، فبكى (ص) وقال: غيّب وجهك عني[1].

وهكذا كان أمير المؤمنين علي (ع) أحلم الناس وأصفحهم عن المسيء:

ظفر بعبدالله بن الزبير، ومروان بن الحكم، وسعيد بن العاص، وهم ألدّ أعدائه، والمؤلبين عليه، فعفا عنهم، ولم يتعقبهم بسوء.

وظفر بعمرو بن العاص، وهو أخطر عليه من جيش ذي عدّة، فأعرض عنه، وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاءاً لضربته.

وحال جند معاوية بينه وبين الماء في معركة صفين، وهم يقولون له ولا قطرة حتى تموت عطشاً، فلمّا حمل عليهم، وأجلاهم عنه، سوّغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده.

وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل، وودعها أكرم وداع، وسار في ركابها أميالاً، وأرسل معها من يخدمها ويحفّ بها[2].

وكان الحسن بن علي (ع) على سرّ أبيه وجده صلوات الله عليهم أجمعين:

فمن حلمه ما رواه المبرد، وابن عائشة: أن شامياً رآه راكباً، فجعل

---

(١) سفينة البحار ج١.
(٢) عبقرية الإمام للعقاد بتصرف.

يلعنه، والحسن لا يرد، فلما فرغ، أقبل الحسن عليه السلام فسلم عليه، وضحك، فقال: أيها الشيخ أظنك غريباً، ولعلك شبّهت، فلو استعتبتنا أعتبناك، ولو سألتنا أعطيناك، ولو استرشدتنا أرشدناك، ولو استحملتنا أحملناك، وإن كنت جائعاً أشبعناك، وإن كنت عرياناً كسوناك، وإن كنت محتاجاً أغنيناك، وإن كنت طريداً آويناك، وإن كان لك حاجة قضيناها لك، فلو حرّكت رحلك إلينا، وكنت ضيفنا إلى وقت ارتحالك، كان أعود عليك، لأنّ لنا موضعاً رحباً، وجاهاً عريضاً، ومالاً كثيراً. فلما سمع الرجل كلامه بكى، ثم قال: أشهد أنك خليفة الله في أرضه، الله أعلم حيث يجعل رسالته، وكنت أنت وأبوك أبغض خلق الله إليّ، والآن أنت أحبُّ خلق الله إليّ، وحوّل رحله إليه، وكان ضيفه إلى أن ارتحل وصار معتقداً لمحبتهم[١].

وهكذا كان الحسين بن علي عليهما السلام: جنى غلام للحسين عليه السلام جناية توجب العقاب عليه، فأمر به أن يضرب، فقال: يا مولاي والكاظمين الغيظ. قال: خلّوا عنه. قال: يا مولاي والعافين عن الناس. قال: قد عفوت عنك. قال: والله يحب المحسنين. قال: أنت حرّ لوجه الله، ولك ضعف ما كنت أعطيك[٢].

وإني استقرأت سيرة أهل البيت عليهم السلام فوجدتها نمطاً فريداً، ومثلاً عالياً، في دنيا السير والأخلاق:

من ذلك ما قصّه الرواة من حلم الإمام زين العابدين (ع)، فقد كان عنده أضياف، فاستعجل خادماً له بشواء كان في التنور، فأقبل به الخادم مسرعاً، فسقط السفود منه على رأس ابن لعلي بن الحسين (ع) تحت الدرجة، فأصاب رأسه فقتله، فقال علي للغلام وقد تحير الغلام واضطرب: أنت حرّ، فإنك لم تتعمده، وأخذ في جهاز ابنه ودفنه[٣].

ولُقّب الإمام موسى بن جعفر عليه السلام (بالكاظم) لوفرة حلمه،

---

(١) البحار مجلد ٩ ص ٩٥.
(٢) كشف الغمة للأربلي.
(٣) كشف الغمة للأربلي.

وتجرعه الغيظ، في مرضاة الله تعالى.

يحدث الراوي عن ذلك، فيقول: كان في المدينة رجل من أولاد بعض الصحابة يؤذي أبا الحسن موسى عليه السلام ويسبّه إذا رآه، ويشتم علياً، فقال له بعض حاشيته يوماً: دعنا نقتل هذا الفاجر. فنهاهم عن ذلك أشدّ النهي، وزجرهم، وسأل عنه فذُكر أنّه يزرع بناحية من نواحي المدينة، فركب إليه فوجده في مزرعة له، فدخل المزرعة بحماره، فصاح به لا توطىء زرعنا، فتوطّأه (ع) بالحمار حتى وصل إليه، ونزل وجلس عنده، وباسطه وضاحكه، وقال له: كم غرمت على زرعك هذا؟ قال: مائة دينار. قال: فكم ترجو أن تصيب؟ قال: لست أعلم الغيب. قال له: إنّما قلت كم ترجو أن يجيئك فيه. قال: أرجو أن يجيء مائتا دينار. قال: فأخرج له أبو الحسن صرّة فيها ثلاثمائة دينار وقال: هذا زرعك على حاله، والله يرزقك فيه ما ترجو. قال: فقام الرجل فقبّل رأسه، وسأله أن يصفح عن فارطه، فتبسم إليه أبو الحسن وانصرف. قال: وراح إلى المسجد، فوجد الرجل جالساً، فلما نظر إليه، قال: الله أعلم حيث يجعل رسالته. قال: فوثب أصحابه إليه فقالوا: ما قضيتك؟! قد كنت تقول غير هذا. قال: فقال لهم: قد سمعتم ما قلت الآن، وجعل يدعو لأبي الحسن عليه السلام، فخاصموه وخاصمهم، فلما رجع أبو الحسن إلى داره، قال لجلسائه الذين سألوه في قتله: أيما كان خيراً ما أردتم أم ما أردت، إنني أصلحت أمره بالمقدار الذي عرفتم وكُفيت شره[1].

وقد أحسن الفرزدق حيث يقول في مدحهم:

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجىً ومعتصم
إنْ عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

الغضب

وهو: حالة نفسية، تبعث على هياج الإنسان، وثورته قولاً أو عملاً. وهو مفتاح الشرور، ورأس الآثام، وداعية الأزمات والأخطار. وقد تكاثرت الآثار في

(١) البحار مجلد ١١ نقلاً عن إعلام الورى للطبرسي وارشاد المفيد.

ذمه والتحذير منه:

قال الصادق (ع): «الغضب مفتاح كل شر»[١].

وإنما صار الغضب مفتاحاً للشرور، لما ينجم عنه من أخطار وآثام، كالاستهزاء، والتعيير، والفحش، والضرب، والقتل، ونحو ذلك من المساوىء.

وقال الباقر (ع): «إنّ الرجل ليغضب فما يرضى أبداً حتى يدخل النار»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «واحذر الغضب، فإنه جند عظيم من جنود ابليس»[٣].

وقال (ع): «الحدّة ضرب من الجنون، لأنّ صاحبها يندم، فإن لم يندم فجنونه مستحكم»[٤].

وقال الصادق (ع): «سمعت أبي يقول: أتى رسول الله (ص) رجل بدويّ، فقال: إني أسكن البادية، فعلمني جوامع الكلام. فقال: آمرك أن لا تغضب. فأعاد الأعرابي عليه المسألة ثلاث مرات، حتى رجع إلى نفسه، فقال: لا أسأل عن شيء بعد هذا، ما أمرني رسول الله إلا بالخير...»[٥].

بواعث الغضب

لا يحدث الغضب عفواً واعتباطاً، وإنما ينشأ عن أسباب وبواعث تجعل الإنسان مرهف الإحساس، سريع التأثر.

ولو تأملنا تلك البواعث، وجدناها مجملة على الوجه التالي:

(١) ـ قد يكون منشأ الغضب إنحرافاً صحياً، كاعتلال الصحة العامة، أو ضعف الجهاز العصبي، مما يسبب سرعة التهيج.

(٢) ـ وقد يكون المنشأ نفسياً، منبعثاً عن الإجهاد العقلي، أو المغالاة في

(١)، (٢) الكافي.

(٣)، (٤) نهج البلاغة.

(٥) الكافي.

الأنانية، أو الشعور بالإهانة، والاستنقاص، ونحوها من الحالات النفسية، التي سرعان ما تستفز الإنسان، وتستثير غضبه.

(٣) ـ وقد يكون المنشأ أخلاقياً، كتعود الشراسة، وسرعة التهيج، مما يوجب رسوخ عادة الغضب في صاحبه.

أضرار الغضب

للغضب أضرار جسيمة، وغوائل فادحة، تضرّ بالإنسان فرداً ومجتمعاً، جسمياً ونفسياً، مادياً وأدبياً. فكم غضبة جرحت العواطف، وشحنت النفوس بالاضغان، وفصمت عرى التحابب والتآلف بين الناس. وكم غضبة زجت أناساً في السجون، وعرضتهم للمهالك، وكم غضبة أثارت الحروب، وسفكت الدماء، فراح ضحيتها الآلاف من الأبرياء.

كل ذلك سوى ما ينجم عنه من المآسي والأزمات النفسية، التي قد تؤدي إلى موت الفجأة.

والغضب بعد هذا يحيل الإنسان بركاناً ثائراً، يتفجر غيظاً وشراً، فإذا هو إنسان في واقع وحش، ووحش في صورة إنسان.

فإذا بلسانه ينطلق بالفحش والبذاء، وهتك الأعراض، وإذا بيديه تنبعثان بالضرب والتنكيل، وربما أفضى إلى القتل، هذا مع سطوة الغاضب وسيطرته على خصمه، وإلا انعكست غوائل الغضب على صاحبه، فينبعث في تمزيق ثوبه، ولطم رأسه، وربّما تعاطى أعمالاً جنونية، كسبِّ البهائم وضرب الجمادات.

الغضب بين المدح والذم

الغضب غريزة هامة، تُلهب في الإنسان روح الحمية والإباء، وتبعثه على التضحية والفداء، في سبيل أهدافه الرفيعة، ومثله العليا، كالذود عن العقيدة، وصيانة الأرواح، والأموال، والكرامات. ومتى تجرد الإنسان من هذه الغريزة صار عرضة للهوان والاستعباد، كما قيل: «من استُغضِب فلم يغضب فهو حمار».

فيستنتج من ذلك: أنّ الغضب المذموم ما أفرط فيه الإنسان، وخرج به عن الاعتدال، متحدياً ضوابط العقل والشرع. أما المعتدل فهو كما عرفت، من الفضائل المشرّفة، التي تعزز الإنسان، وترفع معنوياته، كالغضب على المنكرات، والتنمّر في ذات الله تعالى.

علاج الغضب

عرفنا من مطاوي هذا البحث، طرفاً من بواعث الغضب ومساوئه وآثامه، والآن أودّ أن أعرض وصفة علاجية لهذا الخُلق الخطير، وهي مؤلفة من عناصر الحكمة النفسية، والتوجيه الخلقي، عسى أن يجد فيها صرعى الغضب ما يساعدهم على مكافحته وعلاجه.

وإليك العناصر الآتية:

(١) ـ إذا كان منشأ الغضب اعتلالاً صحياً، أو هبوطاً عصبياً كالمرضى والشيوخ ونحاف البنية، فعلاجهم ـ والحالة هذه ـ بالوسائل الطبية، وتقوية صحتهم العامة، وتوفير دواعي الراحة النفسية والجسمية لهم، كتنظيم الغذاء، والتزام النظافة، وممارسة الرياضة الملائمة، واستنشاق الهواء الطلق، وتعاطي الاسترخاء العضلي بالتمدد على الفراش.

كل ذلك مع الابتعاد والاجتناب عن مرهقات النفس والجسم، كالاجهاد الفكري، والسهر المضني، والاستسلام للكتابة، ونحو ذلك من دواعي التهيج.

(٢) ـ لا يحدث الغضب عفواً، وإنّما ينشأ عن أسباب تستثيره، أهمها: المغالاة في الأنانية. الجدل والمراء، الاستهزاء والتعيير، المزاح الجارح. وعلاجه في هذه الصور باجتناب أسبابه، والابتعاد عن مثيراته جهد المستطاع.

(٣) ـ تذكّر مساوىء الغضب وأخطاره وآثامه، وأنها تحيق بالغاضب، وتضرّ به أكثر من المغضوب عليه، فرب أمر تافه أثار غضبة عارمة، أودت بصحة الإنسان وسعادته.

يقول بعض باحثي علم النفس: دع محاولة الاقتصاص من أعدائك، فإنك بمحاولتك هذه تؤذي نفسك أكثر مما تؤذيهم... إننا حين نمقت أعداءنا

نتيح لهم فرصة الغلبة علينا، وإنّ أعداءنا ليرقصون طرباً لو علموا كم يسببوا لنا من القلق وكم يقتصوّا منّا، إنّ مقتنا لا يؤذيهم، وإنّما يؤذينا نحن، ويحيل أيامنا ولياليّنا إلى جحيم[1].

وهكذا يجدر تذكر فضائل الحلم، وآثاره الجليلة، وأنّه باعث على إعجاب الناس وثنائهم، وكسب عواطفهم.

وخير محفّز على الحلم قول الله عز وجل: ﴿إدفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم، وما يلقّاها إلا الذين صبروا وما يلقّاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (فصلت: ٣٤ ـ ٣٥).

(٤) ـ إنّ سطوة الغضب ودوافعه الإجرامية، تعرّض الغاضب لسخط الله تعالى وعقابه، وربما عرّضته لسطوة من أغضبه واقتصاصه منه في نفسه أو ماله أو عزيز عليه، قال الصادق (ع): «أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه: إبنَ آدم أذكرني في غضبك أذكرك في غضبي، لا أمحقك فيمن أمحق، وارض بي منتصراً، فإنّ انتصاري لك خير من انتصارك لنفسك»[2].

(٥) ـ من الخير للغاضب إرجاء نزوات الغضب وبوادره، ريثما تخفّ سورته، والتروّي في أقواله وأفعاله عند احتدام الغضب، فذلك مما يخفف حدّة التوتر والتهيج، ويعيده إلى الرشد والصواب، ولا يُنال ذلك إلا بضبط النفس، والسيطرة على الأعصاب.

قال أمير المؤمنين (ع): «إن لم تكن حليماً فتحلّم، فإنّه قلّ من تشبه بقوم إلا أوشك أن يكون منهم»[3].

(٦) ـ ومن علاج الغضب: الإستعاذة من الشيطان الرجيم، وجلوس الغاضب إذا كان قائماً، واضطجاعه إن كان جالساً، والوضوء أو الغسل بالماء البارد، ومس يد الرحم إن كان مغضوباً عليه، فإنه من مهدئات الغضب.

---

(١) دع القلق وابدأ الحياة.

(٢) الكافي.

(٣) نهج البلاغة.

التواضع

وهو: احترام الناس حسب أقدارهم، وعدم الترفع عليهم.

وهو خلق كريم، وخلّة جذابة، تستهوي القلوب، وتستثير الإعجاب والتقدير، وناهيك في فضله أن الله تعالى أمر حبيبه، وسيد رسله (ص) بالتواضع، فقال تعالى: ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ (الشعراء: ٢١٥).

وقد أشاد أهل البيت عليهم السلام بشرف هذا الخُلُق، وشوّقوا إليه بأقوالهم الحكيمة، وسيرتهم المثالية، وكانوا روّاد الفضائل، ومنار الخلق الرفيع.

قال الصادق (ع): «إنّ في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبّر وضعاه»[١].

وقال النبي (ص): «إن أحبكم إليّ، وأقربكم مني يومَ القيامة مجلساً، أحسنكم خُلُقاً، وأشدكم تواضعاً، وإن أبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون وهم المستكبرون»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «ما أحسن تواضع الأغنياء للفقراء، طلباً لما عند الله، وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء إتكالاً على الله»[٣].

وقال الصادق (ع): «من التواضع أن ترضى بالمجلس دون المجلس، وأن تسلّم على من تلقى، وأن تترك المراء وإن كنت محقاً. ولا تحب أن تحمد على التقوى»[٤].

وجدير بالذكر أن التواضع الممدوح، هو المتسم بالقصد والاعتدال الذي لا إفراط فيه ولا تفريط، فالإسراف في التواضع داع إلى الخسّة والمهانة، والتفريط فيه باعث على الكِبْر والأنانية.

---

(١) الكافي.
(٢) كتاب قرب الأسناد، وقريب من هذا الخبر ما في علل الشرائع للشيخ الصدوق.
(٣) نهج البلاغة.
(٤) الكافي.

وعلى العاقل أن يختار النهج الأوسط، المبرأ من الخسّة والأنانية، وذلك: بإعطاء كل فرد ما يستحقه من الحفاوة والتقدير، حسب منزلته ومؤهلاته.

لذلك لا يحسن التواضع للأنانيين والمتعالين على الناس بزهوهم وصلفهم، إن التواضع والحالة هذه مدعاة للذل والهوان، وتشجيع لهم على الأنانية والكبر، كما يقول المتنبي:

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته ... وإنْ أنت أكرمت اللئيم تمردا

ومما قيل في التواضع قول المعري:

يا والي المصر لا تظلمنْ ... فكم جاء مثلك ثم انصرف
تواضع إذا ما رُزقت العلا ... فذلك مما يزيد الشرف

وفي المثل:

تواضع الرجل في مرتبته، ذبّ للشماتة عند سقطته.

وقال الطغرائي:

ذريني على أخلاقي الشوس إنني ... عليم بإبرام العزائم والنقض
أزيد إذا أيسرت فضل تواضع ... ويزهى إذا أعسرت بعضي على بعضي
فذلك عند اليسر أكسب للثنا ... وهذاك عند العسر أصون للعرض
أرى الغصن يعرى وهو يسمو بنفسه ... ويوقر حملاً حين يدنو من الأرض

وإليك طرفاً من فضائل أهل البيت، وتواضعهم المثالي الفريد:

كان النبي (ص) أشدُّ الناس تواضعاً، وكان إذا دخل منزلاً قعد في أدنى المجلس حين يدخل، وكان في بيته في مهنة أهله، يحلب شاته، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويحمل بضاعته من السوق، ويجالس الفقراء، ويواكل المساكين.

وكان (ص) إذا سارّه أحد، لا ينحّي رأسه حتى يكون الرجل هو الذي ينحّي رأسه، وما أخذ أحدٌ بيده فيرسل يده حتى يرسلها الآخر، وما قعد إليه رجل قط فقام (ص) حتى يقوم، وكان يبدأ من لقيه بالسلام، ويبادىء أصحابه بالمصافحة، ولم يُر قط ماداً رجليه بين أصحابه، يُكرم من يدخل عليه، وربما

بسط لـه ثوبـه، ويؤثره بـالوسـادة التي تحته، ويكنّي أصحـابه ويـدعوهم بـأحب أسمائهم تكرمةً لهم، ولا يقطع عـلى أحد حـديثـه، وكـان يقسّم لحـظاتـه بـين أصحابه، وكان أكثر الناس تبسماً، وأطيبهم نفساً(١).

وعن أبي ذر الغفاري: كان رسول الله (ص) يجلس بين ظهرانيّ أصحابه، فيجيء الغريب فلا يدري أيُهم هو حتى يسأل، فطلبنا إليه أن يجعل مجلساً يعرفه الغريب إذا أتاه، فبنينا له دكاناً من طين فكان يجلس عليها، ونجلس بجانبه.

ورُوي أنه (ص) كان في سفر، فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يـا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر: علي سلخها، وقال آخر: عليَّ طبخها، فقال (ص): وعليَّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك. فقـال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكنْ أكره أن أتميّز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميِّزاً بـين أصحابه، وقام فجمع الحطب(٢).

وروي أنـه خرج رسـول الله (ص) إلى بئر يغتسـل، فأمسـك حذيفـة بن اليمان بالثوب على رسول الله وستره به حتى اغتسل، ثم جلس حذيفة ليغتسـل، فتناول رسول الله (ص) الثوب، وقام يسـتر حذيفـة، فأبى حـذيفة، وقـال: بأبي وأمي أنت يـا رسول الله لا تفعـل، فأبى رسـول الله إلا أن يسـتره بـالـثـوب حتى اغتسـل، وقـال: مـا اصـطحب اثنـان قط، إلا وكـان أحبهـما إلى الله أرفقهـما بصاحبه(٣).

وهكذا كان أمير المؤمنين (ع) في سمو أخلاقـه وتواضعـه، قال ضرار وهـو يصفه (ع):

«كان فينا كأحدنا، يدنينا إذا أتيناه، ويجيبنا إذا سألناه، ويأتينا إذا دعوناه، وينبئنا إذا استنبأناه، ونحن والله مع تقريبه إيّانا، وقربه منا، لا نكاد نكلمه هيبة له، فإن تبسّم فعن مثل اللؤلؤ المنظوم، يعظّم أهل الدين، ويقرّب المساكين، لا

---

(١) سفينة البحار المجلد الأول ص ٤١٥ بتصرف وتلخيص.

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤١٥.

(٣) سفينة البحار ج١ ص ٤١٦.

يطمع القويّ في باطله، ولا ييأس الضعيف من عدله».

وقال الصادق (ع): «خرج أمير المؤمنين (ع) راكباً على أصحابه، فمشوا خلفه، فالتفت إليهم فقال: لكم حاجة؟ فقالوا: لا يا أمير المؤمنين، ولكنّا نحب أن نمشي معك. فقال لهم: انصرفوا، فإن مشي الماشي مع الراكب، مفسدة للراكب، ومذلّة للماشي»(١).

وهكذا يقص الرواة طرفاً ممتعاً رائعاً من تواضع الأئمة الهداة عليهم السلام، وكريم أخلاقهم.

فمن تواضع الحسين (ع): أنه مرّ بمساكين وهم يأكلون كِسراً لهم على كساء، فسلّم عليهم، فدعوه إلى طعامهم، فجلس معهم وقال: لولا أنّه صدقة لأكلت معكم. ثم قال: قوموا إلى منزلي، فأطعمهم وكساهم وأمر لهم بدراهم(٢).

ومن تواضع الرضا (ع):

قال الراوي: كنت مع الرضا عليه السلام في سفره إلى خراسان، فدعا يوماً بمائدة، فجمع عليها مواليه من السودان وغيرهم، فقلت: جعلت فداك لو عزلت لهؤلاء مائدة. فقال: مه، إنّ الرب تبارك وتعالى واحد، والأم واحدة، والأب واحد، والجزاء بالأعمال(٣).

التكبر

وهو حالة تدعو إلى الإعجاب بالنفس، والتعاظم على الغير، بالقول أو الفعل، وهو: من أخطر الأمراض الخلقية، وأشدها فتكاً بالإنسان، وأدعاها إلى مقت الناس له وازدرائهم به، ونفرتهم منه.

لذلك تواتر ذمه في الكتاب والسنة:

(١) محاسن البرقي.
(٢) مناقب ابن شهرآشوب.
(٣) الكافي.

قال تعالى: ﴿ولا تصعّر خدك للناس، ولا تمش في الأرض مرحاً إن الله لا يحبُّ كل مختال فخور﴾ (لقمان: ١٨).

وقال تعالى: ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً، إنّك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا﴾ (الإسراء: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿إنه لا يحب المُستكبرين﴾ (النحل: ٢٣).

وقال تعالى: ﴿أليس في جهنم مثوى للمتكبرين﴾ (الزمر: ٦٠).

وقال الصادق (ع): «إن في السماء ملكين موكلين بالعباد، فمن تواضع لله رفعاه، ومن تكبر وضعاه»[١].

وقال (ع): «ما من رجل تكبر أو تجبر، إلا لذلة وجدها في نفسه»[٢].

وقال النبي (ص): «إن أحبّكم إليّ، وأقربكم مني، يوم القيامة مجلساً، أحسنكم خلقاً، وأشدكم تواضعاً، وإن أبعدكم مني يوم القيامة، الثرثارون، وهم المستكبرون»[٣].

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «مرّ رسول الله (ص) على جماعة فقال: على ما اجتمعتم؟ فقالوا: يا رسول الله هذا مجنون يُصرع، فاجتمعنا عليه. فقال: ليس هذا بمجنون، ولكنه المبتلى. ثم قال: ألا أخبركم بالمجنون حق المجنون؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «المتبختر في مشيه، الناظر في عطفيه، المحرّك جنبيه بمنكبيه، يتمنى على الله جنته، وهو يعصيه، الذي لا يُؤمنُ شره، ولا يُرجى خيره، فذلك المجنون وهذا المبتلى»[٤].

وقال أمير المؤمنين (ع) في خطبة له: «فاعتبروا بما كان من فعل الله بإبليس، إذ أحبط عمله الطويل، وجهده الجهيد؟ وكان قد عبد الله ستة آلاف

---

(١) الوافي ج٣ ص ٨٧ عن الكافي.

(٢) الوافي ج٣ ص ١٥٠ عن الكافي.

(٣) البحار مج ١٥ ج ٢ ص ٢٠٩، عن قرب الإسناد، وقريب منه في علل الشرائع للصدوق (ره).

(٤) البحار م (١٥) ج ٣ ص ١٢٥ عن الخصال للصدوق.

سنة، لا يُدرى أمن سنيّ الدنيا، أم من سنّي الآخرة، عن كِبر ساعة واحدة، فمن بعد إبليس يسلم على الله بمثل معصيته، كلا ما كان الله سبحانه ليدخل الجنة بشراً بأمرٍ أخرج به منها ملكاً، واستعيذوا بالله من لواقح الكِبْر، كما تستعيذون من طوارق الدهر، فلو رخّص الله في الكبر لأحد من عباده لرخّص فيه لخاصة أنبيائه ورسله، ولكنه سبحانه كره إليهم التكابر، ورضي لهم التواضع»[1].

وعن الصادق عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «وقع بين سلمان الفارسي وبين رجل كلام وخصومة فقال له الرجل: من أنت يا سلمان؟ فقال سلمان: أما أوليّ وأولك فنطفة قذرة، وأما آخِري وآخِرُك فجيفةٌ منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ووضعت الموازين، فمن ثقل ميزانه فهو الكريم، ومن خفّ ميزانه فهو اللئيم»[2].

وعن الصادق (ع) قال: «جاء رجل موسر إلى رسول الله (ص) نقيّ الثوب، فجلس إلى رسول الله، فجاء رجل معسر، درن الثوب، فجلس إلى جنب الموسر، فقبض الموسر ثيابه من تحت فخذيه، فقال له رسول الله (ص): أخفت أن يمسك من فقره شيء؟ قال: لا. قال: فخِفتَ أن يوسخ ثيابك؟ قال: لا. قال: فما حملك على ما صنعت؟ فقال: يا رسول الله إن لي قريناً يُزيّن لي كل قبيح ويقبّح لي كل حسن، وقد جعلت له نصف مالي. فقال رسول الله (ص) للمعسر: أتقبل؟ قال: لا. فقال له الرجل: لِمَ؟ قال: أخاف أن يدخلني ما دخلك».

مساويء التكبّر

من الواضح أنّ التكبر من الأمراض الأخلاقية الخطيرة، الشائعة في الأوساط الاجتماعية، التي سرت عدواها، وطغت مضاعفاتها على المجتمع، وغدا يعاني مساوئها الجمة.

فمن مساويء التكبر وآثاره السيئة في حياة الفرد:

(١) نهج البلاغة.

(٢) البحار م ١٥ ج ٣ ص ١٢٤ عن أمالي الصدوق.

أنه متى استبد بالإنسان، أحاط نفسه بهالة من الزهو والخيلاء، وجُنّ بحب الأنانية والظهور، فلا يسعده إلا الملق المزيف، والثناء الكاذب، فيتعامى آنذاك عن نقائصه وعيوبه، ولا يهتم بتهذيب نفسه، وتلافي نقائصه، ما يجعله هدفاً لسهام النقد، وعرضة للمقت والإزدراء.

هذا إلى أن المتكبر أشد الناس عُتوّاً وامتناعاً عن الحق والعدل، ومقتضيات الشرائع والأديان.

ومن مساوىء التكبر الاجتماعية:

أنه يُشيع في المجتمع روح الحقد والبغضاء، ويعكّر صفو العلاقات الاجتماعية، فلا يسيء الناس ويستثير سخطهم ومقتهم، كما يستثيره المتكبر الذي يتعالى عليهم بصلفه وأنانيته.

إن الغطرسة داء يُشقي الإنسان، ويجعله منبوذاً يعاني مرارة العزلة والوحشة، ويشقي كذلك المرتبطين به بصنوف الروابط والعلاقات.

بواعث التكبر

الأخلاق البشرية كريمة كانت أو ذميمة، هي انعكاسات النفس على صاحبها، وفيض نبعها، فهي تُشرق وتُظلم، ويحلو فيضها ويمرّ تبعاً لطيبة النفس أو لؤمها، استقامتها أو انحرافها، وما من خلق ذميم إلا وله سبب من أسباب لؤم النفس أو انحرافها.

فمن أسباب التكبر: مغالاة الإنسان في تقييم نفسه، وتثمين مزاياها وفضائلها، والإفراط في الإعجاب والزهو بها، فلا يتكبر المتكبر إلا إذا آنس من نفسه علماً وافراً، أو منصباً رفيعاً، أو ثراءاً ضخماً، أو جاهاً عريضاً، ونحو ذلك من مثيرات الأنانية والتكبر.

وقد ينشأ التكبر من بواعث العداء أو الحسد أو المباهاة، مما يدفع المتصفين بهذه الخلال على تحدي الأماثل والنبلاء، وبخس كراماتهم، والتطاول عليهم، بصنوف الإزدراءات الفعلية أو القولية، كما يتجلى ذلك في تصرفات المتنافسين والمتحاسدين في المحافل والندوات.

درجات التكبر

وهكذا تتفاوت درجات التكبر وأبعاده بتفاوت أعراضه شدّةً وضعفاً.

فالدرجة الأولى: وهي التي كَمِنَ التكبر في صاحبها، فعالجه بالتواضع، ولم تظهر عليه أعراضه ومساوئه.

والدرجة الثانية: وهي التي نما التكبر فيها، وتجلت أعراضه بالاستعلاء على الناس، والتقدم عليهم في المحافل، والتبختر في المشي.

والدرجة الثالثة: وهي التي طغى التكبر فيها، وتفاقمت مضاعفاته فجُن صاحبها بجنون العظمة، والإفراط في حب الجاه والظهور، فطفق يلهج في محاسنه وفضائله، واستنقاص غيره واستصغاره. وهذه أسوأ درجات التكبر، وأشدها صَلَفاً وعتوّاً:

أنواع التكبر

وينقسم التكبر باعتبار مصاديقه إلى ثلاثة أنواع:

(١) ـ التكبر على الله عز وجل:

وذلك بالامتناع عن الإيمان به، والاستكبار عن طاعته وعبادته. وهو أفحش أنواع الكفر، وأبشع أنواع التكبر، كما كان عليه فرعون ونمرود وأضرابهما من طغاة الكفر وجبابرة الإلحاد.

(٢) ـ التكبر على الأنبياء:

وذلك بالترفع عن تصديقهم والإذعان لهم، وهو دون الأول وقريب منه.

(٣) ـ التكبر على الناس:

وذلك بازدرائهم والتعالي عليهم بالأقوال والأفعال، ومن هذا النوع التكبر على العلماء المخلصين، والترفع عن مسائلتهم والانتفاع بعلومهم وإرشادهم، مما يفضي بالمستكبرين إلى الخسران والجهل بحقائق الدين، وأحكام الشريعة الغراء.

علاج التكبر

وحيث كان التكبر هوساً أخلاقياً خطيراً ماحقاً، فجدير بكل عاقل أن يأخذ حذره منه، وأن يجتهد ـ إذا ما داخلته أعراضه ـ في علاج نفسه، وتطهيرها من مثالبه، وإليك مجملاً من النصائح العلاجية:

(١) ـ أن يعرف المتكبر واقعه وما يتصف به من ألوان الضعف والعجز: فأوله نطفة قذرة، وآخره جيفة منتنة، وهو بينهما عاجز واهن، يرهقه الجوع والظمأ، ويعتوره السقم والمرض، وينتابه الفقر والضُر، ويدركه الموتُ والبِلى، لا يقوى على جلب المنافع وردّ المكاره، فحقيق بمن اتصف بهذا الوهن، أن ينبذ الأنانية والتكبر، مستهدياً بالآية الكريمة ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ (القصص: ٨٣).

فأفضل الناس أحسنهم أخلاقاً، وأكثرهم نفعاً، وأشدّهم تقوى وصلاحاً.

(٢) ـ أن يتذكر مآثر التواضع ومحاسنه، ومساويء التكبر وآثامه، وما ترادف في مدح الأول وذم الثاني من دلائل العقل والنقل، قال بزرجمهر: «وجدنا التواضع مع الجهل والبخل، أحمد عند العقلاء من الكبر مع الأدب والسخاء، فأنبِل بحسنة غطّت على سيئتين، وأقبح بسيئة غطّت على حسنتين»[1].

(٣) ـ أن يروض نفسه على التواضع، والتخلق بأخلاق المتواضعين، لتخفيف حدة التكبر في نفسه، وإليك أمثلة في ذلك:

أ ـ جدير بالعاقل عند احتدام الجدل والنقاش في المساجلات العلمية أن يذعن لمناظره بالحق إذا ما ظهر عليه بحجته، متفادياً نوازع المكابرة والعناد.

ب ـ أن يتفادى منافسة الأقران في السبق إلى دخول المحافل، والتصدر في المجالس.

جـ ـ أن يخالط الفقراء والبؤساء، ويبدأهم بالسلام، ويؤاكلهم على المائدة، ويجيب دعوتهم، متأسياً بأهل البيت عليهم أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) محاضرات الأدباء للراغب.

القناعة

وهي: من الاكتفاء من المال بقدر الحاجة والكفاف، وعدم الاهتمام فيما زاد عن ذلك.

وهي: صفة كريمة، تعرب عن عزة النفس، وشرف الوجدان، وكرم الأخلاق.

وإليك بعض ما أثر عن فضائلها من النصوص:

قال الباقر (ع): «من قنع بما رزقه الله فهو من أغنى الناس»[1].

إنما صار القانع من أغنى الناس، لأن حقيقة الغنى هي: عدم الحاجة إلى الناس، والقانع راض ومكتف بما رزقه الله، لا يحتاج ولا يسأل سوى الله.

قيل: لما مات جالينوس وُجد في جيبه رقعة مكتوب فيها: «ما أكلته مقتصداً فلجسمك، وما تصدقت به فلروحك، وما خلفته فلغيرك، والمحسن حيّ وإن نقُل إلى دار البلى، والمسيء ميت وإن بقي في دار الدنيا، والقناعة تستر الخِلّة، والتدبير يكثّر القليل، وليس لابن آدم أنفع من التوكل على الله سبحانه»[2].

وشكى رجل إلى أبي عبدالله عليه السلام أنّه يطلب فيصيب، ولا يقنع، وتنازعه نفسه إلى ما هو أكثر منه، وقال: علمني شيئاً أنتفع به. فقال أبو عبدالله (ع): «إن كان ما يكفيك يغنيك، فأدنى ما فيها يغنيك وإنْ كان ما يكفيك لا يغنيك، فكل ما فيها لا يغنيك»[3].

وقال الباقر (ع): «إيّاك أن يطمح بصرك إلى من هو فوقك فكفى بما قال الله تعالى لنبيه (ص) ﴿ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم﴾ وقال: ﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا﴾، فإن دخلك من ذلك شيء، فاذكر عيش رسول الله (ص)، فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده»[4].

(١) الوافي ج ٣ ص ٧٩ عن الكافي.
(٢) كشكول البهائي، طبع ايران ص ٣٧١.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٧٩ عن الكافي.
(٤) الوافي الجزء ٣ ص ٧٨ عن الكافي.

محاسن القناعة

للقناعة أهمية كبرى، وأثر بالغ في حياة الإنسان، وتحقيق رخائه النفسي والجسمي، فهي تحرره من عبودية المادة، واسترقاق الحرص والطمع، وعنائهما المرهق، وهوانهما المذل، وتنفخ فيه روح العزة، والكرامة، والإباء، والعفة، والترفع عن الدنايا، واستدرار عطف اللئام.

والقانع بالكفاف أسعد حياة، وأرخى بالاً، وأكثر دعة واستقراراً، من الحريص المتفاني في سبيل أطماعه وحرصه، والذي لا ينفك عن القلق والمتاعب والهموم.

والقناعة بعد هذا تمدّ صاحبها بيقظة روحية، وبصيرة نافذة، وتحفزّه على التأهب للآخرة، بالأعمال الصالحة، وتوفير بواعث السعادة فيها.

ومن طريف ما أثر في القناعة:

أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان يقاسي الضرُّ بين أخصاص البصرة، وأصحابه يقتسمون الرغائب بعلمه في النواحي.

ذكروا أن سليمان بن علي العباسي، وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً يابساً، وقال: كل فما عندي غيره، وما دمت أجده فلا حاجة لي إلى سليمان. فقال الرسول: فما أبلغه؟ فقال:

أبلغ سليمان أني عنه في سعة وفي غنىً غير أني لست ذا مال
والفقر في النفس لا في المال فاعرفه ومثل ذاك الغنى في النفس لا المال
فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه ولا يزيدك فيه حول محتال[١]

وفي كشكول البهائي «أنه ارسل عثمان بن عفان مع عبد له كيساً من الدراهم إلى أبي ذر وقال له: إنْ قبل هذا فأنت حُرّ، فأتى الغلام بالكيس إلى أبي ذر، وألح عليه في قبوله، فلم يقبل، فقال له: أقبله فإنّ فيه عتقي. فقال: نعم ولكن فيه رقي»[٢].

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٤٢٦ بتصرف.
(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤٨٣.

«وكان ديوجانس الكلبي من أساطين حكماء اليونان، وكان متقشفاً، زاهداً، لا يقتني شيئاً، ولا يأوي إلى منزل، دعاه الإسكندر إلى مجلسه. فقال للرسول قل له: ان الذي منعك من المسير إلينا، هو الذي منعنا من المسير إليك، منعك استغناؤك عنّا بسلطانك، ومنعني استغنائي عنك بقناعتي»[٢].

وكتب المنصور العباسي إلى أبي عبدالله الصادق عليه السلام: لِمَ لا تغشانا كما يغشانا الناس؟ فأجابه: ليس لنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك بها، ولا في نقمة فنعزيك بها. فكتب المنصور: تصحبنا لتنصحنا. فقال أبو عبدالله (ع): «من يطلب الدنيا لا ينصحك، ومن يطلب الآخرة لا يصحبك»[٢].

وما أحلى قول أبي فراس الحمداني في القناعة:

إنّ الغنى هو الغني بنفسه ... ولو أنّه عار المناكب حاف
ما كل ما فوق البسيطة كافياً ... فإذا قنعت فكل شيء كاف

الحرص

الحرص: هو الإفراط في حب المال، والاستكثار منه، دون أن يكتفي بقدر محدود. وهو من الصفات الذميمة، والخصال السيئة، الباعثة على ألوان المساوىء والآثام، وحسب الحريص ذماً أنه كلما ازداد حرصاً ازداد غباءاً وغماً.

وإليك بعض ما ورد في ذمه:

قال الباقر (ع): «مثل الحريص على الدنيا، مثل دوده القز كلما ازدادت من القز على نفسها لفاً، كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غماً»[٣].

لذلك قال الشاعر:

يفني البخيل بجمع المال مدته ... وللحوادث والأيام ما يدع
كدودة القز ما تبنيه يهدمها ... وغيرها بالذي تبنيه ينتفع

---

(١) سفينة البحار ج٢ ص ٤٥١.

(٢) كشكول البهائي.

(٣) الوافي ج ٣ ص ١٥٢ عن الكافي.

وقال الصادق (ع): «إن فيما نزل به الوحي من السماء: لو أن لابن آدم واديين، يسيلان ذهباً وفضة، لابتغى لهما ثالثاً، يابن آدم إنما بطنك بحر من البحور، وواد من الأودية، لا يملأه شيء إلا التراب»(١).

وقال (ع): «ما ذئبان ضاريان، في غنم قد فارقها رعاؤها أحدهما في أولها والآخر في آخرها، بأفسد فيها من حب المال «الدنيا خ ل» والشرف في دين المسلم»(٢).

وقال أمير المؤمنين (ع) في ضمن وصيته لولده الحسن عليه السلام: «واعلم يقيناً أنك لن تبلغ أملك، ولن تعدو أجلك، وأنك في سبيل من كان قبلك، فخفض في الطلب، وأجمل في المكتسب، فإنه رب طلب، قد جر إلى حرب، فليس كل طالب بمرزوق، ولا كل مجمل بمحروم»(٣).

وقال الحسن بن علي عليهما السلام:

«هلاك الناس في ثلاث: الكبر. والحرص. والحسد.

فالكبر هلاك الدين وبه لعن ابليس...

والحرص عدو النفس، وبه أخرج آدم من الجنة.

والحسد رائد السوء ومنه قتل قابيل هابيل»(٤).

مساوىء الحرص

وبديهي أنه متى استبد الحرص بالإنسان، استرقه، وسبب له العناء والشقاء، فلا يهم الحريص، ولا يشبع جشعه إلا استكثار الأموال واكتنازها، دون أن ينتهي إلى حد محدود، فكلما أدرك مأرباً طمح إلى آخر، وهكذا يلج به الحرص، وتستعبده الأطماع، حتى يوافيه الموت فيغدو ضحية الغناء والخسران.

والحريص أشد الناس جهداً في المال، وأقلهم انتفاعاً واستمتاعاً به،

(١) الوافي ج٣ ص ١٥٤ عن من لا يحضره الفقيه للصدوق (ره).

(٢) مرآه العقول في شرح الكافي للمجلسي (ره) ج ٢ عن الكافي. ص ٣٠٣.

(٣) نهج البلاغة.

(٤) كشف الغمة.

يشقى بكسبه وادخاره، وسرعان ما يفارقه بالموت، فيهنأ به الوارث، من حيث شقي هو به، وحرم من لذته.

والحرص بعد هذا وذاك، كثيراً ما يزج بصاحبه في مزالق الشبهات والمحرمات والتورط في آثامها، ومشاكلها الأخروية، كما يعيق صاحبه عن أعمال الخير، وكسب المثوبات كصلة الأرحام وإعانة البؤساء والمعوزين، وفي ذلك ضرر بالغ، وحرمان جسيم.

علاج الحرص

وبعد أن عرفنا مساوىء الحرص يحسن بنا أن نعرض مجملاً من وسائل علاجه ونصائحه وهي:

١ ـ أن يتذكر الحريص مساوىء الحرص، وغوائله الدينية والدنيوية وأن الدنيا في حلالها حساب، وفي حرامها عقاب، وفي الشبهات عتاب.

٢ ـ أن يتأمل ما أسلفناه من فضائل القناعة، ومحاسنها، مستجلياًسيرة العظماء الأفذاذ، من الأنبياء والأوصياء والأولياء، في زهدهم في الحياة، وقناعتهم باليسير منها.

٣ ـ ترك النظر والتطلع إلى من يفوقه ثراءاً، وتمتعاً بزخارف الحياة والنظر إلى من دونه فيها فذلك من دواعي القناعة وكبح جماح الحرص.

٤ ـ الاقتصاد المعاشي، فإنه من أهم العوامل، في تخفيف حدة الحرص، إذ الإسراف في الإنفاق يستلزم وفرة المال، والإفراط في كسبه والحرص عليه.

قال الصادق عليه السلام: «ضمنت لمن اقتصد أن لا يفتقر»[1].

الكرم

الكرم ضد البخل، وهو: بذل المال أو الطعام أو أي نفع مشروع، عن طيب نفس.

---

(١) البحار مج ١٥ ج٢ ص١٩٩ عن الخصال للصدوق (ره).

وهو من أشرف السجايا، وأعزّ المواهب، وأخلد المآثر. وناهيك في فضله أنّ كل نفيس جليل يوصف بالكرم، ويُعزى إليه، قال تعالى: ﴿إنّه لقرآن كريم﴾ (الواقعة: ٧٧). ﴿وجاءهم رسول كريم﴾ (الدخان: ١٧). ﴿وزروع ومقام كريم﴾ (الدخان: ٢٦).

لذلك أشاد أهل البيت عليهم السلام بالكرم والكرماء، ونوّهوا عنهما أبلغ تنويه:

قال الباقر (ع): «شاب سخيّ مرهق في الذنوب، أحبّ إلى الله من شيخ عابد بخيل»[1].

وقال الصادق (ع): «أتى رجل النبي (ص) فقال: يا رسول الله أيّ الناس أفضلهم إيماناً؟ فقال: أبسطهم كفاً»[2].

وعن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «السخيّ قريب من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة. والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار»[3].

وقال الباقر (ع): «أنفق وأيقن بالخلف من الله، فإنه لم يبخل عبد ولا أمة بنفقة فيما يرضي الله، إلا أنفق أضعافها فيما يُسخط الله»[4].

محاسن الكرم

لا يسعد المجتمع، ولا يتذوق حلاوة الطمأنينة والسلام، ومفاهيم الدعة والرخاء، إلا باستشعار أفراده روح التعاطف والتراحم، وتجاوبهم في المشاعر والأحاسيس، في سراء الحياة وضرائها، وبذلك يغدو المجتمع كالبنيان المرصوص، يشد بعضه بعضاً.

وللتعاطف صور زاهرة، تشع بالجمال والروعة والبهاء، ولا ريب أن

(١) الوافي ج ٦ ص ٦٨ عن الكافي والفقيه.
(٢) الوافي ج ٦ ص ٦٧ عن الكافي.
(٣) البحار م ١٥ ج ٣ عن كتاب الإمامة والتبصرة.
(٤) الوافي ج ٦ ص ٦٨ عن الكافي.

أسماها شأناً، وأكثرها جمالاً وجلالاً، وأخلدها ذكراً هي: عطف الموسرين، وجودهم على البؤساء والمعوزين، بما يخفف عنهم آلام الفاقة ولوعة الحرمان.

وبتحقيق هذا المبدأ الإنساني النبيل (مبدأ التعاطف والتراحم) يستشعر المعوزون إزاء ذوي العطف عليهم، والمحسنين إليهم، مشاعر الصفاء والوئام والودّ، مما يسعد المجتمع، ويشيع فيه التجاوب، والتلاحم والرخاء.

وبإغفاله يشقى المجتمع، وتسوده نوازع الحسد، والحقد، والبغضاء، والكيد. فينفجر عن ثورة عارمة ماحقة، تزهق النفوس، وتمحق الأموال، وتهدد الكرامات.

من أجل ذلك دعت الشريعة الإسلامية إلى السخاء والبذل والعطف على البؤساء والمحرومين، واستنكرت على المجتمع أن يراهم يتضورون سَغَباً وحرماناً، دون أن يتحسس بمشاعرهم، وينبري لنجدتهم وإغاثتهم. واعتبرت الموسرين القادرين والمتقاعسين عن إسعافهم أبعد الناس عن الإسلام، وقد قال رسول الله (ص): «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1].

وقال (ص): «ما آمن بي من بات شبعاناً وجاره جائع، وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[2].

وإنما حرّض الإسلام أتباعه على الأريحية والسخاء، ليكونوا مثلاً عالياً في تعاطفهم ومواساتهم، ولينعموا بحياة كريمة، وتعايش سلمي، ولأن الكرم صمام أمن المجتمع، وضمان صفائه وازدهاره.

مجالات الكرم

تتفاوت فضيلة الكرم، بتفاوت مواطنه ومجالاته. فأسمى فضائل الكرم، وأشرف بواعثه ومجالاته، ما كان استجابة لأمر الله تعالى، وتنفيذاً لشرعه المُطاع، وفرائضه المقدسة، كالزكاة، والخمس، ونحوهما.

وهذا هو مقياس الكرم والسخاء في عرف الشريعة الإسلامية، كما قال

(١) و(٢) عن الكافي.

النبي (ص): «من أدى ما افترض الله عليه، فهو أسخى الناس»[١].

وأفضل مصاديق البر والسخاء بعد ذلك، وأجدرها ـ عيال الرجل وأهل بيته، فإنهم فضلاً عن وجوب الإنفاق عليهم، وضرورته شرعاً وعرفاً، أولى بالمعروف والإحسان، وأحق بالرعاية واللطف.

وقد يشذّ بعض الأفراد عن هذا المبدأ الطبيعي الأصيل، فيغدقون نوالهم وسخاءهم على الأباعد والغرباء، طلباً للسمعة والمباهاة، ويتصفون بالشح والتقتير على أهلهم وعوائلهم، مما يجعلهم في ضنك واحتياج مريرين، وهم ألصق الناس بهم وأحناهم عليهم، وذلك من لؤم النفس، وغباء الوعي.

لذلك أوصى أهل البيت (ع) بالعطف على العيال، والترفيه عنهم بمقتضيات العيش ولوازم الحياة:

قال الإمام الرضا (ع): «ينبغي للرجل أن يوسع على عياله، لئلا يتمنوا موته»[٢].

وقال الإمام موسى بن جعفر (ع): «إنّ عيال الرجل أسراؤه، فمن أنعم الله عليه نعمةً فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل أوشك أن تزول تلك النعمة»[٣].

والأرحام بعد هذا وذاك، أحق الناس بالبر، وأحراهم بالصلة والنوال، لأواصرهم الرحمية، وتساندهم في الشدائد والأزمات.

ومن الخطأ الفاضح، حرمانهم من تلك العواطف، وإسباغها على الأباعد والغرباء، ويعتبر ذلك ازدراءاً صارخاً، يستثير سخطهم ونفارهم، ويحرم جافيهم من عطفهم ومساندتهم.

وهكذا يجدر بالكريم، تقديم الأقرب الأفضل، من مستحقي الصلة والنوال: كالأصدقاء والجيران، وذوي الفضل والصلاح، فإنهم أولى بالعطف من غيرهم.

---

(١) الوافي ج ٦ ص ٦٧ عن الفقيه.
(٢) الوافي ج ٦ ص ٦١ عن الكافي والفقيه.
(٣) الوافي ج ٦ ص ٦١ عن الكافي والفقيه

بواعث الكرم

وتختلف بواعث الكرم، باختلاف الكرماء، ودواعي أريحيتهم، فأسمى البواعث غاية، وأحمدها عاقبة، ما كان في سبيل الله، وابتغاء رضوانه، وكسب مثوبته.

وقد يكون الباعث رغبة في الثناء، وكسب المحامد والأمجاد، وهنا يغدو الكريم تاجراً مساوماً بأريحيته وسخائه.

وقد يكون الباعث رغبة في نفع مأمول، أو رهبة من ضرر مخوف، يحفزان على التكرم والإحسان.

ويلعب الحب دوراً كبيراً في بعث المحب وتشجيعه على الأريحية والسخاء. استمالةً لمحبوبه. واستدراراً لعطفه.

والجدير بالذكر أن الكرم لا يجمل وقعه، ولا تحلو ثماره، إلا إذا تنزه عن المنّ، وصفى من شوائب التسويف والمطل، وخلا من مظاهر التضخيم والتنويه، كما قال الصادق (ع): «رأيت المعروف لا يصلح إلا بثلاث خصال: تصغيره، وستره، وتعجيله. فإنك إذا صغرّته عظّمته عند من تصنعه إليه، وإذا سترته تمّمته، وإذا عجّلته هنيته، وإن كان غير ذلك محقته ونكدته»[1].

الإيثــــار

وهو: أسمى درجات الكرم، وأرفع مفاهيمه، ولا يتحلى بهذه الصفة المثالية النادرة، إلا الذين تحلوا بالأريحية، وبلغوا قمة السخاء، فجادوا بالعطاء، وهم بأمس الحاجة إليه، وآثروا بالنوال، وهم في ضنك من الحياة، وقد أشاد القرآن بفضلهم قائلاً: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (الحشر: ٩).

وسُئل الصادق (ع): أي الصدقة أفضل؟ قال: جُهْد المُقِل، أما سمعت الله تعالى يقول: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾[2].

---

(١) البحار م ١٦ من كتاب العشرة ص ١١٦ عن علل الشرائع للصدوق (ره).

(٢) الوافي ج ٦ ص ٥٨ عن الفقيه.

ولقد كان النبي (ص) المثل الأعلى في عظمة الإيثار، وسمو الأريحية.

قال جابر بن عبدالله: ما سُئل رسول الله (ص) شيئاً فقال لا.

وقال الصادق (ع): «إن رسول الله أقبل إلى الجِعِرانة، فقسم فيها الأموال، وجعل الناس يسألونه فيعطيهم، حتى ألجاوه إلى شجرة فأخذت برده، وخدشت ظهره، حتى جلوه عنها، وهم يسألونه، فقال: أيها الناس ردوا علي بردي، والله لو كان عندي عدد شَجَرِ تهامة نعماً لقسمته بينكم، ثم ما ألفيتموني جباناً ولا بخيلاً...»[1].

وقد كان (ص) يؤثر على نفسه البؤساء والمعوزين، فيجود عليهم بماله وقوته، ويظل طاوياً، وربما شد حجر المجاعة على بطنه مواساة لهم.

قال الباقر (ع): «ما شبع النبي من خبز بُر ثلاثة أيام متوالية، منذ بعثه الله إلى أن قبضه»[2].

وهكذا كان أهل بيته عليهم السلام في كرمهم وإيثارهم:

قال الصادق (ع): «كان عليّ أشبه الناس برسول الله، كان يأكل الخبز والزيت، ويطعم الناس الخبز واللحم»[3].

وفي علي وأهل بيته الطاهرين، نزلت الآية الكريمة:

﴿ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيماً وأسيراً. إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءاً ولا شكوراً﴾ (الدهر: ٨ ـ ٩).

فقد أجمع أولياء أهل البيت على نزولها في علي وفاطمة والحسن والحسين.. وقد أخرجه جماعة من أعلام غيرهم، وإليك ما ذكره الزمخشري في تفسير السورة من الكشاف.

قال: «وعن ابن عباس أنّ الحسن والحسين مرضا، فعادهما رسول الله في

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٠٧ عن علل الشرائع. والجعرانة موضع بين مكة والطائف.
(٢) سفينة البحار ج ١ ص ١٩٤ عن الكافي.
(٣) البحار م ٩ ص ٥٣٨ عن الكافي.

ناس معه، فقالوا: يا أبا الحسن لو نذرت على ولديك، فنذر علي وفاطمة وفضة جارية لهما، إنْ برئا مما بهما أن يصوموا ثلاثة أيام فشفيا، وما معهم شيء، فاستقرض علي من شمعون الخيبري اليهودي ثلاثة أصوع من شعير، فطحنت فاطمة صاعاً، واختبزت خمسة أقراص على عددهم، فوضعوها بين أيديهم ليفطروا، فوقف عليهم سائل فقال: السلام عليكم أهل بيت محمد، مسكين من مساكين المسلمين، أطعموني أطعمكم الله من موائد الجنة، فآثروه، وباتوا ولم يذوقوا إلا الماء، وأصبحوا صياماً، فلما أمسوا ووضعوا الطعام بين أيديهم، وقف عليهم يتيم فآثروه، ووقف عليهم أسير في الثالثة ففعلوا مثل ذلك.

فلما أصبحوا أخذ عليّ بيد الحسن والحسين وأقبلوا إلى رسول الله، فلما أبصرهم وهم يرتعشون كالفراخ من شدة الجوع، قال: ما أشدّ ما يسوؤني ما أرى بكم، وقام فانطلق معهم فرأى فاطمة في محرابها، قد التصق بطنها بظهرها، وغارت عيناها، فساءه ذلك، فنزل جبرائيل وقال: خذها يا محمد هنّاك الله في أهل بيتك، فأقرأه السورة»[1].

وقد زخرت أسفار السير بإيثارهم، وأريحيتهم، بما يطول ذكره في هذا البحث المجمل.

البخـــــل

وهو: الإمساك عما يحسن السخاء فيه، وهو ضد الكرم.

والبخل من السجايا الذميمة، والخلال الخسيسة، الموجبة لهوان صاحبها ومقته وازدرائه، وقد عابها الإسلام، وحذّر المسلمين منها تحذيراً رهيباً.

قال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنيّ وأنتم الفقراء﴾ (محمد: ٣٨).

وقال تعالى: ﴿الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل، ويكتمون ما آتاهم

(١) عن الكلمة الغراء ـ للمرحوم آية الله السيد عبد الحسين شرف الدين ص ٢٩ نقل بتصرف وتلخيص.

الله من فضله، واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً﴾ (النساء: ٣٧).

وقال تعالى: ﴿ولا يحسبنّ الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شرٌ لهم سيُطوّقون ما بخلوا به يوم القيامة﴾ (آل عمران: ١٨٠).

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام: «أن أمير المؤمنين سمع رجلاً يقول: إنّ الشحيح أغْدرُ من الظالم. فقال: كذبت إن الظالم قد يتوب ويستغفر، ويردّ الظلامة عن أهلها، والشحيح إذا شحّ منع الزكاة، والصدقة، وصلة الرحم، وقرى الضيف، والنفقة في سبيل الله تعالى، وأبواب البر، وحرام على الجنة أن يدخلها شحيح»[1].

وعن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله (ص): السخي قريبٌ من الله، قريب من الناس، قريب من الجنة، والبخيل بعيد من الله، بعيد من الناس، قريب من النار»[2].

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «عجبت للبخيل يستعجل الفقر الذي منه هرب، ويفوته الغنى الذي إيّاه طلب، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء»[3].

وسنعرض أخباراً أخرى في مطاوي هذا البحث.

مساوىء البخل

البخل سجية خسيسة، وخُلق لئيم باعث على المساوىء الجمة، والأخطار الجسيمة في دنيا الإنسان وأخراه.

أما خطره الأخروي: فقد أعربت عنه أقوال أهل البيت عليهم السلام ولخّصه أمير المؤمنين (ع) في كلمته السالفة حيث قال: «والشحيح إذا شحّ منع الزكاة، والصدقة، وصلة الرحم، وقرى الضيف، والنفقة في سبيل الله،

---

(١) الوافي ج ٦ ص ٦٩ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٣ عن كتاب الإمامة والتبصرة.

(٣) نهج البلاغة.

وأبواب البر، وحرام على الجنة أن يدخلها شحيح».

وأما خطره الدنيوي فإنه داعية للمقت والإزدراء، لدى القريب والبعيد وربما تمنى موتَ البخيل أقربُهم إليه، وأحبهم له، لحرمانه من نواله وطمعاً في تراثه.

والبخيل بعد هذا أشدّ الناس عناءاً وشقاءاً، يكدح في جمع المال والثراء، ولا يستمتع به، وسرعان ما يخلّفه للوارث، فيعيش في الدنيا عيش الفقراء، ويحاسب في الآخرة حساب الأغنياء.

صور البخل

والبخل - وإن كان ذميماً مقيتاً - بيد أنّه يتفاوت ذمّه، وتتفاقم مساوئه، باختلاف صوره وأبعاده:

فأقبح صوره وأشدُّها إثماً، هو البخل بالفرائض المالية، التي أوجبها الله تعالى على المسلمين، تنظيماً لحياتهم الاقتصادية، وإنعاشاً لمعوزيهم.

وهكذا تختلف معائب البخل، باختلاف الأشخاص والحالات: فبخل الأغنياء أقبح من بخل الفقراء، والشحّ على العيال أو الأقرباء أو الأصدقاء أو الأضياف أبشع وأذمّ منه على غيرهم، والتقتير والتضييق في ضرورات الحياة من طعام وملابس، أسوأ منه في مجالات الترف والبذخ أعاذنا الله من جميع صوره ومثالبه.

علاج البخل

وحيث كان البخل من النزعات الخسيسة، والخلال الماحقة، فجدير بالعاقل علاجه ومكافحته، وإليك بعض النصائح العلاجية له:

١ - أن يستعرض ما أسلفناه من محاسن الكرم، ومساوىء البخل، فذلك يخفف من سورة البخل. وإن لم يُجْدِ ذلك، كان على الشحيح أن يخادع نفسه بتشويقها إلى السخاء، رغبة في الثناء والسمعة، فإذا ما أنس بالبذل، وارتاح إليه، هذّب نفسه بالإخلاص، وحبب إليها البذل في سبيل الله عز وجل.

٢ ـ للبخل أسباب ودوافع، وعلاجه منوط بعلاجها، وبدرء الأسباب تزول المسبّبات.

وأقوى دوافع الشحّ خوف الفقر، وهذا الخوف من نزعات الشيطان، وإيحائه المثّبط عن السخاء، وقد عالج القرآن الكريم ذلك بأسلوبه البديع الحكيم، فقرّر: أن الإمساك لا يجدي البخيل نفعاً، وإنما ينعكس عليه إفلاساً وحرماناً، فقال تعالى: ﴿ها أنتم هؤلاء تُدعون لتنفقوا في سبيل الله فمنكم من يبخل، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء﴾ (محمد: ٣٨).

وقرر كذلك أن ما يسديه المرء من عوارف السخاء، لا تضيع هدراً، بل تعود مخلوفة على المُسدي، من الرزاق الكريم، قال عز وجل: ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه، وهو خير الرازقين﴾ (سبأ: ٣٩).

وهكذا يضاعف القرآن تشويقه إلى السخاء، مؤكداً أن المنفق في سبيل الله هو كالمقرض لله عز وجل، وأنه تعالى بلطفه الواسع يَرُدُّ عليه القرض أضعافاً مضاعفة: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة، والله يضاعف لمن يشاء، والله واسع عليم﴾ (البقرة: ٢٦١).

أما الذين استرقهم البخل، ولم يُجْدهم الإغراء والتشويق إلى السخاء، يوجّه القرآن إليهم تهديداً رهيباً، يملأ النفس ويهزّ المشاعر:

﴿والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم. يوم يُحمى عليها في نار جهنم، فتُكْوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾ (التوبة: ٣٤ ـ ٣٥).

ومن دواعي البخل: إهتمام الأباء بمستقبل أبنائهم من بعدهم، فيضنون بالمال توفيراً لأولادهم، وليكون ذخيرة لهم، تقيهم العوز والفاقة.

وهذه غريزة عاطفية راسخة في الإنسان، لا تضرّه ولا تجحف به، ما دامت سويّة معتدلة، بعيدة عن الإفراط والمغالاة.

بيد أنه لا يليق بالعاقل، أن يسرف فيها، وينجرف بتيارها، مضحياً بمصالحه الدنيوية والدينية في سبيل أبنائه.

وقد حذّر القرآن الكريم الآباء من سطوة تلك العاطفة، وسيطرتها عليهم كيلا يفتتنوا بحب أبنائهم، ويقترفوا في سبيلهم ما يخالف الدين والضمير: ﴿واعلموا أنما أموالكم، وأولادكم فِتْنة، وأن الله عنده أجر عظيم﴾ (الأنفال: ٢٩).

وأعظم ما قاله أمير المؤمنين (ع) في كتاب له: «أما بعد، فإن الذي في يديك من الدنيا. قد كان له أهل قبلك، وهو صائر إلى أهل بعدك، وإنما أنت جامعٌ لأحد رجلين: رجل عمل فيما جمعته بطاعة الله، فسعد بما شقيت به، أو رجل عمل فيه بمعصية الله، فشقي بما جمعت له، وليس أحد هذين أهلاً أن تؤثره على نفسك، وتحمل له على ظهرك، فأرجو لمن مضى رحمة الله، ولمن بقيّ رزق الله»[1].

وعن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله تعالى: ﴿كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم﴾ (البقرة: ١٦٧) قال: «هو الرجل يدع ماله لا ينفقه في طاعة الله بخلاً، ثم يموت فيدعه لمن يعمل فيه بطاعة الله، أو في معصية الله، فإنْ عمل فيه بطاعة الله، رآه في ميزان غيره فرآه حسْرةً، وقد كان المال له، وإن كان عمل به في معصية الله، قوّاه بذلك المال حتى عمل به في معصية الله»[2].

* * *

وهناك فئة تعشق المال لذاته، وتهيم بحبه، دون أن تتخذه وسيلة إلى سعادة دينية أو دنيوية، وإنما تجد أنسها ومتعتها في اكتناز المال فحسب، ومن ثم تبخل به أشد البخل.

وهذا هَوَس نفسي، يُشقي أربابه، ويوردهم المهالك، ليس المال غاية، وإنما هو ذريعة لمآرب المعاش أو المعاد، فإذا انتفت الذريعتان غدا المال تافهاً عديم النفع.

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) الوافي ج ٦ ص ٦٩ عن الكافي والفقيه.

وكيف يكدح المرء في جمع المال واكتنازه؟! ثم سرعان ما يغنمه الوارث. ويتمتع به. فيكون له المهنى وللمورث الوزر والعناء.

وقد استنكر القرآن الكريم هذا الهَوَس، وأنذر أربابه إنذاراً رهيباً: ﴿كلا بل لا تكرمون اليتيم، ولا تحاضون على طعام المسكين، وتأكلون التراث أكلاً لمّاً، وتحبون المال حباً جماً، كلا إذا دكت الأرض دكاً دكاً، وجاء ربُك والملك صفاً صفاً، وجيء يومئذ بجهنم، يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى، يقول يا ليتني قدمت لحياتي، فيومئذ لا يُعذبُ عذابَهُ أحد، ولا يُوثق وثاقه أحد﴾ (الفجر: ١٧ ـ ٢٦).

وقال تعالى: ﴿ويل لكل هُمَزَةٍ لُمَزةٍ، الذي جمع مالاً وعدده، يحسب أن ماله أخلده، كلا لينبذنّ في الحُطمة، وما أدراك ما الحُطمة، نار الله الموقدة، التي تتطلع على الأفئدة، إنها عليهم مؤصدة، في عمد ممددة﴾ (الهمزة).

وأبلغُ ما أثر في هذا المجال، كلمة أمير المؤمنين (ع)، وهي في القمة من الحكمة وسمو المعنى، قال (ع): «إنما الدنيا فناء، وعناء، وغِيَر، وعِبَر:

فمن فنائها: أنك ترى الدهر مُوتِراً قوسه، مفوقاً نبله، لا تخطيء سهامه. ولا تشفى جراحه. يرمي الصحيحَ بالسقم، والحيَّ بالموت.

ومن عنائها: أنّ المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله لا مالاً حمل، ولا بناءاً نقل.

ومن غِيَرها: أنك ترى المغبوط مرحوماً، والمرحوم مغبوطاً، ليس بينهم إلا نعيم زلّ، وبؤس نزل.

ومن عِبَرها: أن المرء يشرف على أمله، فيتخطفه أجله، فلا أمل مدروك، ولا مُؤمَّل متروك»[1].

العفة

وهي: الامتناع والترفع عمّا لا يحل أو لا يجمل، من شهوات البطن والجنس، والتحرر من استرقاقها المُذِل.

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٤٦٧.

وهي من أنبل السجايا، وأرفع الخصائص، الدالة على سمو الإيمان، وشرف النفس، وعزّ الكرامة، وقد أشادت بفضلها الآثار:

قال الباقر (ع): «ما من عبادة أفضل عند الله من عفة بطن وفرج»[١].

وقال رجل للباقر (ع): «إني ضعيف العمل، قليل الصلاة قليل الصيام، ولكني أرجو أن لا آكل إلا حلالاً، ولا أنكح إلا حلالاً. فقال له: وأيّ جهاد أفضل من عفة بطن وفرج»[٢].

وقال رسول الله (ص): «أكثر ما تلج به أمتي النار، الأجوفان البطن والفرج»[٣].

حقيقة العفة

ليس المراد بالعفة، حرمان النفس من أشواقها، ورغائبها المشروعة، في المطعم والجنس، وإنما الغرض منها، هو القصد والاعتدال في تعاطيها وممارستها، إذ كل إفراط أو تفريط مضر بالإنسان، وداع إلى شقائه وبؤسه:

فالإفراط في شهوات البطن والجنس، يفضيان به إلى المخاطر الجسيمة، والأضرار الماحقة، التي سنذكرها في بحث (الشره).

والتفريط فيها كذلك، باعث على الحرمان من متع الحياة، ولذائذها المشروعة، وموجب لهزال الجسد، وضعف طاقاته ومعنوياته.

الاعتدال المطلوب

من الصعب تحديد الاعتدال في غريزتي الطعام والجنس، لاختلاف حاجات الأفراد وطاقاتهم، فاعتدال في شخص قد يعتبر إفراطاً أو تفريطاً في آخر.

والاعتدال النِسْبي في المآكل هو: أنْ ينال كل فرد ما يقيم إوَدَه ويسدّ

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٥ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٨٤ عن محاسن البرقي وقريب منه في الكافي.

(٣) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٨٣ عن الكافي.

حاجته من الطعام، متوقياً الجشع المقيت، والامتلاء المرهق.

وخير مقياس لذلك هو ما حدّده أمير المؤمنين، وهو يحدث إبنه الحسن (ع): «يا بني ألا أعلمك أربع كلمات تستغني بها عن الطب؟ فقال: بلى يا أمير المؤمنين. قال: لا تجلس على الطعام إلا وأنت جائع، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وإذا نمت فأعرض نفسك على الخلاء، فإذا استعملت هذا استغنيت عن الطب».

وقال: إنّ في القرآن لآية تجمع الطب كله: ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (الأعراف: ٣١)[١].

والاعتدال التقريبي في الجنس هو تلبية نداء الغريزة، كلما اقتضتها الرغبة الصادقة، والحاجة المحفزة عليه.

محاسن العفة

لا ريب أنّ العفة، هي من أنبل السجايا، وأرفع الفضائل، المعربة عن سمو الإيمان، وشرف النفس، والباعثة على سعادة المجتمع والفرد.

وهي الخلّة المشرّفة التي تزين الإنسان، وتسمو به عن مزريات الشره والجشع، وتصونه عن التملق للئام، استدراراً لعطفهم ونوالهم، وتحفّزه على كسب وسائل العيش ورغائب الحياة، بطرقها المشروعة، وأساليبها العفيفة.

الشره

وهو: الإفراط في شهوات المآكل والجنس، ضدّ (العفة).

وهو: من النزعات الخسيسة، الدالة على ضعف النفس، وجشع الطبع، واستعباد الغرائز، وقد ندّدت به الشريعة الإسلامية وحذّرت منه أشدّ التحذير.

قال الصادق (ع): «كل داءٍ من التخمة، ما خلا الحُمّى فإنها ترد وروداً»[٢].

---

(١) سفينة البحار م ٢ ص ٧٩ من دعوات الراوندي.

(٢) الوافي ج ١١ ص ٦٧ عن الكافي.

وقال (ع): «إن البطن إذا شبع طغى»[١].

وقال (ع): «إن الله يبغض كثرة الأكل»[٢].

وقال أبو الحسن (ع): «لو أن الناس قصدوا في المطعم، لاستقامت أبدانهم»[٣].

وعن الصادق عن أبيه قال: قال أمير المؤمنين (ع): «من أراد البقاء ولا بقاء، فليخفف الرداء، وليباكر الغذاء، وليقل مجامعة النساء»[٤].

من أراد البقاء أي طول العمر، فليخفف الرداء أي يخفف ظهره من ثقل الدين.

وأكل أمير المؤمنين (ع) من تمر دَقَل، ثم شرب عليه الماء، وضرب يده على بطنه وقال: من أدخله بطنه النار فأبعده الله. ثم تمثل:

وإنك مهما تُعط بطنك سؤله وفرجك نالا منتهى الذم أجمعا[٥]

مساوىء الشره

الشرَهُ مفتاح الشهوات، ومصدر المهالك، وحسب الشرهِ ذمّاً، أن تسترقه الشهوات العارمة، وتعرّضه لصنوف المساوىء، المعنوية والمادية.

ولعل أقوى العوامل في تخلف الأمم، استبداد الشره بهم، وافتتانهم بزخارف الحياة، ومفاتن الترف والبذخ، مما يفضي بهم إلى الضعف والانحلال.

ولشره الأكل آثاراً سيئة ومساوىء عديدة:

فقد أثبت الطب «أن الكثير من الأمراض والكثير من الخطوط والتجعدات التي تشوه القسمات الحُلوة في النساء والرجال، والكثير من الشحم المتراكم، والعيون الغائرة، والقُوى المُنهكَة، والنفوس المريضة كلّها تُعزى إلى التخمة

---

(١) الوافي ج ١١ ص ٦٧ عن الفقيه.

(٢) الوافي ج ١١ ص ٦٧ عن الكافي.

(٣) البحار م ١٤ ص ٨٧٦ عن المحاسن للبرقي (ره).

(٤) البحار م ١٤ ص ٥٤٥ عن طب الأئمة.

(٥) سفينة البحار م ١ ص ٢٧.

المتواصلة، والطعام الدسم المترف».

وأثبت كذلك أن الشره يرهق المعدة ويسبب ألوان المآسي الصحية كتصلب الشرايين، والذبحة الصدرية، وارتفاع ضغط الدم، والبول السكري.

وهكذا يفعل الشره الجنسي في إضعاف الصحة العامة، وتلاشي الطاقة العصبية، واضمحلال الحيوية والنشاط، مما يعرض المسرفين للمخاطر.

علاج الشره

أما شره الأكل فعلاجه:

١ ـ أن يتذكر الشرِه ما أسلفناه من محاسن العفّة، وفضائلها.

٢ ـ أن يتدبر مساوىء الشره، وغوائله الماحقة.

٣ ـ أن يروض نفسه على الاعتدال في الطعام، ومجانبة الشره جاهداً في ذلك، حتى يزيل الجشع. فإن دستور الصحة الوقائي والعلاجي هو الاعتدال في الأكل وعدم الإسراف فيه، كما لخّصته الآية الكريمة ﴿كلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (الأعراف: ٣١).

وقد أوضحنا واقع الاعتدال في بحث (العفة).

وأمّا الشره الجنسي فعلاجه:

١ ـ أن يتذكر المرء أخطار الإسراف الجنسي، ومفاسده الماديّة والمعنوية.

٢ ـ أن يكافح مثيرات الغريزة، كالنظر إلى الجمال النسوي، واختلاط الجنسين، وسروح الفكر في التخيل. وأحلام اليقظة، ونحوها من المثيرات.

٣ ـ أن يمارس ضبط الغريزة وكفها عن الإفراط الجنسي، وتحري الاعتدال فيها، وقد مرّ بيانه في بحث العفة.

الأمانة والخيانة

الأمانة هي: أداء ما ائتمن عليه الإنسان من الحقوق، وهي ضد (الخيانة).

وهي من أنبل الخصال، وأشرف الفضائل، وأعزّ المآثر، بها يحرز المرء الثقة والإعجاب، وينال النجاح والفوز.

وكفاها شرفاً أن الله تعالى مدح المتحلين بها، فقال: ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ (المؤمنون: ٨. المعارج: ٣٢).

وضدها الخيانة، وهي: غمط الحقوق واغتصابها، وهي من أرذل الصفات، وأبشع المذام، وأدعاها إلى سقوط الكرامة، والفشل والإخفاق.

لذلك جاءت الآيات والأخبار حاثة على التحلي بالأمانة، والتحذير من الخيانة، وإليك طرفاً منها:

﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، إن الله نعما يعظكم به﴾ (النساء: ٥٨).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول، وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون﴾ (الأنفال: ٢٧).

قال الصادق (ع): «لا تغتروا بصلاتهم ولا بصيامهم، فإن الرجل ربما لهج بالصلاة والصوم، حتى لو تركه استوحش، ولكن اختبروهم عند صدق الحديث، وأداء الأمانة»[1].

وعنه (ع) قال: «قال رسول الله (ص): «ليس منّا من أخلف الأمانة».

وقال: قال رسول الله (ص): «أداء الأمانة يجلب الرزق، والخيانة تجلب الفقر»[2].

وقال الصادق (ع): «اتقوا الله، وعليكم بأداء الأمانة إلى من ائتمنكم، فلو أن قاتل علي بن أبي طالب إئتمنني على أمانة لأديتها إليه»[3].

وقال رسول الله (ص): «لا تزال أمتي بخير، ما لم يتخاونوا، وأدّوا الأمانة، وآتوا الزكاة، فإذا لم يفعلوا ذلك، ابتلوا بالقحط والسنين»[4].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٨٢ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٠ ص ١١٢ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ١٠ ص ١١٢ عن الكافي والتهذيب.
(٤) عن ثواب الأعمال للصدوق (ره).

محاسن الأمانة ومساوىء الخيانة

تلعب الأمانة دوراً خطيراً، في حياة الأمم والأفراد، فهي نظام أعمالهم، وقوام شؤونهم، وعنوان نبلهم واستقامتهم، وسبيل رقيهم المادّيّ والأدبي.

وبديهي أنّ من تحلى بالأمانة، كان مثار التقدير والإعجاب، وحاز ثقة الناس واعتزازهم وائتمانهم، وشاركهم في أموالهم ومغانمهم.

ويصدق ذلك على الأمم عامة، فإن حياتها لا تسمو ولا تزدهر، إلا في محيط تسوده الثقة والأمانة.

وبها ملك العرب أزمّة الاقتصاد، ومقاليد الصناعة والتجارة، وجنى الأرباح الوفيرة، ولكنّ المسلمين وأسفاه! تجاهلوها، وهي عنوان مبادئهم، ورمز كرامتهم، فباؤوا بالخيبة والإخفاق.

من أجل ذلك كانت الخيانة من أهم أسباب سقوط الفرد وإخفاقه في مجالات الحياة، كما هي العامل الخطير في إضعاف ثقة الناس بعضهم ببعض، وشيوع التناكر والتخاوف بينهم، مما تسبب تسيب المجتمع، وفصم روابطه، وإفساد مصالحه، وبعثرة طاقاته.

صور الخيانة

وللخيانة صور تختلف بشاعتها وجرائمها باختلاف آثارها، فأسوأها نكراً هي الخيانة العلمية التي يقترفها الخائنون المتلاعبون بحقائق العلم المقدسة، ويشوّهونها بالدس والتحريف.

ومن صورها إفشاء أسرار المسلمين، التي يحرصون على كتمانها، فاشاعتها والحالة هذه جريمة نكراء، تعرضهم للأخطار والمآسي.

ومن صورها البشعة: خيانة الودائع والأمانات، التي أؤتمن عليها المرء، فمصادرتها جريمة مضاعفة من الخيانة والسرقة والاغتصاب.

وللخيانة بعد هذا صوراً عديدة كريهة، تثير الفزع والتقزز، وتضر بالناس فرداً ومجتمعاً، مادياً وأدبياً، كالخداع والغش والتطفيف بالوزن أو الكيل، ونحوها من مفاهيم التدليس والتلبيس.

التــآخــي

التآخي الروحي

كان العصر الجاهلي مسرحاً للمآسي والأرزاء، في مختلف مجالاته ونواحيه الفكرية والمادية.

وكان من أبشع مآسيه، ذلك التسيب الخُلقي، والفوضى المدّمرة، مما صيّرهم يمارسون طباع الضواري، وشريعة الغاب والتناكر والتناحر، والفتك والسلب، والتشدق بالثأر والانتقام.

فلما أشرق فجر الإسلام، وأطل بأنواره على البشرية، استطاع بمبادئه الخالدة، ودستوره الفذّ أن يُطبّ تلك المآسي، ويحسم تلك الأرزاء، فأنشأ من ذلك القطيع الجاهلي، ﴿خير أمة أخرجت للناس﴾[1] عقيدة وشريعة، وعلماً وأخلاقاً. فأحلّ الإيمان محل الكفر، والنظام محل الفوضى، والعلم محل الجهل، والسلام محل الحرب، والرحمة محل الانتقام.

فتلاشت تلك المفاهيم الجاهلية، وخلفتها المبادىء الإسلامية الجديدة، وراح النبي (ص) يبني وينشأ أمة مثالية تبذ الأمم نظاماً، وأخلاقاً وكمالاً.

وكلما سار المسلمون أشواطاً تحت راية القرآن، وقيادة الرسول الأعظم (ص)، توغلوا في معارج الكمال، وحلقوا في آفاق المكارم، حتى حققوا مبدأ المؤاخاة بأسلوب لم تحققه الشرائع والمبادىء الأخرى، وأصبحت أواصر العقيدة أقوى من أواصر النسب، ووشائج الإيمان تسمو على وشائج القومية والقبلية، وغدا المسلمون أمة واحدة، مرصوصة الصف، شامخة الصرح، خفّاقة اللواء، لا تفرقهم النعرات والفوارق.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل، لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾[2].

---

(١) آل عمران: ١١٠.
(٢) الحجرات: ١٣.

وطفق القرآن الكريم يغرس في نفوس المسلمين مفاهيم التآخي الروحي، مركزاً على ذلك بآياته العديدة وأساليبه الحكيمة الفذّة.

فمرة شرّع التآخي ليكون قانوناً للمسلمين ﴿إنما المؤمنون أخوة، فأصلحوا بين أخويكم، واتقوا الله لعلكم ترحمون﴾(١).

وأخرى يؤكد عليه محذراً من عوامل الفرقة، ومذكراً نعمة التآلف والتآخي الإسلامي، بعد طول التناكر والتناحر الجاهليين، ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً، فألّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً﴾(٢).

وهكذا جهد الإسلام في تعزيز التآخي الروحي وحماه من نوازع الفرقة والانقسام بما شرّعه من دستور الروابط الاجتماعية في نظامه الخالد.

وإليك نموذجاً من ذلك:

١ ـ تسامى بشعور المسلمين وعواطفهم، أن تسترقها النعرات العصبية، ونزعاتها المفرّقة، ووجّهها نحو الهدف الأسمى من طاعة الله تعالى ورضاه: فالحُب والبُغض، والعطاء والمنع، والنصر والخذلان، كل ذلك يجب أن يكون لله عز وجل، وبذلك تتوثق عرى المؤاخاة، وتتلاشى النزعات المفرقة، ويغدو المسلمون كالبنيان المرصوص، يشدّ بعضه بعضاً.

وإليك قبساً من آثار هذا البيت عليهم السلام في هذا المقام:

عن الباقر (ع): قال رسول الله (ص): «ودّ المؤمن للمؤمن في الله، من أعظم شعب الإيمان، ألا ومن أحبّ في الله، وأبغض في الله، وأعطى في الله، ومنع في الله، فهو من أصفياء الله»(٣).

وقال الصادق (ع): «إنّ المتحابين في الله يوم القيامة، على منابر من نور، قد أضاء نور وجوههم، ونور أجسادهم، ونور منابرهم، كل شيء حتى يعرفوا

---

(١) الحجرات: ١٠.
(٢) آل عمران: ١٠٣.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٨٩ عن الكافي.

به، فيقال هؤلاء المتحابون في الله»[١].

وقال علي بن الحسين (ع): «إذا جمع الله عز وجل الأولين والآخرين، قام مناد ينادي بصوت يسمع الناس، فيقول: أين المتحابون في الله؟ قال: فيقوم عُنُقٌ من الناس، فيقال لهم: اذهبوا إلى الجنة بغير حساب.

قال: فتلقاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة بغير حساب.

قال: فيقولون: فأي ضرب أنتم من الناس؟ فيقولون: نحن المتحابون في الله.

فيقولون: وأيّ شيء كانت أعمالكم؟ قالوا: كنّا نحبّ في الله، ونبغض في الله.

قال: فيقولون: نعم أجر العاملين»[٢].

وقال الصادق (ع): «كل من لم يحب على الدين، ولم يبغض على الدين فلا دين له»[٣].

وعن جابر الجعفي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله، ويبغض أهل معصيته، ففيك خير، والله يحبك، وإن كان يبغض أهل طاعة الله ويحب أهل معصيته، فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحب»[٤].

٢ ـ رغب المسلمين فيما يؤلفهم، ويحقق لهم العزة والرخاء، كالتواصي بالحق، والتعاون على البر، والتناصر على العدل، والتكافل في مجالات الحياة الاقتصادية، فهم في عرف الشريعة أسرة واحدة، يسعدها ويشقيها ما يسعد أفرادها ويشقيهم.

دستورها ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾[٥].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٨٩ عن الكافي.
(٢) البحار م ١٥ ج١ ص ٢٨٣ عن الكافي.
(٣)، (٤) الوافي ج ٣ ص ٩٠ عن الكافي.
(٥) الفتح: ٢٩.

وشعارها قول الرسول الأعظم (ص): «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[١].

٣ ـ حذَّر المسلمين مما يبعث على الفرقة والعداء، والفحش والبذاء والاغتياب، والنميمة والخيانة والغش، ونحوها من مثيرات الفتن والضغائن، ومبدأهم في ذلك قول النبي (ص):

«المؤمن من أمنه الناس على أموالهم ودمائهم، والمسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر من هجر السيئات»[٢].

٤ ـ أتاح الفرص لإنماء العلاقات الودّية بين المسلمين، كالحث على التزاور، وارتياد المحافل الدينية، وشهود المجتمعات الإسلامية، كصلاة الجماعة ومناسك الحج، ونحو ذلك.

العصبية

هي: مناصرة المرء قومه، أو أسرته، أو وطنه، فيما يخالف الشرع، وينافي الحق والعدل.

وهي: من أخطر النزعات وأفتكها في تسيب المسلمين، وتفريق شملهم، وإضعاف طاقاتهم، الروحية والمادية، وقد حاربها الإسلام، وحذّر المسلمين من شرورها.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: «قال رسول الله (ص): من كان في قلبه حبة من خردل من عصبية، بعثه الله تعالى يوم القيامة مع أعراب الجاهلية»[٣].

وقال الصادق (ع): «من تعصّب عصبّه الله بعصابة من نار»[٤].

وقال النبي (ص): «إن الله تبارك وتعالى قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية، وتفاخرها بآبائها، ألا إن الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٩ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٤ ص ٤٨ عن الفقيه.
(٣) (٢) الوافي ج ٣ ص ١٤٩ عن الكافي.

عند الله أتقاهم»[1].

وقال الباقر (ع): جلس جماعة من أصحاب رسول الله (ص) ينتسبون ويفتخرون، وفيهم سلمان. فقال عمر: ما نسبك أنت يا سلمان وما أصلك؟ فقال: أنا سلمان بن عبدالله، كنت ضالاً فهداني الله بمحمد، وكنت عائلاً فأغناني الله بمحمد، وكنت مملوكاً فأعتقني الله بمحمد، فهذا حسبي ونسبي يا عمر.

ثم خرج رسول الله (ص)، فذكر له سلمان ما قال عمر وما أجابه، فقال رسول الله: «يا معشر قريش إن حَسَب المرء دينه، ومروءته خُلقه، وأصله عقله، قال الله تعالى: ﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾.

ثم أقبل على سلمان فقال له: «إنّه ليس لأحد من هؤلاء عليك فضل إلا بتقوى الله عز وجل، فمن كنت أتقى منه فأنت أفضل منه»[2].

وعن الصادق عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: «وقع بين سلمان الفارسي رضي الله عنه، وبين رجل كلام وخصومة، فقال له الرجل: من أنت يا سلمان؟ فقال سلمان: أمّا أولي وأولك فنطفة قذرة، وأمّا آخري وآخرك فجيفة منتنة، فإذا كان يوم القيامة، ووضعت الموازين، فمن ثقل ميزانه فهو الكريم، ومن خفّ ميزانه فهو اللئيم»[3].

وأصدق شاهد على واقعية الإسلام، واستنكاره النعرات العصبية المفرّقة، وجعله الإيمان والتقى مقياساً للتفاضل، أنّ أبا لهب ـ وهو من صميم العرب، وعمّ النبي ـ صرح القرآن بثلبه وعذابه ﴿تَبّتْ يدا أبي لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى ناراً ذات لهب﴾ وذلك بكفره ومحاربته لله ورسوله.

وكان سلمان فارسيّاً، بعيداً عن الأحساب العربية، وقد منحه الرسول

---

(١) الوافي ج ١٤ ص ٤٨ عن الفقيه.
(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ٩٥ أمالي أبي علي الشيخ الطوسي.
(٣) سفينة البحار ج ٢ ص ٣٤٨ عن آمالي الصدوق (ره).

الأعظم (ص) وساماً خالداً في الشرف والعزة، فقال: «سلمان منّا أهـل البيت». وما ذلك إلّا لسمو إيمانه، وعِظم إخلاصه، وتفانيه في الله ورسوله.

حقيقة العصبية

لا ريب أنّ العصبية الذميمة التي نهى الإسلام عنها هي: التناصر على الباطل، والتعاون على الظلم، والتفاخر بالقيم الجاهلية.

أما التعصب للحق، والدفاع عنه، والتناصر على تحقيق المصالح الإسلامية العامة، كالدفاع عن الدين، وحماية الوطن الإسلامي الكبير، وصيانة كرامات المسلمين وأنفسهم وأموالهم، فهو التعصّب المحمود الباعث على توحيد الأهداف والجهود، وتحقيق العِزة والمنعة للمسلمين، وقد قال الإمام زين العابدين علي بن الحسين عليهما السلام: «إنّ العصبية التي يأثم عليها صاحبها، أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس من العصبية أن يحب الرجل قومه، ولكِنْ من العصبية أن يعين قومه على الظلم»[1].

غوائل العصبية

من استقرأ التاريخ الإسلامي، وتتبع العلل والأسباب، في هبوط المسلمين، عَلِم أنّ النزعات العصبية، هي المعول الهدّام، والسبب الأول في تناكر المسلمين، وتمزيق شملهم، وتفتيت طاقاتهم، مما أدى بهم إلى هذا المصير القاتم.

فقد ذلّ المسلمون وهانوا، حينما تفشّت فيهم النعرات المفرّقة، فانفصمت بينهم عرى التحابب، ووهت فيهم أواصر الإخاء، فأصبحوا مثالاً للتخلف والتبعثر والهوان، بعد أن كانوا رمزاً للتفوق والتماسك والفخار، كأنّهم لم يسمعوا كلام الله تعالى حيث قال:

﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءاً فألّف بين قلوبكم، فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها﴾[2].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٤٩ عن الكافي. (٢) آل عمران: ١٠٣.

العـــــدل

العدل ضد الظلم، وهو مناعة نفسية، تردع صاحبها عن الظلم، وتحفّزه على العدل، وأداء الحقوق والواجبات.

وهو سيد الفضائل، ورمز المفاخر، وقوام المجتمع المتحضر، وسبيل السعادة والسلام.

وقد مجّده الإسلام، وعنى بتركيزه والتشويق إليه في القرآن والسنة:

قال تعالى: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[١].

وقال سبحانه: ﴿وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى﴾[٢].

وقال عز وجل: ﴿إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل﴾[٣].

وقال الصادق (ع): «العدل أحلى من الشهد، وألين من الزبد، وأطيب ريحاً من المسك»[٤].

وقال الراوي لعلي بن الحسين (ع): أخبرني بجميع شرائع الدين؟ قال: «قول الحق، والحكم بالعدل، والوفاء بالعهد»[٥].

وقال الرضا (ع): «استعمال العدل والإحسان مؤذن بدوام النعمة»[٦].

أنواع العدل

للعدل صور مشرقة تشع بالجمال والجلال، وإليك أهمها:

١ ـ عدل الإنسان مع الله عز وجل، وهو أزهى صور العدل، وأسمى

(١) النحل: ٩٠.
(٢) الأنعام: ١٥٢.
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) الوافي ج ٣ ص ٨٩ عن الكافي، وهو من قبيل تشبيه المعقول بالمحسوس.
(٥) البحار م ١٦ كتاب العشرة ص ١٢٥ عن خصال الصدوق (ره).
(٦) البحار م ١٦ كتاب العشرة ص ١٢٥ عن عيون أخبار الرضا.

مفاهيمه، وعنوان مصاديقه، وكيف يستطيع الإنسان أن يؤدي واجب العدل للمنعم الأعظم، الذي لا تحصى نعماؤه، ولا تعد آلاؤه؟!

وإذا كان عدل المكافأة يُقدّر بمعيار النعم، وشرف المنعم، فمن المستحيل تحقيق العدل نحو واجب الوجود، والغني المطلق عن سائر الخلق، إلا بما يستطيعه قصور الإنسان، وتوفيق المولى عز وجل له.

وجماع العدل مع الله تعالى يتلخص في الإيمان به، وتوحيده، والإخلاص له، وتصديق سفرائه وحججه على العباد، والاستجابة لمقتضيات ذلك من التوله بحبّه والتشرف بعبادته، والدأب على طاعته، ومجافاة عصيانه.

٢ ـ عدل الإنسان مع المجتمع:

وذلك برعاية حقوق أفراده، وكفّ الأذى والإساءة عنهم، وسياستهم بكرم الأخلاق، وحسن المداراة وحبّ الخير لهم، والعطف على بؤسائهم ومعوزيهم، ونحو ذلك من محققات العدل الاجتماعي.

وقد لخّص الله تعالى واقع العدل العام في آية من كتابه المجيد: ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإيتاء ذي القربى، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون﴾[1].

وقد رسم أمير المؤمنين عليه السلام منهاج العدل الاجتماعي بإيجاز وبلاغة، فقال لابنه:

«يا بُنيّ اجعل نفسك ميزاناً فيما بينك وبين غيرك، فأحبب لغيرك ما تحبّ لنفسك، وأكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب أن تُظلم، وأحسن كما تحب أن يحسن إليك، واستقبح من نفسك ما تستقبح من غيرك، وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل ما لا تحب أن يقال لك».

أوصى عليه السلام ابنه الكريم أن يكون عادلاً فيما بينه وبين الناس كالميزان، ثم أوضح له صور العدل وطرائقه إيجاباً وسلباً.

---

(١) النمل: ٩٠.

٣ ـ عدل البشر الأحياء مع أسلافهم الأموات، الذين رحلوا عن الحياة، وخلّفوا لهم المال والثراء، وحرموا من متعه ولذائذه، ولم يكسبوا في رحلتهم الأبدية، إلا أذرعاً من أثواب البلى، وأشباراً ضيقةً من بطون الأرض.

فمن العدل أن يستشعر الأحياء نحو أسلافهم بمشاعر الوفاء والعطف وحسن المكافأة، وذلك بتنفيذ وصاياهم، وتسديد ديونهم، وإسداء الخيرات والمبرات إليهم، وطلب الغفران والرضا والرحمة من الله عز وجل لهم.

قال الصادق (ع): «إنّ الميّت ليفرح بالترحم عليه، والاستغفار له، كما يفرح الحي بالهدية تُهدى إليه».

وقال (ع): «من عمل من المسلمين عن ميت عملاً صالحاً، أضعف الله له أجره، ونفع الله به الميت»[١].

٤ ـ عدل الحكام.

وحيث كان الحكام ساسة الرعية، وولاة أمر الأمة، فهم أجدر الناس بالعدل، وأولاهم بالتحلي به، وكان عدلهم أسمى مفاهيم العدل، وأروعها مجالاً وبهاءً، وأبلغها أثراً في حياة الناس.

بعدلهم يستتب الأمن، ويسود السلام، ويشيع الرخاء، وتسعد الرعية.

وبجورهم تنتكس تلك الفضائل، والأماني إلى نقائضها، وتغدو الأمة آنذاك في قلق وحيرة وضنك وشقاء.

محاسن العدل

فطرت النفوس السليمة على حب العدل وتعشقه، وبغض الظلم واستنكاره. وقد أجمع البشر عبر الحياة، واختلاف الشرائع والمبادىء، على تمجيد العدل وتقديسه، والتغني بفضائله ومآثره، والتفاني في سبيله.

فهو سرّ حياة الأمم، ورمز فضائلها، وقوام مجدها وسعادتها، وضمان أمنها ورخائها، وأجل أهدافها وأمانيها في الحياة.

---

(١) هذا الخبر وسابقه عن كتاب من لا يحضره الفقيه للصدوق.

وما دالت الدول الكبرى، وتلاشت الحضارات العتيدة، إلا بضياع العدل والاستهانة بمبدئه الأصيل، وقد كان أهل البيت عليهم السلام المثل الأعلى للعدل، وكانت أقوالهم وأفعالهم دروساً خالدة تنير للإنسانية مناهج العدل والحق والرشاد.

وإليك نماذج من عدلهم:

قال سوادة بن قيس للنبي (ص) في أيام مرضه: يا رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك وأنت على ناقتك العضباء، وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة، فأصاب بطني، فأمره النبي أن يقتصّ منه، فقال: اكشف لي عن بطنك يا رسول الله فكشف عن بطنه، فقال سوادة: أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك، فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من رسول الله من النار يوم النار، فقال (ص): يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتص؟ فقال: بل أعفو يا رسول الله. فقال: اللهم أعف عن سوادة بن قيس كما عفا عن نبيك محمد[1].

وقال أبو سعيد الخدري: جاء أعرابي إلى النبي (ص) يتقاضاه ديناً كان عليه، فاشتدّ عليه حتى قال له: أحرّج عليك إلا قضيتني، فانتهره أصحابه وقالوا: ويحك، تدري من تكلم؟!! قال: إني أطلب حقي. فقال النبي (ص): هلا مع صاحب الحق كنتم، ثم أرسل إلى خولة بنت قيس فقال لها: إن كان عندك تمر فأقرضينا، حتى يأتي تمرنا فنقضيك. فقالت: نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: فأقرضته فقضى الأعرابي وأطعمه. فقال: أوفيت أوفى الله لك؟ فقال (ص): «أولئك خيار الناس، إنه لا قدست أمة لا يأخذ الضعيف فيها حقه غير متتعتع».

وقيل: إن الإعرابي كان كافراً، فأسلم بمشاهدة هذا الخلق الرفيع، وقال: يا رسول الله ما رأيت أصبر منك[2].

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٧١.

(٢) فضائل الخمسة من الصحاح الستة ج ١ ص ١٢٢ عن صحيح ابن ماجه.

وهكذا كان أمير المؤمنين علي (ع):

قال الصادق (ع) لما وليّ علي صعد المنبر فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إني لا أرزؤكم من فيئكم درهماً، ما قام لي عذق بيثرب، فلتصدقكم أنفسكم، أفتروني مانعاً نفسي ومعطيكم؟!! قال: فقام إليه عقيل كرّم الله وجهه فقال له: الله، لتجعلني وأسود بالمدينة سواء، فقال (ع): اجلس، أما كان هنا أحد يتكلم غيرك، وما فضلك عليه إلا بسابقة أو بتقوى[1].

وجاء في صواعق ابن حجر ص ٧٩ قال: وأخرج ابن عساكر أن عقيلاً سأل علياً عليه السلام فقال: إني محتاج، وإني فقير فأعطني. قال: اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين، فأعطيك معهم، فألح عليه، فقال لرجل: خذ بيده وانطلق به إلى حوانيت أهل السوق فقل له دقّ هذه الأقفال، وخذ ما في هذه الحوانيت. قال: تريد أن تتخذني سارقاً؟ قال: وأنت تريد أن تتخذني سارقاً، أن آخذ أموال المسلمين فأعطيكها دونهم؟ قال: لآتين معاوية. قال: أنت وذاك. فأتى معاوية فسأله فأعطاه مائة ألف، ثم قال: اصعد على المنبر، فاذكر ما أولاك به عليّ وما أوليتك، فصعد فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: أيها الناس إني أخبركم أني أردت علياً عليه السلام على دينه فاختار دينه، وإني أردت معاوية على دينه فاختارني على دينه[2].

ومشى إليه عليه السلام ثلة من أصحابه عند تفرق الناس عنه، وفرار كثير منهم إلى معاوية، طلباً لما في يديه من الدنيا، فقالوا: يا أمير المؤمنين إعط هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخالف عليه من الناس فراره إلى معاوية، فقال لهم أمير المؤمنين (ع): «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور، لا والله ما أفعل، ما طلعت شمس، ولاح في السماء نجم، والله، لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، وكيف وإنما هي أموالهم»[3].

---

(١) البحار م ٩ ص ٥٣٩ عن الكافي.
(٢) فضائل الخمسة عن الصحاح الستة ج ٣ ص ١٥.
(٣) البحار م ٩ ص ٥٣٣ بتصرف.

وقال ابن عباس: أتيته (يعني أمير المؤمنين علياً) فوجدته يخصف نعلاً، ثم ضمها إلى صاحبتها، وقال لي: قوّمها. فقلت: ليس لهما قيمة. قال: على ذلك. قلت: كسر درهم. قال: والله، لهما أحب إليّ من إمرتكم هذه إلا أن أقيم حداً (حقاً) أو أدفع باطلاً[١].

وهو القائل: «والله لئن أبيت على حسك السعدان مسهداً، وأجرُّ في الأغلال مصفداً، أحب إليّ من أن ألقى الله ورسوله يوم القيامة ظالماً لبعض العباد، وغاصباً لشيء من الحطام، وكيف أظلم أحداً لنفس يسرع إلى البلى قفولها، ويطول في الثرى حلولها»[٢].

الظلم

الظلم لغة: وضع الشيء في غير موضعه، فالشرك ظلم عظيم، لجعله موضع التوحيد عند المشركين.

وعرفاً هو: بخس الحق، والاعتداء على الغير، قولاً أو عملاً، كالسباب، والاغتياب، ومصادرة المال، واجترام الضرب أو القتل، ونحو ذلك من صور الظلامات المادية أو المعنوية.

والظلم من السجايا الراسخة في أغلب النفوس، وقد عانت منه البشرية في تاريخها المديد ألوان المآسي والأهوال، مما جهّم الحياة، ووسمها بطابع كئيب رهيب.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعلة لا يظلم

من أجل ذلك كان الظلم جماع الآثام ومنبع الشرور، وداعية الفساد والدمار.

وقد تكاثرت الآيات والأخبار بذمه والتحذير منه.

قال تعالى: ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾[٣].

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٥٧٠ بتصرف.
سفينة البحار ج ٢ ص ٦٠٦ عن النهج.
(٣) الأنعام: ٢١.

﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾[١].

﴿والله لا يحب الظالمين﴾[٢].

﴿إن الظالمين لهم عذاب أليم﴾[٣].

﴿ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عمّا يعمل الظالمون، إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾[٥].

وقال سبحانه: ﴿ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الأرض لافتدت به، وأسرّوا الندامة لمّا رأوا العذاب وقضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون﴾[٦].

وقال أمير المؤمنين (ع): «والله لو أعطيت الأقاليم السبعة بما تحت أفلاكها، على أن أعصي الله في نملة أسلبها جُلب شعيرةٍ ما فعلت، وإن دنياكم لأهون عليّ من ورقة في فم جرادة، ما لعليّ ونعيم يفنى ولذة لا تبقى»[٧]. وعن أبي بصير قال: «دخل رجلان على أبي عبدالله (ع) في مداراة بينهما ومعاملة، فلما أن سمع كلامهما قال: أما إنه ما ظفر أحد بخير من ظفر بالظلم، أما إن المظلوم يأخذ من دين الظالم أكثر مما يأخذ الظالم من مال المظلوم. ثم قال: من يفعل الشرّ بالناس فلا ينكر الشر إذا فُعل به، أما إنه إنما يحصد ابن آدم ما يزرع، وليس يحصد أحدٌ من المرّ حلواً، ولا من الحلو مراً، فاصطلح الرجلان قبل أن يقوما»[٨].

وقال (ع): «من أكل مال أخيه ظلماً ولم يرده إليه، أكل جذوة من النار يوم القيامة»[٩].

---

(١) الأنعام: ١٤٤.

(٢) آل عمران: ٥٧.

(٣) ابراهيم: ٢٢.

(٤) يونس: ١٣.

(٥) ابراهيم: ٤٢.

(٦) يونس: ٥٤.

(٧) نهج البلاغة.

(٨)، (٩) الوافي ج ٣ ص ١٦٢ عن الكافي.

وقال الصادق (ع): «من ظلم سلّط الله عليه من يظلمه، أو على عقبه، أو على عقب عقبه».

قال (الراوي): يظلم هو فيسلط على عقبه؟ فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وليخش الذين لو تركوا مِنْ خَلفِهم ذريةً ضعافاً خافوا عليهم فليتقوا الله، وليقولوا قولاً سديداً﴾ (النساء: ٩)(١).

وتعليلاً للخبر الشريف: أن مؤاخذة الأبناء بجرائم الأباء إنما هو في الأبناء الذين ارتضوا مظالم آبائهم أو اغتنموا تراثهم المغصوب، ففي مؤاخذتهم زجر عاطفي رهيب، يردع الظالم عن العدوان خشية على أبنائه الأعزاء، وبشارة للمظلوم على معالجة ظالمه بالانتقام، مشفوعة بثواب ظلامته في الآخرة.

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من أصبح لا يهم بظلم غفر الله له ما اجترم»(٢).

أي ما اجترم من الذنوب التي بينه وبين الله عز وجل في ذلك اليوم.

إلى كثير من الروايات الشريفة التي ستراها في مطاوي هذا البحث.

أنواع الظلم

يتنوع الظلم صوراً نشير إليها إشارة لامحة:

١ ـ ظلم الإنسان نفسه:

وذلك بإهمال توجيهها إلى طاعة الله عز وجل، وتقويمها بالخلق الكريم، والسلوك الرضي، مما يزجها في متاهات الغواية والضلال، فتبوء آنذاك بالخيبة والهوان.

﴿ونفس وما سواها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها، وقد خاب من دساها﴾(٣).

---

(١)، (٢) الوافي ج٣ ص١٦٢ عن الكافي.
(٣) الشمس: (٧ ـ ١٠).

٢ ـ ظلم الإنسان عائلته:

وذلك بإهمال تربيتهم تربية إسلامية صادقة، وإغفال توجيههم وجهة الخير والصلاح، وسياستهم بالقسوة والعنف، والتقتير عليهم بضرورات الحياة ولوازم العيش الكريم، مما يوجب تسيبهم وبلبلة حياتهم، مادياً وأدبياً.

٣ ـ ظلم الإنسان ذوي قرباه:

وذلك بجفائهم وخذلانهم في الشدائد والأزمات، وحرمانهم من مشاعر العطف والبر، مما يبعث على تناكرهم وتقاطعهم.

٤ ـ ظلم الإنسان للمجتمع:

وذلك بالاستعلاء على أفراده وبخس حقوقهم، والاستخفاف بكراماتهم، وعدم الاهتمام بشؤونهم ومصالحهم. ونحو ذلك من دواعي تسيب المجتمع وضعف طاقاته.

وأبشع المظالم الاجتماعية، ظلم الضعفاء، الذين لا يستطيعون صد العدوان عنهم، ولا يملكون إلاّ الشكاة والضراعة إلى العدل الرحيم في أساهم، وظلاماتهم.

فعن الباقر (ع) قال: لما حضر علي بن الحسين (ع) الوفاة، ضمني إلى صدره، ثم قال: «يا بني أوصيك بما أوصاني به أبي حين حضرته الوفاة، وبما ذكر أن أباه أوصاه به، قال: يا بني إياك وظلم من لا يجد عليك ناصراً إلاّ الله تعالى»[1].

٥ ـ ظلم الحكام والمتسلطين:

وذلك باستبدادهم، وخنقهم حرية الشعوب، وامتهان كرامتها، وابتزاز أموالها، وتسخيرها لمصالحهم الخاصة.

من أجل ذلك كان ظلم الحكام أسوأ أنواع الظلم وأشدّها نُكراً، وأبلغها ضرراً في كيان الأمة ومقدراتها.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٦٢ عن الكافي.

قال الصادق (ع): «إن الله تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء، في مملكة جبار من الجبابرة: أن إئتِ هذا الجبار فقل له: إني لم استعملك على سفك الدماء، واتخاذ الأموال، وإنما استعملتك لتكفّ عني أصوات المظلومين، فإني لن أدع ظلامتهم وإن كانوا كفاراً»(١).

وعن الصادق عن آبائه عن النبي (ص) أنه قال: «تكلم النارُ يوم القيامة ثلاثةً: أميراً، وقارئاً، وذا ثروة من المال.

فتقول للأمير: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما يزدرد الطير حب السمسم.

وتقول للقاريء: يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده.

وتقول للغني: يا من وهب الله له دنيا كثيرةً واسعةً فيضاً، وسأله الحقير اليسير قرضاً فأبى إلا بخلاً فتزدرده»(٢).

وليس هذا الوعيد الرهيب مقصوراً على الجائرين فحسب، وإنما يشمل من ضلع في ركابهم، وارتضى أعمالهم، وأسهم في جورهم، فإنه وإياهم سواسية في الإثم والعقاب، كما صرحت بذلك الآثار:

قال الصادق (ع): «العامل بالظلم، والمعين له، والراضي به، شركاء ثلاثتهم»(٣).

لذلك كانت نُصرة المظلوم، وحمايته من عسف الجائرين، من أفضل الطاعات، وأعظم القربات إلى الله عز وجل، وكان لها وقعها الجميل، وآثارها الطيبة في حياة الإنسان المادية والروحية.

قال الإمام الكاظم عليه السلام لابن يقطين: «إضمن لي واحدةً أضمن لك ثلاثاً، إضمن لي أن لا تلقى أحداً من موالينا في دار الخلافة إلا بقضاء حاجته، أضمن لك أن لا يصيبك حدّ السيف أبداً، ولا يظلك سقف سجن

(١) الوافي ج٣ ص١٦٢ عن الكافي.
(٢) البحار م ١٦ ص ٢٠٩ عن الخصال للصدوق (ره).
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٦٣ عن الكافي.

أبداً، ولا يدخل الفقر بيتك أبداً»[١].

وقال أبو الحسن (ع): «إن لله جل وعزّ مع السلطان أولياء، يدفع بهم عن أوليائه».

وفي خبر آخر: «أولئك عتقاء الله من النار»[٢].

وقال الصادق (ع): «كفّارة عمل السلطان قضاء حوائج الأخوان»[٣].

وعن محمد بن جمهور وغيره من أصحابنا قال: كان النجاشي ـ وهو رجل من الدهاقين ـ عاملاً على الأهواز وفارس، فقال بعض أهل عمله لأبي عبدالله (ع): إن في ديوان النجاشي عليّ خراجاً، وهو ممن يدين بطاعتك، فإن رأيت أن تكتب لي إليه كتاباً. قال: فكتب إليه أبو عبدالله: «بسم الله الرحمن الرحيم سُر أخاك يسرك الله».

فلما ورد عليه الكتاب وهو في مجلسه، فلما خلا ناوله الكتاب وقال: هذا كتاب أبي عبدالله (ع)، فقبله ووضعه على عينيه ثم قال: ما حاجتك؟ فقال: عليّ خراج في ديوانك. قال له: كم هو؟ قال: هو عشرة آلاف درهم.

قال: فدعا كاتبه فأمره بأدائها عنه، ثم أخرج مثله فأمره أن يثبتها له لقابل، ثم قال له: هل سررتك؟ قال: نعم. قال: فأمر له بعشرة آلاف درهم أخرى فقال له: هل سررتك؟ قال: نعم جعلت فداك. فأمر له بمركب، ثم أمر له بجارية وغلام، وتخت ثياب، في كل ذلك يقول: هل سررتك؟ فكلما قال: نعم، زاده حتى فرغ، فقال له: إحمل فرش هذا البيت الذي كنت جالساً فيه حين دفعتَ إليَّ كتاب مولاي فيه، وارفع إليّ جميع حوائجك. قال: ففعل، وخرج الرجل فصار إلى أبي عبدالله عليه السلام، فحدثه بالحديث على جهته، فجعل يستبشر بما فعله.

قال له الرجل: يابن رسول الله قد سرّك ما فعل بي؟ قال: إي والله، لقد سرّ الله ورسوله[٤].

---

(١) كشكول البهائي طبع ايران ص ١٢٤.

(٢)، (٣) الوافي ج ١٠ ص ٢٨ عن الفقيه.

(٤) الوافي ج ١٠ ص ٢٨ عن الكافي.

وخامة الظلم

بديهي أنّ استبشاع الظلم واستنكاره، فطري في البشر، تأباه النفوس الحرّة، وتستميت في كفاحه وقمعه، وليس شيء أضرّ بالمجتمع، وأدعى إلى تسيبه ودماره من شيوع الظلم وانتشار بوائقه فيه.

فالإغضاء عن الظلم يشجع الطغاة على التمادي في الغيّ والإجرام، ويحفّز الموتورين على الثأر والانتقام، فتشيع بذلك الفوضى، وينتشر الفساد، وتغدو الحياة مسرحاً للجرائم والآثام، وفي ذلك انحلال الأمم، وفقد أمنها ورخائها، وانهيار مجدها وسلطانها.

علاج الظلم

من العسير جداً علاج الظلم، واجتثاث جذوره المتغلغلة في أعماق النفس، بيد أن من الممكن تخفيف جماحه، وتلطيف حدته، وذلك بالتوجيهات الآتية.

١ ـ التذكر لما أسلفناه من مزايا العدل، وجميل آثاره في حياة الأمم والأفراد، من إشاعة السلام، ونشر الوئام والرخاء.

٢ ـ الاعتبار بما عرضناه من مساوىء الظلم وجرائره المادية والمعنوية.

٣ ـ تقوية الوازع الديني، وذلك بتربية الضمير والوجدان، وتنويرهما بقيم الإيمان ومفاهيمه الهادفة الموجهة.

٤ ـ استقراء سِيَر الطغاة وما عانوه من غوائل الجور وعواقبه الوخيمة.

جاء في كتاب حياة الحيوان عند ذكر الحجلان: أن بعض مقدّمي الأكراد حضر على سماط بعض الأمراء، وكان على السماط حجلتان مشويتان، فنظر الكرديُّ إليهما وضحك، فسأله الأمير عن ذلك، فقال: قطعت الطريق في عنفوان شبابي على تاجر فلما أردت قتله، تضرّع فما أفاد تضرعه، فلما رآني أقتله لا محالة، التفت إلى حجلتين كانتا في الجبل، فقال: إشهدا عليه إنه قاتلي، فلما رأيت هاتين الحجلتين تذكرت حمقه، فقال الأمير: قد شهدتا، ثم أمر بضرب عنقه[1].

(١) كشكول البهائي طبع ايران ص ٢١.

وفي سراج الملوك لأبي بكر الطرطوسي: أنّ عبدالملك بن مروان أرق ليلةً، فاستدعى سميراً له يحدثه، فكان فيما حدّثه أنْ قال: يا أمير المؤمنين، كان بالموصل بومة، وبالبصرة بومة، فخطبت بومة الموصل إلى بومة البصرة بنتها لابنها، فقالت بومة البصرة: لا أفعل إلاّ أنْ تجعلي صداقها مائة ضيعة خراب! فقالت بومة الموصل: لا أقدر على ذلك الآن، ولكن إن دام والينا علينا، سلمه الله تعالى سنة واحدة فعلت ذلك، فاستيقظ عبدالملك، وجلس للمظالم، وأنصف الناس بعضهم من بعض، وتفقد أمر الولاة[١].

الإخلاص

الإخلاص: ضد الرياء، وهو صفاء الأعمال من شوائب الرياء، وجعلها خالصة لله تعالى.

وهو قوام الفضائل، وملاك الطاعة، وجوهر العبادة، ومناط صحة الأعمال، وقبولها لدى المولى عز وجل.

وقد مجدّته الشريعة الإسلامية، ونوّهت عن فضله، وشوقت إليه، وباركت جهود المتحلين به في طائفة من الآيات والأخبار:

قال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً﴾[٢].

وقال سبحانه: ﴿فاعبد الله مخلصاً له الدين، ألا لله الدين الخالص﴾[٣].

وقال عز وجل: ﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين﴾[٤].

وقال النبي (ص): «من أخلص لله أربعين يوماً، فجر الله ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[٥].

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ١١٠.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) الزمر (٢ - ٣).
(٤) البينة: ٥.
(٥) البحار م١٥ ص ٨٧ عن عدة الداعي لابن فهد.

وقال الإمام الجواد (ع): «أفضل العبادة الإخلاص»[١].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال أمير المؤمنين (ع): «الدنيا كلها جهل إلا مواضع العلم، والعلم كله جهل إلا ما عمل به، والعمل كله رياء إلا ما كان مخلصاً، والإخلاص على خطر، حتى ينظر العبد بما يُختم له»[٢].

وقال النبي (ص): «يا أبا ذر لا يفقه الرجل كل الفقه، حتى يرى الناس في جنب الله أمثال الأباعر، ثم يرجع إلى نفسه فيكون هو أحقر حاقرٍ لها»[٣].

فضيلة الإخلاص

تتفاوت قِيم الأعمال، بتفاوت غاياتها والبواعث المحفزة عليها، وكلما سمت الغاية، وطهرت البواعث من شوائب الغش والتدليس والنفاق، كان ذلك أزكى لها، وأدعى إلى قبولها لدى المولى عز وجل.

وليس الباعث في عرف الشريعة الإسلامية إلاّ (النيّة) المحفزّة على الأعمال، فمتى استهدفت الإخلاص لله تعالى، وصفت من كدر الرياء نبلت وسعدت بشرف رضوان الله وقبوله، ومتى شابها الخداع والرياء، باءت بسخطه ورفضه.

لذلك كان الإخلاص حجراً أساسياً في كيان العقائد والشرائع، وشرطاً واقعياً لصحة الأعمال، إذ هو نظام عقدها، ورائدها نحو طاعة الله تعالى ورضاه.

وناهيك في فضل الإخلاص أنه يحرر المرء من إغواء الشيطان وأضاليله ﴿فبعزتك لأغوينهم أجمعين، إلا عبادك منهم المخلصين﴾.

عوائق الإخلاص

وحيث كان الإخلاص هو المنار الساطع، الذي ينير للناس مناهج الطاعة

---

(١) البحار م١٥ ص٨٧ عن عدة الداعي لابن فهد.

(٢) البحار م١٥ ص ٨٥ عن الأمالي والتوحيد للصدوق.

(٣) الوافي ج١٤ ص ٥٤ في وصية النبي (ص) لأبي ذر.

الحقة، والعبودية الصادقة، كان الشيطان ولوعاً دؤوباً على إغوائهم وتضليلهم بصنوف الأماني والآمال الخادعة: كحب السمعة والجاه، وكسب المحامد والأمجاد، وتحري الأطماع المادية التي تمسخ الضمائر وتمحق الأعمال، وتذرها قفراً يباباً من مفاهيم الجمال والكمال وحلاوة العطاء.

وقد يكون إيحاء الشيطان بالرياء هامساً خفيفاً ماكراً، فيمارس الإنسان الطاعة والعبادة بدافع الإخلاص، ولو محصها وأمعن فيها وجدها مشوبةً بالرياء. وهذا من أخطر المزالق، وأشدها خفاءاً وخداعاً، ولا يتجنبها إلا الأولياء الأفذاذ.

كما حُكي عن بعضهم أنه قال: «قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد جماعة في الصف الأول، ولكني تأخرت يوماً لعذر، وصليت في الصف الثاني، فاعترتني خجلة من الناس، حيث رأوني في الصف الثاني، فعرفت أنّ نظر الناس إليّ في الصف الأول كان يسرني، وكان سبب استراحة قلبي.

نعوذ بالله من سبات الغفلة، وخُدع الرياء والغرور. من أجل ذلك يحرص العارفون على كتمان طاعاتهم وعباداتهم، خشية من تلك الشوائب الخفية.

فقد نُقل: أن بعض العباد صام أربعين سنة لم يعلم به أحد من الأباعد والأقارب، كان يأخذ غذاءه فيتصدق به في الطريق، فيظن أهله أنه أكل في السوق، ويظن أهل السوق أنه أكل في البيت.

كيف نكسب الإخلاص

بواعث الإخلاص ومحفزاته عديدة تلخصها النقاط التالية:

١ ـ استجلاء فضائل الإخلاص السالفة، وعظيم آثاره في دنيا العقيدة والإيمان.

٢ ـ إن أهم بواعث الرياء وأهدافه استثارة إعجاب الناس، وكسب رضاهم، وبديهي أن رضا الناس غاية لا تدرك، وأنهم عاجزون عن إسعاد أنفسهم، فضلاً عن غيرهم، وأن المسعد الحق هو الله تعالى الذي بيده أزمة

الأمور، وهو على كل شيء قدير، فحري بالعاقل أن يتجه إليه ويخلص الطاعة والعبادة له.

٣ ـ إن الرياء والخداع سرعان ما ينكشفان للناس، ويسفران عن واقع الإنسان، مما يفضح المرائي ويعرضه للمقت والإزدراء.

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا التحفتَ به فإنك عاري

فعلى المرء أن يتسم بصدق الإخلاص، وجمال الطوية، ليكون مثلاً رفيعاً للاستقامة والصلاح.

فقد جاء في الآثار السالفة: «إن رجلاً من بني إسرائيل قال: لأعبدن الله عبادة أذكر بها، فمكث مدةً مبالغاً في الطاعات، وجعل لا يمر بملأ من الناس إلا قالوا: متصنع مراء، فأقبل على نفسه وقال: قد أتعبت نفسك، وضيعت عمرك في لا شيء، فينبغي أن تعمل لله سبحانه، وأخلص عمله لله، فجعل لا يمر بملأ من الناس إلاّ قالوا ورع تقي».

الرياء

وهو: طلب الجاه والرفعة في نفوس الناس، بمراءاة أعمال الخير.

وهو من أسوأ الخصال، وأفظع الجرائم، الموجبة لعناء المرائي وخسرانه ومقته، وقد تعاضدت الآيات والأخبار على ذمّه والتحذير منه.

قال تعالى في وصف المنافقين: ﴿يراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً﴾[1].

وقال تعالى: ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه، فليعمل عملاً صالحاً، ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾[2].

وقال سبحانه: ﴿كالذي ينفق ماله رئاء الناس﴾[3].

---

(١) النساء: ١٤٢.
(٢) الكهف: ١١٠.
(٣) البقرة: ٢٦٤.

وقال الصادق (ع): «كل رياء شرك، إنه من عمل للناس كان ثوابه على الناس، ومن عمل لله كان ثوابه على الله»(1).

وقال (ع): «ما من عبدٍ يسرُّ خيراً، إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يُسر شراً إلاّ لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له شراً»(2).

وعنه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «سيأتي على الناس زمان تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياءاً، لا يخالطهم خوف، يعمّهم الله بعقاب فيدعونه دعاء الغريق فلا يستجيب لهم»(3).

وعن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «يؤمر برجال إلى النار، فيقول الله جل جلاله لمالك: قل للنار لا تحرق لهم أقداماً، فقد كانوا يمشون إلى المساجد، ولا تحرق لهم وجهاً، فقد كانوا يسبغون الوضوء، ولا تحرق لهم أيدياً، فقد كانوا يرفعونها بالدعاء، ولا تحرق لهم ألسناً، فقد كانوا يكثرون تلاوة القرآن. قال: فيقول لهم خازن النار: يا أشقياء ما كان حالكم؟ قالوا: كنّا نعمل لغير الله عز وجل فقيل لنا خذوا ثوابكم ممن عملتم له»(4).

أقسام الرياء:

ينقسم الرياء أقساماً تلخصها النقاط التالية:

1 ـ الرياء بالعقيدة: بإظهار الإيمان وإسرار الكفر، وهذا هو النفاق وهو أشدها نكراً وخطراً على المسلمين، لخفاء كيده، وتستره بظلام النفاق.

2 ـ الرياء بالعبادة مع صحة العقيدة. وذلك بممارسة العبادات أمام ملأ

(1) الوافي ج3 ص 137 عن الكافي.
(2) الوافي الجزء الثالث ص 147 عن الكافي.
(3) الوافي الجزء الثالث ص 147 عن الكافي، ودعاء الغريق: أي كدعاء المشرف على الغرق، فإن الإخلاص والانقطاع فيه إلى الله عز وجل أكثر من سائر الأدعية.
(4) البحار م 15 بحث الرياء ص 53 عن علل الشرائع وثواب الأعمال.

الناس، مراءاة لهم، ونبذها في الخلوة والسر، كالتظاهر بالصلاة، والصيام، وإطالة الركوع والسجود والتأنّي بالقراءة والأذكار وارتياد المساجد، وشهود الجماعة، ونحوه من صور الرياء، في صميم العبادة أو مكملاتها، وهنا يغدو المرائي أشد إثماً من تارك العبادة، لاستخفافه بالله عز وجل، وتلبيسه على الناس.

٣ ـ الرياء بالأفعال: كالتظاهر بالخشوع، وتطويل اللحية، ووسم الجبهة بأثر السجود، وارتداء الملابس الخشنة ونحوه من مظاهر الزهد والتقشف الزائفة.

٤ ـ الرياء بالأقوال، كالتشدق بالحكمة، والمراءاة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتذكير بالثواب والعقاب مداجاة وخداعاً.

دواعي الرياء

للرياء أسباب ودواع نجملها فيما يلي:

١ ـ حب الجاه، وهو من أهم أسباب المراءاة ودواعيه.

٢ ـ خوف النقد، وهو دافع على المراءاة بالعبادة، وأعمال الخير، خشية من قوارص الذم والنقد.

٣ ـ الطمع، وهو من محفزات الرياء وأهدافه التي يستهدفها الطامعون، إشباعاً لأطماعهم.

٤ ـ التستر: وهو باعث على تظاهر المجرمين بمظاهر الصلاح المزيفة، إخفاءاً لجرائمهم، وتستراً عن الأعين.

ولا ريب أن تلك الدواعي هي من مكائد الشيطان، وأشراكه الخطيرة التي يأسر بها الناس، أعاذنا الله منها جميعاً.

حقائق

ولا بد من استعراض بعض الحقائق والكشف عنها إتماماً للبحث:

١ ـ إختلفت أقوال المحققين، في أفضلية إخفاء الطاعة أو إعلانها.

ومجمل القول في ذلك، إن الأعمال بالنيات، وأن لكل امرىء ما نوى، فما صفا من الرياء فسواء إعلانه أو إخفاؤه، وما شابه الرياء فسيان إظهاره أو إسراره.

وقد يرجح الإسرار أحياناً للذين لا يطيقون مدافعة الرياء لشدة بواعثه في الإعلان. كما يرجح إعلان الطاعة، إن خلصت من شوائب الرياء، وقصد به غرض صحيح كالترغيب في الخير والحث على الاقتداء.

٢ ـ ومن استهدف الإخلاص في طاعته وعبادته، ثم اطلع الناس عليها، وسُرّ باطلاعهم واغتبط، فلا يقدح ذلك في إخلاصه، إن كان سروره نابعاً عن استشعاره بلطف الله تعالى، وإظهار محاسنه والستر على مساوئه تكرماً منه عز وجل.

وقد سئل الإمام الباقر عليه السلام عن الرجل يعمل الشيء من الخير فيراه إنسان فيسره ذلك، فقال: «لابأس، ما من أحد إلا وهو يحب أن يظهر الله له في الناس الخير، إذا لم يكن صنع ذلك لذلك»[1].

٣ ـ وحيث كان الشيطان مجداً في إغواء الناس، وصدّهم عن مشاريع الخير والطاعة، بصنوف الكيد والإغواء، لزم الحذر والتوقي منه، فهو يُسوّل للناس ترك الطاعة ونبذ العبادة، فإن عجز عن ذلك أغراهم بالرياء، وحببه إليهم، فإن أخفق في هذا وذاك، ألقى في خلدهم أنهم مراؤون وأعمالهم مشوبة بالرياء، ليسوّل لهم نبذها وإهمالها.

فيجب والحالة هذه طرده، وعدم الاكتراث بخدعه ووساوسه، إذ المخلص لا تضره هذه الخواطر والأوهام.

فعن الصادق عن أبيه عليهما السلام: إن النبي قال: «إذا أتى الشيطان أحدكم وهو في صلاته فقال: إنك مرائي، فليطل صلاته ما بدا له، ما لم يفته

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٤٨ عن الكافي.

وقت فريضة، وإذا كان على شيء من أمر الآخرة فليتمكث ما بدا لـه، وإذا كان على شيء من أمر الدنيا فليسترح. . . »[١].

مساويء الرياء

الرياء من السجايا الذميمة، والخلال المقيتة، الدّالة على ضعة النفس، وسقم الضمير، وغباء الوعي، إذ هو الوسيلة الخادعة المدجلة التي يتخذها المتلونون، والمنحرفون ذريعة لأهدافهم ومآربهم دونما خجل واستحياء من هوانها ومناقضتها لصميم الدين والكرامة والإباء.

وحسب المرائي ذمّاً أنه اقترف جرمين عظيمين:

تحدّى الله عز وجل، واستخف بجلاله، بإيثار عباده عليه في الزلفى والتقرب، ومخادعة الناس والتلبس عليهم بالنفاق والرياء.

ومثل المرائي في صفاقته وغبائه، كمن وقف أزاء ملك عظيم مظهراً له الولاء والإخلاص، وهو رغم موقفه ذلك يخاتل الملك بمغازلة جواريه أو استهواء غلمانه.

أليس هذا حرياً بعقاب الملك ونكاله الفادحين على تلصصه واستهتاره.

ولا ريب أنّ المرائي أشدّ جرماً وجناية من ذلك، لاستخفافه بالله عز وجل، ومخادعة عبيده، والمرائي بعد هذا حليف الهم والعناء، يستهوي قلوب الناس، ويتملق رضاهم، ورضاهم غاية لا تنال، فيعود بعد طول المعاناة خائباً، شقياً، سليب الكرامة والدين.

ومن الثابت أنّ سوء السريرة سرعان ما ينعكس على المرء، ويكشف واقعه، ويبوء بالفضيحة والخسران.

ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإنْ خالها تخفى على الناس تُعلمُ

وقد أعرب النبي (ص) عن ذلك قائلاً: «من أسرّ سريرة ردّاه الله رداءها، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر»[٢].

---

(١) البحار م١٥ ص ٥٣ عن قرب الإسناد.

(٢) الوافي ج ٣ ص ١٤٧ من خبر عن الكافي.

علاج الرياء

وبعد أن عرفنا طرفاً من مساويء الرياء، يجدر بنا أن نعرض أهم النصائح الأخلاقية في علاجه وملافاته، وقد شرحت في بحث الإخلاص طرفاً من مساويء الرياء ومحاسن الإخلاص فراجعه هناك.

علاج الرياء العملي

وذلك برعاية النصائح المجملة التالية:

١ ـ محاكمة الشيطان، وإحباط مكائده ونزعاته المرائية، بأسلوب منطقي يقنع النفس، ويرضي الوجدان.

٢ ـ زجر الشيطان وطرد هواجسه في المراءاة طرداً حاسماً، والاعتماد على ما انطوى عليه المؤمن من حبّ الإخلاص، ومقت الرياء.

٣ ـ تجنب مجالات الرياء ومظاهره، وذلك بإخفاء الطاعات والعبادات وسترها عن ملأ الناس، ريثما يثق الإنسان بنفسه، ويحرز فيها الإخلاص.

ومن طرائف الرياء والمرائين ما قيل:

إن أعرابياً دخل المسجد، فرأى رجلاً يصلي بخشوع وخضوع، فأعجبه ذلك، فقال له: نعم ما تصلي.

قال: وأنا صائم، فإن صلاة الصائم، تضعف صلاة المفطر.

فقال له الأعرابي: تفضل واحفظ ناقتي هذه، فإن لي حاجة حتى أقضيها. فخرج لحاجته، فركب المصلي ناقته وخرج، فلما قضى الأعرابي حاجته، رجع فلم يجد الرجل ولا الناقة، وطلبه فلم يقدر عليه، فخرج وهو يقول:

صلى فأعجبني وصام فرامني   منح القلوص عن المصلي الصائم

وصلى أعرابيٌ فخفف صلاته، فقام إليه علي (ع) بالدرة وقال: أعدها، فلما فرغ قال: أهذه خيرٌ أم الأولى؟ قال: بل الأولى قال: ولم؟ قال: لأن الأولى لله وهذه للدّرة.

العُــجْــب

وهو استعظام الإنسان نفسه، لاتصافه بخلة كريمة، ومزية مشرّفة، كالعلم والمال والجاه والعمل الصالح.

ويتميز العجب عن التكبر، بأنه استعظام النفس مجرداً عن التعالي على الغير، والتكبر هما معاً.

والعُجب من الصفات المقيتة، والخلال المنفّرة، الدّالة على ضعة النفس، وضيق الأفق، وصفاقة الأخلاق، وقد نهت الشريعة عنه، وحذّرت منه.

قال تعالى: ﴿فلا تزّكوا أنفسكم هو أعلم بمن اتقى﴾[1].

وقال الصادق (ع): «من دخله العُجبُ هلك»[2].

وعنه (ع) قال: «قال إبليس لعنه الله لجنوده: إذا استمكنت من ابن آدم في ثلاث لم أبال ما عمل، فإنه غير مقبول منه، إذا استكثر عمله، ونسي ذنبه، ودخله العُجْب»[3].

وقال الباقر (ع): «ثلاث هن قاصمات الظهر: رجل استكثر عمله، ونسي ذنوبه، وأعجب برأيه»[4].

وقال الصادق (ع): «أتى عالم عابداً فقال له: كيف صلاتك؟ فقال: مثلي يُسأل عن صلاته؟ وأنا أعبد الله تعالى منذ كذا وكذا، قال: فكيف بكاؤك؟ قال: أبكي حتى تجري دموعي. فقال له العالم: فإن ضحكك وأنت خائف خير (أفضل خ ل) من بكائك وأنت مُدِل، إنّ المدّل لا يصعد من عمله شيء»[5].

وعن أحدهما عليهما السلام، قال: «دخل رجلان المسجد أحدهما عابد والآخر فاسق، فخرجا من المسجد والفاسق صدّيق، والعابد فاسق، وذلك:

---

(١) النجم: ٣٢.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٥١ عن الكافي.
(٣) (٤) البحار م ١٥ ج ٣ موضوع العجب بالأعمال عن الخصال للصدوق.
(٥) الوافي ج ٣ ص ١٥١ عن الكافي.

أنه يدخل العابد المسجد مدّلا بعبادته، يُدّل بها، فتكون فكرته في ذلك، وتكون فكرة الفاسق في الندم على فسقه، ويستغفر الله تعالى لما ذَكَرَ من الذنوب»(١).

وعن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله (ص): لولا أنّ الذنب خير للمؤمن من العُجب، ما خلى الله بين عبده المؤمن وبين ذنب أبداً»(٢).

والجدير بالذكر: أنّ العُجب الذميم هو استكثار العمل الصالح، والإدلال به، أما السرور به مع التواضع لله تعالى، والشكر له على توفيقه لطاعتهِ، فذلك ممدوح ولا ضير فيه.

مساويء العجب

للعجب أضرار ومساويء:

١ ـ إنه سبب الأنانية والتكبر، فمن أعجب بنفسه ازدهاه العُجب، وتعالى على الناس، وتجبّر عليهم، وذلك يسبب مقت الناس وهوانهم له.

٢ ـ إنه يعمي صاحبه عن نقائصه ومساوئه، فلا يهتم بتجميل نفسه، وملافاة نقائصه، مما يجعله في غمرة الجهل والتخلف.

٣ ـ إنه باعث على استكثار الطاعة، والإدلال بها، وتناسي الذنوب والآثام، وفي ذلك أضرار بليغة، فتناسي الذنوب يعيق عن التوبة والإنابة إلى الله عز وجل منها، ويعرّض ذويها لسخطه وعقابه، واستكثار الطاعة والعبادة يكدّرها بالعُجب والتعامي عن آفاتها، فلا تنال شرف الرضا والقبول من المولى عز وجل.

علاج العُجب

وحيث كان العُجب والتكبر صنوان من أصل واحد، وإن اختلفا في الاتجاه، فالعجب كما أسلفنا استعظام النفس مجرداً عن التعالي، والتكبر هما

(١) الوافي ج ٣ ص ١٥١ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٣ بحث العجب عن أمالي أبي علي بن الشيخ الطوسي.

معاً، فعلاجهما واحد، وقد أوضحناه في بحث التكبر.

وجدير بالمعجب بنفسه، أن يدرك أن جميع ما يبعثه على الزهو والإعجاب من صنوف الفضائل والمزايا، إنما هي نعم إلهية يسديها المولى إلى من شاء من عباده، فهي أحرى بالحمد، وأجدر بالشكر من العجب والخيلاء.

وهي إلى ذلك عرضة لصروف الأقدار، وعوادي الدهر، فما للإنسان والعجب!!

ومن طريف ما نقل عن بعض الصلحاء في ملافاة خواطر العجب:

قيل: إن بعضهم خرج في جنح الظلام متجهاً إلى بعض المشاهد المشرفة، لأداء مراسم العبادة والزيارة، فبينا هو في طريقه إذ فاجأه العجب بخروجه سحراً، ومجافاته لذة الدفء وحلاوة الكرى من أجل العبادة.

فلاح له آنذاك، بائع شلغم فانبرى نحوه، فسأله كم تربح في كسبك وعناء خروجك في هذا الوقت؟ فأجابه: درهمين أو ثلاث، فرجع إلى نفسه مخاطباً لها علام العجب؟ وقيمة إسحاري لا تزيد عن درهمين أو ثلاث.

ونقل عن آخر: أنه عمل في ليلة القدر أعمالاً جمةً من الصلوات والدعوات والأوراد، استثارت عُجبه، فراح يعالجه بحكمة وسداد: فقال لبعض المتعبدين: كم تتقاضى على القيام بأعمال هذه الليلة، وهي كيت وكيت. فقال: نصف دينار، فرجع إلى نفسه مؤنباً لها وموحياً إليها، علام العُجب وقيمة أعمالي كلها نصف دينار؟

اليقين

وهو: الاعتقاد بأصول الدين وضروراته، اعتقاداً ثابتاً، مطابقاً للواقع، لا تزعزعه الشبه، فإن لم يطابق الواقع فهو جهل مركب.

واليقين هو غرّة الفضائل النفسية، وأعزّ المواهب الإلهيّة، ورمز الوعي والكمال، وسبيل السعادة في الدارين. وقد أولته الشريعة اهتماماً بالغاً ومجّدت ذويه تمجيداً عاطراً، وإليك طرفاً منه:

قال الصادق (ع): «إنّ الإيمان أفضل من الإسلام، وإنّ اليقين أفضل من الإيمان، وما من شيء أعزّ من اليقين»(١).

وقال (ع): «إنّ العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين»(٢).

وقال الصادق (ع): «من صحة يقين المرء المسلم، أن لا يُرضي الناس بسخط الله، ولا يلومهم على ما لم يأته الله، فإنّ الرزق لا يسوقه حرص حريص، ولا يردّه كراهية كاره، ولو أن أحدكم فرّ من رزقه كما يفر من الموت، لأدركه رزقه كما يدركه الموت».

ثم قال: «إنّ الله بعدله وقسطه جعل الروح والراحة في اليقين والرضا، وجعل الهمّ والحزن في الشك والسخط»(٣).

وعنه (ع) قال: كان أمير المؤمنين (ع) يقول: «لا يَجِدُ عبد طعم الإيمان، حتى يعلم أنّ ما أصابه، لم يكن ليخطئه، وإنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن الضار النافع هو الله تعالى»(٤).

وسُئل الإمام الرضا (ع) عن رجل يقول بالحق ويسرف على نفسه، يشرب الخمر ويأتي الكبائر، وعن رجل دونه في اليقين وهو لا يأتي ما يأتيه، فقال (ع): أحسنهما يقيناً كالنائم على المحجة، إذا انتبه ركبها، والأدون الذي يدخله الشك كالنائم على غير طريق، لا يدري إذا انتبه أيّهما المحَجة»(٥).

وقال الصادق (ع): إن رسول الله (ص) صلى بالناس الصبح، فنظر إلى شاب في المسجد وهو يخفق ويهوي برأسه، مصفراً لونه، قد نحف جسمه، وغارت عيناه في رأسه، فقال له رسول الله: كيف أصبحت يا فلان؟ قال:

---

(١) البحار م ١٥ ج ٢ ص ٥٧ عن الكافي.
(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ٦٠ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٥٤ عن الكافي.
(٤) الوافي ج ٣ ص ٥٤ عن الكافي.
(٥) سفينة البحار ج ٢ ص ٧٣٤ عن فقه الرضا.

أصبحت يا رسول الله موقناً، فعجب رسول الله من قوله، وقال له: إن لكل يقين حقيقة، فما حقيقة يقينك؟

فقال: إنّ يقيني يا رسول الله هو الذي أحزنني، وأسهر ليلي، وأظمأ هواجري، فعزفت نفسي عن الدنيا وما فيها، حتى كأني أنظر إلى عرش ربي، وقد نصب للحساب، وحُشر الخلائق لذلك، وأنا فيهم، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتنعمون في الجنة ويتعارفون، على الأرائك متكئون، وكأني أنظر إلى أهل النار وهم فيها معذّبون، مصطفون، وكأني الآن أسمع زفير النار يدور في مسامعي.

فقال رسول الله (ص) لأصحابه: هذا عبد نوّر الله قلبه بالإيمان، ثم قال له: إلزَمْ ما أنت عليه، فقال الشاب: ادع الله لي يا رسول الله أن أرزق الشهادة معك، فدعا له رسول الله فلم يلبث أن خرج في بعض غزوات النبي فاستُشهد بعد تسعة نفر وكان هو العاشر»[1].

خصائص الموقنين

متى ازدهرت النفس باليقين، واستنارت بشعاعه الوّهاج، عكست على ذويها ألواناً من الجمال والكمال النفسيين، وتسامت بهم إلى أوج روحي رفيع، يتألقون في آفاقه تألق الكواكب النيرة، ويتميزون عن الناس تميز الجواهر الفريدة من الحصا.

فمن أبرز خصائصهم ومزاياهم، أنك تجدهم دائبين في التحلي بمكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال، وتجنب رذائلها ومساوئها، لا تخدعهم زخارف الحياة، ولا تلهيهم عن تصعيد كفاءاتهم ومؤهلاتهم الروحية لنيل الدرجات الرفيعة، والسعادة المأمولة في الحياة الأخروية، فهم متفانون في طاعة الله عز وجل، ابتغاء رضوانه، وحسن مثوبته، متوكلون عليه، في سراء الحياة وضرائها، لا يرجون ولا يخشون أحداً سواه، ليقينهم بحسن تدبيره وحكمة أفعاله.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٣٣ عن الكافي.

لذلك تستجاب دعواتهم، وتظهر الكرامات على أيديهم، وينالون شرف الحظوة والرعاية من الله عز وجل.

درجات الإيمان

ويحسن بي وأنا أتحدث عن اليقين أن أعرض طرفاً من مفاهيم الإيمان ودرجاته، وأنواعه إتماماً للبحث وتنويراً للمؤمنين.

يتفاضل الناس في درجات الإيمان تفاضلاً كبيراً، فمنهم المجلّي السباق في حلبة الإيمان، ومنهم الواهن المتخلف، ومنهم بين هذا وذاك كما صوّرته الرواية الكريمة:

قال الصادق (ع): «إن الإيمان عشر درجات، بمنزلة السُلّم، يُصعد منه مرقاة بعد مرقاة، فلا يقولن صاحب الإثنين لصاحب الواحد لَسْتَ على شيء، حتى ينتهي إلى العاشرة، فلا تُسقط من هو دونك، فيسقطك من هو فوقك، وإذا رأيت من هو أسفل منك بدرجة فارفعه إليك برفق، ولا تحملن عليه ما لا يطيق فتكسره، فإنّ من كسر مؤمناً فعليه جبره»[1].

أنواع الإيمان

ينقسم الإيمان إلى ثلاثة أنواع: فطري، ومستودع، وكسبي.

١ ـ فالفطري: هو ما كان هِبة إلاهية، قد فطر عليه الإنسان، كما في الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، فإنهم المثلُ الأعلى في قوة الإيمان، وسمو اليقين، لا تخالجهم الشكوك، ولا تعروهم الوساوس.

٢ ـ المستودع وهو: ما كان صوريّاً طافياً على اللسان، سرعان ما تزعزعه الشبه والوساوس، كما قال الصادق (ع): «إن العبد يصبح مؤمناً، ويمسي كافراً، ويصبح كافراً، ويمسي مؤمناً، وقوم يعارون الإيمان ثم يلبسونه، ويُسمون المُعارين»[2].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٣٠ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٥٠ عن الكافي.

وقال (ع): «إن الله تعالى جَبل النبيِّين على نبوتهم، فلا يرتّدون أبداً، وجَبَلَ الأوصياء على وصاياهم فلا يرتدون أبداً، وجبل بعض المؤمنين على الإيمان فلا يرتدون أبداً، ومنهم من أعير الإيمان عارية، فإذا هو دعا وألح في الدعاء مات على الإيمان»(١).

وهكذا تعقب الإمام الصادق (ع) على حديثيه السالفين بحديث ثالث بجعله مقياساً للتمييز بين الإيمان الثابت من المستودع، فيقول: إنّ الحسرة والندامة والويل كله لمن لم ينتفع بما أبصره ولم يدر ما الأمر الذي هو عليه مقيم، أنفع له أم ضرّ، قلت (الراوي) فَبِمَ يُعرف الناجي من هؤلاء جعلت فداك؟

قال: «من كان فعله لقوله موافقاً، فأثبت له الشهادة بالنجاة، ومن لم يكن فعله لقوله موافقاً، فإنما ذلك مستودع»(٢).

٣ ـ الكسبي: وهو الإيمان الفطري الطفيف الذي نمّاه صاحبه واستزاد رصيده حتى تكامل وسمى إلى مستوى رفيع، وله درجات ومراتب.

وإليك بعض الوصايا والنصائح الباعثة على صيانة الجزء الفطري من الإيمان، وتوفير الكسبي منه:

١ ـ مصاحبة المؤمنين الأخيار، ومجانبة الشقاة والعصاة، فإن الصاحب متأثر بصاحبه ومكتسب من سلوكه وأخلاقه، كما قال الرسول الأعظم (ص): «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

٢ ـ ترك النظر والاستماع إلى كتب الضلال، وأقوال المضللين، المولعين بتسميم أفكار الناس وحرفهم عن العقيدة والشريعة الإسلاميتين، وإفساد قيم الإيمان ومفاهيمه في نفوسهم.

٣ ـ ممارسة النظر والتفكر في مخلوقات الله عز وجل، وما اتصفت به من جميل الصنع، ودقة النظام، وحكمة التدبير، الباهرة المدهشة ﴿وفي الأرض

(١) الوافي ج٣ ص٥٠ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٥٠ عن الكافي.

آيات للموقنين، وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

٤ ـ ومن موجبات الإيمان وتوفير رصيده، جهاد النفس، وترويضها على طاعة الله تعالى، وتجنب معاصيه، لتعمر النفس بمفاهيم الإيمان، وتشرق بنوره الوّضاء فهي كالماء الزلال، لا يزال شفافاً رقراقاً، ما لم تكدره الشوائب فيغدو آنذاك آسناً قاتماً لا صفاء فيه ولا جمال. ولولا صدأ الذنوب، وأوضار الآثام التي تنتاب القلوب والنفوس، فتجهم جمالها وتخبيء أنوارها، لاستنار الأكثرون بالإيمان، وتألقت نفوسهم بشعاعه الوّهاج. ﴿ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾[2].

وقال الصادق (ع): «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نُكتة سوداء، فإن تاب إنمحت، وإن زاد زادت، حتى تغلب على قلبه فلا يفلح بعدها أبداً»[3].

الصبر

وهو: احتمال المكاره من غير جزع، أو بتعريف آخر هو: قسر النفس على مقتضيات الشرع والعقل أوامراً ونواهياً، وهو دليل رجاحة العقل، وسعة الأفق، وسمو الخلق، وعظمة البطولة والجَلَد، كما هو معراج طاعة الله تعالى ورضوانه، وسبب الظفر والنجاح، والدرع الواقي من شماتة الأعداء والحسّاد.

وناهيك في شرف الصبر، وجلالة الصابرين، أن الله عز وجل، أشاد بهما، وباركهما في نَيف وسبعين موطناً من كتابه الكريم:

بشّر الصابرين بالرضا والحب، فقال تعالى: ﴿والله يحب الصابرين﴾[4].

ووعدهم بالتأييد: ﴿واصبر إن الله يحب الصابرين﴾[5].

---

(١) الذاريات (٢٠ ـ ٢١).

(٢) الشمس (٧ ـ ١٠).

(٣) الوافي ج ٣ ص ١٦٧ عن الكافي.

(٤) آل عمران: ١٤٦.

(٥) الأنفال: ٤٦.

ومنحهم الثواب الجم: ﴿إنما يُوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾(١).

وأغدق عليهم ألوان العناية واللطف: ﴿ولَنَبْلونّكم بشيء من الخوف والجوع، ونقص من الأموال والأنفس والثمرات، وبشّر الصابرين، الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عايهم صلوات من ربهم ورحمة، وأولئك هم المهتدون﴾(٢).

وهكذا تواترت أخبار أهل البيت عليهم السلام في تمجيد الصبر والصابرين:

قال الصادق (ع): «الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا ذهب الرأس ذهب الجسد، وكذلك إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان»(٣).

وقال الباقر (ع): «الجنة محفوفة بالمكاره والصبر، فمن صبر على المكاره في الدنيا دخل الجنة، وجهنم محفوفة باللذات والشهوات، فمن أعطى نفسه لذتها وشهوتها دخل النار»(٤).

وقال (ع): «لما حضرت أبي الوفاة ضمني إلى صدره وقال: يا بُني، إصبر على الحق وإن كان مرّاً، توف أجرك بغير حساب»(٥).

وقال الصادق (ع): «من ابتلي من المؤمنين ببلاء فصبر عليه كان له أجر ألف شهيد»(٦).

ورب قائل يقول: كيف يعطى الصابر أجر ألف شهيد، والشهداء هم أبطال الصبر على الجهاد والفداء؟

فالمراد: أن الصابر يستحق أجر أولئك الشهداء، وإن كانت مكافأتهم

---

(١) الزمر: ١٠.

(٢) البقرة: (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٣) الوافي: (جـ ٣ ص ٦٥ عن الكافي).

(٤) الوافي ج٣ ص ٦٥ عن الكافي.

(٥) الوافي جـ ٣ ص ٦٥ عن الكافي.

(٦) الوافي جـ ٣ ص ٦٦ عن الكافي.

وثوابهم على الله تعالى أضعافاً مضاعفة عنه.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «من لم يُنجه الصبر، أهلكه الجزع»[١].

أقسام الصبر

ينقسم الصبر باعتبار ظروفه ومقتضياته أقساماً أهمها:

(١) الصبر على المكاره والنوائب، وهو أعظم أقسامه، وأجل مصاديقه الدالة على سمو النفس، وتفتح الوعي، ورباطة الجأش، ومضاء العزيمة.

فالإنسان عرضة للمآسي والأرزاء، تنتابه قسراً واعتباطاً، وهو لا يملك إزائها حولاً ولا قوة، وخير ما يفعله المُمتَحَن هو التذرع بالصبر، فإنه بلسم القلوب الجريحة، وعزاء النفوس المعذبة.

ولولاه لانهار الإنسان، وغدا صريع الأحزان والآلام، من أجل ذلك حرضت الآيات والأخبار على التحلي بالصبر والاعتصام به:

قال تعالى: ﴿وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا: إنا لله وإنا إليه راجعون، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون﴾[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور، وإن جزعت جرى عليك القَدَرُ، وأنت مأزور»[٣].

ومما يجدر ذكره أنَّ الصبر الجميل المحمود هو الصبر على النوائب التي لا يستطيع الإنسان دفعها والتخلص منها، كفقد عزيز، أو اغتصاب مال، أو اضطهاد عدو.

أما الاستسلام للنوائب، والصبر عليها مع القدرة على درئها وملافاتها فذلك حمق يستنكره الإسلام، كالصبر على المرض وهو قادر على علاجه، وعلى

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) البقرة (١٥٥ ـ ١٥٧).

(٣) نهج البلاغة.

الفقر وهو يستطيع اكتساب الرزق، وعلى هضم الحقوق وهو قادر على استردادها وصيانتها.

ومن الواضح أن ما يجرد المرء من فضيلة الصبر، ويخرجه عن التجلد، هو الجزع المفرط المؤدّي إلى شق الجيوب، ولطم الخدود، والإسراف في الشكوى والتذمر.

أما الآلام النفسية، والتنفيس عنها بالبكاء، أو الشكاية من متاعب المرض وعنائه فإنّها من ضرورات العواطف الحية، والمشاعر النبيلة، كما قال (ص) عند وفاة ابنه ابراهيم:

(تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب).

وقد حكت لنا الآثار طرفاً رائعاً ممتعاً من قصص الصابرين على النوائب، مما يبعث على الإعجاب والإكبار، وحسن التأسي بأولئك الأفذاذ.

حكي أنّ كسرى سخط على بزرجمهر: فحبسه في بيت مظلم، وأمر أن يصفد بالحديد، فبقي أياماً على تلك الحال، فأرسل إليه من يسأله عن حاله، فإذا هو منشرح الصدر، مطمئن النفس، فقالوا له: أنت في هذه الحالة من الضيق ونراك ناعم البال. فقال: اصطنعت ستة أخلاط وعجنتها واستعملتها، فهي التي أبقتني على ما ترون. قالوا: صف لنا هذه لعلنا ننتفع بها عند البلوى، فقال: نعم.

أما الخلط الأول: فالثقة بالله عز وجل.

وأما الثاني: فكل مقدّر كائن.

وأما الثالث: فالصبر خير ما استعمله الممتَحن.

وأما الرابع: فإذا لم أصبر فماذا أصنع، ولا أعين على نفسي بالجزع.

وأما الخامس: فقد يكون غيري أشدّ مما أنا فيه.

وأما السادس: فمن ساعة إلى ساعة فرج.

فبلغ ما قاله كسرى فأطلقه وأعزّه»[١].

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٧.

وعن الرضا عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: «إن سليمان بن داود قال ذات يوم لأصحابه: إن الله تبارك وتعالى قد وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي: سخّر لي الريح، والإنس، والجن، والطير، والوحش، وعلمني منطق الطير، وآتاني من كل شيء، ومع جميع ما أوتيت من الملك ما تمّ لي سرور يوم إلى الليل، وقد أحببت أن أدخل قصري في غد، فأصعد أعلاه، وأنظر إلى ممالكي، فلا تأذنوا لأحد عليّ لئلا يرد عليّ ما ينغص عليّ يومي. قالوا: فلما كان من الغد أخذ عصاه بيده، وصعد إلى أعلى موضع من قصره، ووقف متكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً بما أوتي، فرحاً بما أعطي، إذ نظر إلى شاب حسن الوجه واللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره، فلمّا بصر به سليمان (ع) قال له: من أدخلك إلى هذا القصر، وقد أردت أن أخلو فيه اليوم، فبأذن من دخلت؟

فقال الشاب: أدخلني هذا القصر ربه، وبإذنه دخلت.

فقال: ربّه أحق به مني، فمن أنت؟

قال: أنا ملك الموت، قال: وفيما جئت؟

قال: جئت لأقبض روحك.

قال: إمض لما أمرت به، فهذا يوم سروري، وأبى الله أن يكون لي سرور دون لقائه. فقبض ملك الموت روحه وهو متكىء على عصاه...»[1].

الصبر على طاعة الله والتصبر عن عصيانه:

من الواضح أن النفوس مجبولة على الجموح والشرود من النظم الإلزامية والضوابط المحددة لحريتها وانطلاقها في مسارح الأهواء والشهوات، وإن كانت باعثة على إصلاحها وإسعادها.

فهي لا تنصاع لتلك النظم، والضوابط، إلا بالإغراء، والتشويق، أو الإنذار والترهيب. وحيث كانت ممارسة طاعة الله عز وجل، ومجافاة عصيانه،

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦١٤ عن عيون أخبار الرضا.

شاقين على النفس كان الصبر على الطاعة، والتصبر عن المعصية من أعظم الواجبات، وأجل القربات.

وجاءت الآيات الكريمة وأحاديث أهل البيت عليهم السلام مشوّقة إلى الأولى ومحذّرة من الثانية بأساليبها الحكيمة البليغة:

قال الصادق (ع): «اصبروا على طاعة الله، وتصبروا عن معصيته، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فلست تجد له سروراً ولا حزناً. وما لم يأت فلست تعرفه، فاصبر على تلك الساعة، فكأنّك قد اغتبطت»[1].

وقال (ع): «إذا كان يوم القيامة، يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنّا نصبر على طاعة الله، ونصبر عن معاصي الله، فيقول الله تعالى: صدقوا أدخلوهم الجنة، وهو قوله تعالى: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر: ١٠)[2].

وقال (ع): «الصبر صبران: فالصبر عند المصيبة، حَسَن جميل، وأفضل من ذلك الصبر عما حرّم الله عز وجل ليكون لك حاجزاً»[3].

الصبر على النِعَم

وهو: ضبط النفس عن مسولات البطر والطغيان، وذلك من سمات عظمة النفس، ورجاحة العقل، وبُعد النظر.

فليس الصبر على مآسي الحياة وأرزائها بأولى من الصبر على مسراتها وأشواقها، ومفاتنها، كالجاه العريض، والثراء الضخم، والسلطة النافذة، ونحو ذلك. حيث أن إغفال الصبر في الضراء يفضي إلى الجزع المدمّر، كما يؤدّي إهماله في السراء إلى البطر والطغيان: ﴿إنّ الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٣ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٦٥ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٦٥ عن الفقيه.

(العلق: ٦ - ٧) وكلاهما ذميم مقيت.

والمراد بالصبر على النعم هو: رعاية حقوقها، واستغلالها في مجالات العطف والإحسان المادية، أو المعنوية: كرعاية البؤساء، وإغاثة المضطهدين، والاهتمام بحوائج المؤمنين، والتوقي في مزالق البطر والتجبر.

وللصبر أنواع عديدة أخرى:

فالصبر في الحرب: شجاعة، وضدّه الجبن.

والصبر عن الإنتقام: حلم، وضده الغضب.

والصبر عن زخارف الحياة: زهد، وضده الحرص.

والصبر على كتمان الأسرار: كتمان، وضدّه الإذاعة والنشر.

والصبر على شهوتي البطن والفرج: عفة، وضدّه الشره.

فاتضح بهذا أن الصبر نظام الفضائل، وقطبها الثابت، وأساسها المكين.

محاسن الصبر

نستنتج من العرض السالف أنّ الصبر عماد الفضائل، وقطب المكارم، ورأس المفاخر.

فهو عصمة الواجد الحزين، يخفف وَجْده، ويلطف عناءه، ويمدّه بالسكينة والاطمئنان.

وهو ظمان من الجزع المدمّر، والهلع الفاضح، ولولاه لانهار المصاب، وغدا فريسة العلل والأمراض، وعرضة لشماتة الأعداء والحسّاد.

وهو بعد هذا وذاك الأمل المرّجى فيما أعدّ الله للصابرين، من عظيم المكافآت، وجزيل الأجر والثواب.

كيف تكسب الصبر

وإليك بعض النصائح الباعثة على كسب الصبر والتحلي به:

١ - التأمل في مآثر الصبر، وما يفيء على الصابرين من جميل الخصائص، وجليل العوائد والمنافع في الحياة الدنيا، وجزيل المثوبة والأجر في الآخرة.

٢ ـ التفكر في مساوىء الجزع، وسوء آثاره في حياة الإنسان، وأنه لا يشفي غليلاً، ولا يرد قضاءً، ولا يبدّل واقعاً، ولا ينتج إلا بالشقاء والعناء. يقول (دليل كارنيجي) «لقد قرأت خلال الأعوام الثمانية الماضية كل كتاب، وكل مجلة، وكل مقالة عالجت موضوع القلق، فهل تريد أن تعرف أحكم نصيحة، وأجداها خرجت بها من قراءتي الطويلة؟ إنها: «إرض بما ليس منه بدّ».

٣ ـ تفهم واقع الحياة، وأنها مطبوعة على المتاعب والهموم:

طبعت على كدر وأنت تريدها صفواً من الأقدار والأكدار

فليست الحياة دار هناء وارتياح، وإنما هي: دار اختبار وامتحان للمؤمن، فكما يرهق طلاب العلم بالامتحانات استجلاءً لرصيدهم العلمي، كذلك يمتحن المؤمن اختباراً لأبعاد إيمانه ومبلغ يقينه.

قال تعالى: ﴿أحَسِبَ الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون، ولقد فتنا الذين من قبلهم، فليعلمن الله الذين صدقوا، وليعلمنّ الكاذبين﴾ (العنكبوت: ٢ ـ ٣).

٤ ـ الاعتبار والتأسي بما عاناه العظماء، والأولياء، من صنوف المآسي والأرزاء، وتجلّدهم فيها وصبرهم عليها، في ذات الله، وذلك من محفزات الجلد والصمود.

٥ ـ التسلية والترفيه بما يخفف آلام النفس، وينهنه عن الوجد: كتغير المناخ، وارتياد المناظر الجميلة، والتسلّي بالقصص الممتعة، والأحاديث الشهية النافعة.

الشكر

وهو عرفان النعمة من المنعم، وحمده عليها، واستعمالها في مرضاته. وهو من خلال الكمال، وسمات الطِيْبَة والنبل، وموجبات ازدياد النِعم واستدامتها.

والشكر واجب مقدس للمنعم المخلوق، فكيف بالمنعم الخالق، الذي لا

تحصى نعماؤه ولا تُعد آلاؤه.

والشكر لا يجدي المولى عز وجل، لاستغنائه المطلق عن الخلق، وإنما يعود عليهم بالنفع، لأعرابه عن تقديرهم للنعم الإلهية، واستعمالها في طاعته ورضاه، وفي ذلك سعادتهم وازدهار حياتهم.

لذلك دعت الشريعة إلى التخلق بالشكر والتحلي به كتاباً وسنة.

قال تعالى: ﴿واشكروا لي ولا تكفرون﴾ (البقرة: ١٥٢).

وقال عز وجل: ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾ (سبأ: ١٥).

وقال تعالى: ﴿وإذ تأذّن ربكُم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (ابراهيم: ٧).

وقال تعالى: ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ (سبأ: ١٣).

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«الطاعم الشاكر له من الأجر، كأجر الصائم المُحتَسب، والمُعافى الشاكر له من الأجر كأجر المبتلى الصابر، والمُعطى الشاكر له من الأجر كأجر المحروم القانع»[1].

وقال الصادق (ع): «من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله عز وجل: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (ابراهيم: ٧)»[2].

وقال (ع): «شكر كل نعمة وإن عظمت أن تحمد الله عز وجل عليها»[3].

وقال (ع): «ما أنعم الله على عبد بنعمة بالغة ما بلغت فحَمد الله عليها، إلا كان حَمْدُ الله أفضل من تلك النعمة وأوزن»[4].

وقال الباقر (ع): «تقول ثلاث مرات إذا نظرت إلى المُبْتَلَى من غير أن تُسمعه: الحمدلله الذي عافاني مما ابتلاك به، ولو شاء فعل. قال: من قال ذلك

(١)، (٢)، (٣) الوافي ج ٣ ص ٦٧ عن الكافي.
(٤) الوافي ج ٣ ص ٦٩ عن الكافي.

لم يصبه ذلك البلاء أبداً»[1].

وقال الصادق (ع): «إن الرجل منكم ليشرب الشربة من الماء، فيوجب الله له بها الجنة، ثم قال: إنه ليأخذ الإناء، فيضعه على فيه، فيسمي ثم يشرب، فينحيه وهو يشتهيه، فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه، فيحمد الله، ثم يعود فيشرب، ثم ينحيه فيحمد الله فيوجب الله عز وجل له بها الجنة»[2].

أقسام الشكر

ينقسم الشكر إلى ثلاثة أقسام: شكر القلب. وشكر اللسان. وشكر الجوارح. ذلك أنه متى امتلأت نفس الإنسان وعياً وإدراكاً بعِظَمِ نِعم الله تعالى، وجزيل آلائه عليه، فاضت على اللسان بالحمد والشكر للمنعم الوهاب.

ومتى تجاوبت النفس واللسان في مشاعر الغبطة والشكر، سرى إيحاؤها إلى الجوارح، فغدت تُعرب عن شكرها للمولى عز وجل بانقيادها واستجابتها لطاعته.

من أجل ذلك اختلفت صور الشكر، وتنوعت أساليبه:

أ ـ فشكر القلب هو: تصوّر النعمة، وأنها من الله تعالى.

ب ـ وشكر اللسان: حمد المنعم والثناء عليه.

جـ ـ وشكر الجوارح: إعمالها في طاعة الله، والتحرج بها عن معاصيه: كاستعمال العين في مجالات التبصر والإعتبار، وغضّها عن المحارم، واستعمال اللسان في حسن المقال، وتعففه عن الفحش، والبذاء، واستعمال اليد في المآرب المباحة، وكفّها عن الأذى والشرور.

وهكذا يجدر الشكر على كل نعمة من نعم الله تعالى، بما يلائمها من صور الشكر ومظاهره:

(١) البحار م١٥ ج ٢ ص ١٣٥ عن ثواب الأعمال للصدوق.
(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٣١ عن الكافي.

فشكر المال: إنفاقه في سبل طاعة الله ومرضاته.

وشكر العلم: نشره وإذاعة مفاهيمه النافعة.

وشكر الجاه: مناصرة الضعفاء والمضطهدين، وإنقاذهم من ظلاماتهم.

ومهما بالغ المرء في الشكر، فإنه لن يستطيع أن يوفي النعم شكرها الحق، إذ الشكر نفسه من مظاهر نعم الله وتوفيقه، لذلك يعجز الإنسان عن أداء واقع شكرها: كما قال الصادق (ع): «أوحى الله عز وجل إلى موسى (ع): يا موسى اشكرني حق شكري. فقال: يا رب وكيف أشكرك حق شكرك، وليس من شكر أشكرك به، إلا وأنت أنعمت به عليّ. قال: يا موسى الآن شكرتني حين علمت أن ذلك مني»[1].

فضيلة الشكر

من خصائص النفوس الكريمة تقدير النعم والألطاف، وشكر مسديها وكلّما تعاظمت النِعم، كانت أحق بالتقدير، وأجدر بالشكر الجزيل، حتى تتسامى إلى النعم الإلهية التي يقصر الإنسان عن تقييمها وشكرها.

فكل نظرة يسرحها الطرف، أو كلمة ينطق بها الفم، أو عضو تحركه الإرادة، أو نَفَسٍ يردده المرء، كلها منح ربّانية عظيمة، لا يثمّنها إلا العاطلون منها.

ولئن وجب الشكر للمخلوق فكيف بالمنعم الخالق، الذي لا تحصى نعماؤه ولا تقدّر آلاؤه.

والشكر بعد هذا من موجبات الزلفى والرضا من المولى عز وجل، ومضاعفة نعمه وآلائه على الشكور.

أما كفران النعم، فإنه من سمات النفوس اللئيمة الوضيعة، ودلائل الجهل بقيم النعم وأقدارها، وضرورة شكرها.

انظر كيف يخبر القرآن الكريم: أن كفران النعم هو سبب دمار الأمم

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٨ عن الكافي.

ومحق خيراتها: ﴿وضرب الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون﴾ (النحل: ١١٢).

وسئل الصادق (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا وظلموا أنفسهم﴾ الآية (سبأ: ١٩) فقال: هؤلاء قوم كانت لهم قرى متصلة، ينظر بعضهم إلى بعض، وأنهار جارية، وأموال ظاهرة، فكفروا نعم الله عز وجل، وغيّروا ما بأنفسهم من عافية الله، فغير الله ما بهم من نعمة، وإن الله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم، فأرسل الله عليهم سيل العَرِم ففرق قراهم، وخرّب ديارهم، وذهب بأموالهم، وأبدلهم سكان جناتهم جنتين ذواتي أكل خمط وأثل وشيء من سدر قليل، ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازي إلا الكفور»[1].

وقال الصادق (ع) في حديث له:

«إن قوماً أفرغت عليهم النعمة وهم (أهل الثرثار) فعمدوا إلى مُخ الحنطة فجعلوه خبز هجاء فجعلوا ينجون به صبيانهم، حتى اجتمع من ذلك جبل، فمرَّ رجل على امرأة وهي تفعل ذلك بصبيٍّ لها، فقال: ويحكم اتقوا الله لا تُغيّروا ما بكم من نعمة، فقالت: كأنّك تخوفنا بالجوع، أما ما دام ثرثارنا يجري فانا لا نخاف الجوع.

قال: فأسف الله عز وجل، وضعف لهم الثرثار، وحبس عنهم قطر السماء ونبت الأرض، قال فاحتاجوا إلى ما في أيديهم فأكلوه، ثم احتاجوا إلى ذلك الجبل فإنّه كان ليقسم بينهم بالميزان»[2].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال قال النبي (ص): «أسرع الذنوب عقوبة كفران النعم»[3].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٦٧ عن الكافي.
(٢) البحار عن محاسن البرقي.
(٣) البحار عن أمالي ابن الشيخ الطوسي

كيف نتحلى بالشكر

إليك بعض النصائح لاكتساب فضيلة الشكر والتحلي به:

١ ـ التفكر فيما أغدقه الله على عباده من صنوف النعم، وألوان الرعاية واللطف.

٢ ـ ترك التطلع إلى المترفين والمُنعَمين في وسائل العيش، وزخارف الحياة، والنظر إلى البؤساء والمعوزين، ومن هو دون الناظر في مستوى الحياة والمعاش، كما قال أمير المؤمنين (ع): «وأكثر أن تنظر إلى من فُضّلت عليه في الرزق، فإنّ ذلك من أبواب الشكر»[1].

٣ ـ تذكر الإنسان الأمراض، والشدائد التي أنجاه الله منها بلطفه، فأبدله بالسقم صحة، وبالشدة رخاءاً وأمناً.

٤ ـ التأمل في محاسن الشكر، وجميل آثاره في استجلاب ودّ المنعم، وازدياد نعمه، وآلائه، وفي مساوىء كفران النِعمَ واقتضائه مقت المنعِم وزوال نعمه.

التوكـــــل

هو: الاعتماد على الله تعالى في جميع الأمور، وتفويضها إليه، والإعراض عمّا سواه. وباعثه قوة القلب واليقين، وعدمه من ضعفهما أو ضعف القلب، وتأثره بالمخاوف والأوهام.

والتوكل هو: من دلائل الإيمان، وسمات المؤمنين ومزاياهم الرفيعة، الباعثة على عزة نفوسهم، وترفعهم عن استعطاف المخلوقين، والتوكل على الخالق في كسب المنافع ودَرْء المضار.

وقد تواترت الآيات والآثار في مدحه والتشويق إليه:

قال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣).

---

(١) نهج البلاغة.

وقال: ﴿إن الله يحب المتوكلين﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وقال: ﴿قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله، هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (التوبة: ٥١).

وقال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: ١٦٠).

وقال الصادق (ع): «إنَّ الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[١].

وقال (ع): «أوحى الله إلى داود (ع): ما اعتصم بي عبد من عبادي دون أحد من خلقي، عرفت ذلك من نيّته، ثم تكيده السماوات والأرض، ومن فيهن، إلا جعلت له المخرج من بينهن.

وما اعتصم عبد من عبادي بأحد من خلقي، عرفت ذلك من نيته، إلاّ قطعت أسباب السماوات من يديه، وأسخت الأرض من تحته، ولم أبال بأيّ واد هلك»[٢].

وقال (ع): «من أعطي ثلاثاً، لم يمنع ثلاثاً:
من أعطي الدعاء أعطي الإجابة.
ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة.
ومن أعطي التوكل أعطي الكفاية.
ثم قال: أتلوت كتاب الله تعالى؟: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣).

وقال: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (ابراهيم: ١). وقال: ﴿أدعوني أستجب لكم﴾ (غافر: ٦٠)»[٣].

وقال أمير المؤمنين في وصيته الحسن (ع):

«وألجىء نفسك في الأمور كلها، إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف

(١) الوافي ج ٣ ص ٥٦ عن الكافي.
(٢)، (٣) الوافي ج ٣ ص ٥٦ عن الكافي.

حريز، ومانع عزيز»(١).

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع).

«كان فيما وعظ به لقمان ابنه، أن قال له: يا بني ليعتبر من قصر يقينه وضعفت نيته في طلب الرزق، أن الله تبارك وتعالى خلقه في ثلاثة أحوال، ضمن أمره، وأتاه رزقه، ولم يكن له في واحدة منها كسب ولا حيلة، إن الله تبارك وتعالى سيرزقه في الحال الرابعة:

أما أول ذلك فإنه كان في رحم أمّه، يرزقه هناك في قرار مكين، حيث لا يؤذيه حر ولا برد.

ثم أخرجه من ذلك، وأجرى له رزقاً من لبن أمّه، يكفيه به، ويربيه وينعشه، من غير حول به ولا قوة.

ثم فُطم من ذلك، فأجرى له رزقاً من كسب أبويه، برأفة ورحمة له من قلوبهما، لا يملكان غير ذلك، حتى أنّهما يؤثرانه على أنفسهما، فى أحوال كثيرة، حتى إذا كبر وعقل، واكتسب لنفسه، ضاق به أمره، وظنّ الظنون بربه، وجحد الحقوق في ماله، وقتر على نفسه وعياله، مخافة رزقه، وسوء ظن ويقين بالخلف من الله تبارك وتعالى في العاجل والآجل، فبئس العبد هذا يا بني»(٢).

حقيقة التوكل

ليس معنى التوكل إغفال الأسباب والوسائل الباعثة على تحقيق المنافع، ودرء المضار، وأن يقف المرء إزاء الأحداث والأزمات مكتوف اليدين، سليب الإرادة والعزم. وإنما التوكل هو: الثقة بالله عز وجل، والركون إليه، والتوكل عليه دون غيره من سائر الخلق والأسباب، باعتبار أنّه تعالى هو مصدر الخير، ومسبب الأسباب، وأنه وحده المُصرّف لأمور العباد، والقادر على إنجاح غاياتهم ومآربهم.

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٥٥ عن خصال الصدوق (ره).

ولا ينافي ذلك تذرع الإنسان بالأسباب الطبيعية، والوسائل الظاهرية لتحقيق أهدافه ومصالحه كالتزود للسفر، والتسلح لمقاومة الأعداء والتداوي من المرض، والتحرز من الأخطار والمضار، فهذه كلها أسباب ضرورية لحماية الإنسان، وإنجاز مقاصده، وقد أبى الله عز وجل أن تجري الأمور إلا بأسبابها.

بيد أنه يجب أن تكون الثقة به تعالى، والتوكل عليه، في إنجاح الغايات والمآرب، دون الأسباب، وآية ذلك أنّ أعرابياً أهمل عَقْل بعيره متوكلاً على الله في حفظه، فقال النبي (ص)، له: «إعقل وتوكل».

درجات التوكل

يتفاوت الناس في مدارج التوكل تفاوتاً كبيراً، كتفاوتهم في درجات إيمانهم: فمنهم السباقون والمجلّون في مجالات التوكل، المنقطعون إلى الله تعالى، والمعرضون عمن سواه، وهم الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، ومن دار في فلكهم من الأولياء.

ومن أروع صور التوكل وأسماه، ما روي عن إبراهيم عليه السلام: «أنه لما ألقي في النار، تلقاه جبرئيل في الهواء، فقال: هل لك من حاجة؟ فقال: أمّا إليك فلا، حسبي الله ونعم الوكيل. فاستقبله ميكائيل فقال: إن أردتَ أن أخمد النار فإنّ خزائن الأمطار والمياه بيدي، فقال: لا أريد. وأتاه ملك الريح فقال: لو شئت طيرت النار. فقال: لا أريد، فقال جبرئيل: فاسأل الله. فقال: حسبي من سؤالي علمه بحالي»[١].

ومن الناس من هو عديم التوكل، عاطل منه، لضعف إحساسه الروحي، وهزال إيمانه. ومنهم بين هذا وذاك على تفاوت في مراقي التوكل.

محاسن التوكل

الإنسان في هذه الحياة، عرضة للنوائب، وهدف للمشاكل والأزمات، لا

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٦٨٣ عن بيان التنزيل لابن شهر آشوب بتلخيص.

ينفك عن جلادها ومقارعتها، ينتصر عليها تارة وتصرعه أخرى، وكثيراً ما ترديه لقاً، مهيض الجناح، كسير القلب.

فهو منها في قلق مضني، وفزع رهيب، يخشى الإخفاق، ويخاف الفقر، ويرهب المرض، ويعاني ألوان المخاوف المهددة لأمنه ورخائه.

ولئن استطاعت الحضارة الحديثة أن تخفف أعباء الحياة، بتيسيراتها الحضارية، وتوفير وسائل التسلية والترفيه، فقد عجزت عن تزويد النفوس بالطمأنينة والاستقرار، وإشعارها بالسكينة والسلام الروحيين، فلا يزال القلق والخوف مخيماً على النفوس، آخذاً بخناقها، مما ضاعف الأمراض النفسية، وإحداث الجنون والانتحار في أرقى الممالك المتحضرة.

ولكن الشريعة الإسلامية استطاعت بمبادئها السامية، ودستورها الخُلُقي الرفيع ـ أن تخفف قلق النفوس ومخاوفها، وتمدّها بطاقات روحية ضخمة، من الجلد والثبات، والثقة والاطمئنان، بالتوكل على الله، والاعتماد عليه، والاعتزاز بحسن تدبيره، وجميل صنعه، وجزيل آلائه، وأنّه له الخلق والأمر وهو على كل شيء قدير. وبهذا ترتاح النفوس، وتستبدل بالخوف أمناً، وبالقلق دِعَةً ورخاءً.

والتوكل بعد هذا من أهم عوامل عزة النفس، وسمو الكرامة، وراحة الضمير، وذلك بترفع المتوكلين عن الاستعانة بالمخلوق، واللجوء إلى الخالق، في جلب المنافع، ودرء المضار.

ولعل أجدر الناس بالتوكل أرباب الأقدار والمسؤوليات الكبيرة، كالمصلحين ليستمدوا منه العزم والتصميم على مجابهة عَنَتِ الناس وإرهاقهم، والمضي قدماً في تحقيق أهدافهم الإصلاحية، متخطين ما يعترضهم من أشواك وعوائق.

كيف تكسب التوكل

١ ـ استعراض الآيات والأخبار الناطقة بفضله وجميل أثره في كسب الطمأنينة والرخاء.

ومن طريف ما نظم في التوكل قول الحسين (ع):

إذا ما عضك الدهر فلا تجنح إلى خلق
ولا تسأل سوى الله تعالى قاسم الرزق
فلو عشت وطوفت من الغرب إلى الشرق
لما صادفت من يقدر أن يسعد أو يشقى

ومما نسب لأمير المؤمنين عليه السلام:

رضيت بما قسم الله لي وفوضت أمري إلى خالقي
كما أحسن الله فيما مضى كذلك يحسن فيما بقى

وقال بعض الأعلام:

كن عن همومك معرضاً وكل الأمور إلى القضا
فلرب أمر مسخط لك في عواقبه رضا
ولربما اتسع المضيق وربما ضاق الفضا
الله عوّدك الجميل فقس على ما قد مضى

* * *

٢ ـ تقوية الإيمان بالله عز وجل، والثقة بحسن صنعه، وحكمة تدبيره، وجزيل حنانه ولطفه، وأنه هو مصدر الخير، ومسبب الأسباب، وهو على كل شيء قدير.

٣ ـ التنبه إلى جميل صنع الله تعالى، وسمو عنايته بالإنسان، في جميع أطواره وشؤونه، من لدن كان جنيناً حتى آخر الحياة، وأنّ من توكل عليه كفاه، ومن استنجده أنجده وأغاثه.

٤ ـ الاعتبار بتطور ظروف الحياة، وتداول الأيام بين الناس، فكم فقير صار غنياً، وغني صار فقيراً، وأمير غدا صعلوكاً، وصعلوك غدا أميراً متسلطاً.

وهكذا يجدر التنبه إلى عظمة القدرة الإلهية في أرزاق عبيده، ودفع الأسواء عنهم، ونحو ذلك من صور العبر والعظات الدالة على قدرة الله عز وجل، وأنه وحده هو الجدير بالثقة، والتوكل والاعتماد، دون سواه.

وآية حصول التوكل للمرء هي: الرضا بقضاء الله تعالى وقَدَره في المسرات والمكاره، دون تضجر واعتراض، وتلك منزلة سامية لا ينالها إلا الأفذاذ المقربون.

الخوف من الله تعالى

وهو: تألم النفس خشية من عقاب الله، من جراء عصيانه ومخالفته.

وهو من خصائص الأولياء، وسمات المتقين، والباعث المحفِّز على الاستقامة والصلاح. والوازع القويّ عن الشرور والآثام.

لذلك أولته الشريعة عناية فائقة، وأثنت على ذويه ثناءاً عاطراً مشرفاً.

قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (فاطر: ٢٨).

وقال: ﴿إن الذين يخشون ربهم بالغيب، لهم مغفرة وأجر كبير﴾ (الملك:١٢).

وقال: ﴿وأما من خاف مقام ربِّه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٤٠ - ٤١).

وقال الصادق (ع): «خِفِ الله كأنك تراه، وإن كنت لا تراه فإنه يراك، وإن كنت ترى أنه لا يراك فقد كفرت، وإن كنت تعلم أنه يراك ثم برزت له بالمعصية، فقد جعلته من أهون الناظرين إليك»[١].

وقال (ع): «المؤمن بين مخافتين: ذنب قد مضى لا يدري ما صنع الله فيه، وعمر قد بقي لا يدري ما يكتسب فيه من المهالك، فهو لا يصبح إلا خائفاً، ولا يصلحه إلا الخوف»[٢].

وقال (ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[٣].

وفي مناهي النبي (ص):

(١) الوافي ج ٣ ص ٥٧ عن الكافي.

(٢)، (٣) الوافي ج ٣ ص ٥٧ عن الكافي.

«من عرضت له فاحشة، أو شهوة فاجتنبها من مخافة الله عز وجل، حرّم الله عليه النار، وآمنه من الفزع الأكبر، وأنجز له ما وعده في كتابه، في قوله عز وجل: ﴿ولمن خاف مقام ربه جنتان﴾ (الرحمن: ٤٦)»[1].

وقال بعض الحكماء: مسكين ابن آدم، لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منهما جميعاً، ولو رغب في الجنة كما رغب في الدنيا لفاز بهما جميعاً، ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسعد في الدارين جميعاً.

ودخل حكيم على المهدي العباسي فقال له: عظني. فقال: أليس هذا المجلس قد جلس فيه أبوك وعمك قبلك؟ قال: نعم. قال: فكانت لهم أعمال ترجو لهم النجاة بها؟ قال: نعم. قال: فكانت لهم أعمال تخاف عليهم الهلكة منها؟ قال: نعم. قال: فانظر ما رجوت لهم فيه فأته، وما خفت عليهم منه فاجتنبه.

الخوف بين المدّ والجزر

لقد صورت الآيات الكريمة، والأخبار الشريفة، أهمية الخوف، وأثره في تقويم الإنسان وتوجيهه وجهة الخير والصلاح، وتأهيله لشرف رضا الله تعالى وانعامه.

بيد أن الخوف كسائر السجايا الكريمة، لا تستحق الإكبار والثناء، إلا إذا اتسمت بالقصد والاعتدال، الذي لا إفراط فيه ولا تفريط.

فالإفراط في الخوف يجدب النفس، ويدعها يباباً من نضارة الرجاء، ورونقه البهيج، ويدع الخائف آيساً آبقاً موغلاً في الغواية والضلال، ومرهقاً نفسه في الطاعة والعبادة حتى يشقيها وينهكها.

والتفريط فيه باعث على الإهمال والتقصير، والتمرد على طاعة الله تعالى واتباع دستوره.

ويتعادل الخوف والرجاء تنتعش النفس، ويسمو الضمير، وتتفجر

(١) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١١٣ عن الفقيه.

الطاقات الروحية، للعمل الهادف البنّاء.

كما قال الصادق (ع): «أرج الله رجاءاً لا يجرئك على معاصيه، وخف الله خوفاً لا يؤيسك من رحمته»(١).

محاسن الخوف

قيم السجايا الكريمة بقدر ما تحقق في ذويها من مفاهيم الإنسانية الفاضلة، وقيم الخير والصلاح، وتؤهلهم للسعادة والرخاء. وبهذا التقييم يحتل الخوف مركز الصدارة بين السجايا الأخلاقية الكريمة، وكانت له أهمية كبرى في عالم العقيدة والإيمان، فهو الذي يلهب النفوس، ويحفّزها على طاعة الله عز وجل، ويفطمها من عصيانه، ومن ثم يسمو بها إلى منازل المتقين الأبرار.

وكلما تجاوبت مشاعر الخشية والخوف في النفس، صقلتها وسَمَتْ بها إلى أوج ملائكي رفيع، يحيل الإنسان ملاكاً في طيبته ومثاليته، كما صوره أمير المؤمنين (ع) وهو يقارن بين الملك والإنسان والحيوان، فقال: «إن الله عز وجل ركّب في الملائكة عقلاً بلا شهوة، وركّب في البهائم شهوة بلا عقل، وركّب في بني آدم كليهما.

فمن غلب عقلُه شهوتَه، فهو خير من الملائكة، ومن غلب شهوته عقله فهو شر من البهائم»(٢).

من أجل ذلك نجد الخائف من الله تعالى يستسهل عناء طاعته، ويستحلي مرارتها، ويستوخم حلاوة المعاصي والآثام، خشية من سخطه وخوفاً من عقابه.

وبهذا يسعد الإنسان، وتزدهر حياته المادية والروحية، كما انتظم الكون، واتسقت عناصره السماوية والأرضية، بخضوعه لله عز وجل، وسيره على وفق نظمه وقوانينه.

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة

---

(١) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٨٨ عن أمالي الصدوق.

(٢) علل الشرائع.

ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

وما هذه المآسي والأرزاء التي تعيشها البشرية اليوم من شيوع الفوضى وانتشار الجرائم، واستبداد الحيرة والقلق، والخوف بالناس إلا لاعراضهم عن الله تعالى، وتنكبهم عن دستوره وشريعته.

﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذّبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ (الأعراف: ٩٦).

كيف نستشعر الخوف

يجدر بمن ضعف فيه شعور الخوف إتباع النصائح التالية:

١ ـ تركيز العقيدة، وتقوية الإيمان بالله تعالى، ومفاهيم المعاد والثواب والعقاب، والجنة والنار، إذ الخوف من ثمرات الإيمان وانعكاساته على النفس ﴿إنما المؤمنون الذين إذا ذُكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيماناً، وعلى ربهم يتوكلون﴾ (الأنفال: ٢).

٢ ـ استماع المواعظ البليغة، والحِكَم الناجعة، الموجبة للخوف والرهبة.

٣ ـ دراسة حالات الخائفين وضراعتهم وتبتلهم إلى الله عز وجل، خوفاً من سطوته، وخشية من عقابه.

وإليك أروع صورة للضراعة والخوف وهي مناجاة الإمام زين العابدين (ع) في بعض أدعيته:

«ومالي لا أبكي!! ولا أدري إلى ما يكون مصيري، وأرى نفسي تخادعني، وأيامي تخاتلني، وقد خفقت عند رأسي أجنحة الموت، فمالي لا أبكي، أبكي لخروج نفسي، أبكي لظلمة قبري، أبكي لضيق لحدي، أبكي لسؤال منكر ونكير إيّايَ، أبكي لخروجي من قبري عرياناً ذليلاً حاملاً ثقلي على ظهري، أنظر مرة عن يميني، وأخرى عن شمالي، إذ الخلائق في شأن غير شأني ﴿لكل امرىء منهم يومئذ شأن يغنيه، وجوه يومئذ مسفرة، ضاحكة مستبشرة، ووجوه يومئذ عليها غبرة، ترهقها قترة﴾ (عبس: ٣٧ ـ ٤١)».

طرف من قصص الخائفين

عن الباقر (ع) قال: «خرجت امرأة بغيّ على شباب من بني إسرائيل فأفتنتهم، فقال بعضهم: لو كان العابد فلان رآها أفتنته!، وسمعت مقالتهم، فقالت: والله لا أنصرف إلى منزلي، حتى أفتنه. فمضت نحوه بالليل فدقت عليه، فقالت: آوي عندك؟ فأبى عليها فقالت: إن بعض شباب بني إسرائيل راودوني عن نفسي، فإن أدخلتني وإلا لحقوني، وفضحوني، فلما سمع مقالتها فتح لها، فلمّا دخلت عليه رمت بثيابها، فلما رأى جمالها وهيئتها وقعت في نفسه، فضرب يده عليها، ثم رجعت إليه نفسه، وقد كان يوقد تحت قدر له، فأقبل حتى وضع يده على النار فقالت: أي شيء تصنع؟ فقال: أحرقها لأنها عملت العمل، فخرجت حتى أتت جماعة بني إسرائيل فقالت: الحقوا فلاناً فقد وضع يده على النار، فأقبلوا فلحقوه وقد احترقت يده»[1].

وعن الصادق (ع): «إن عابداً كان في بني إسرائيل، فأضافته إمرأة من بني إسرائيل، فهمَّ بها، فأقبل كلما همّ بها قرّب إصبعاً من أصابعه إلى النار، فلم يزل ذلك دأبه حتى أصبح، قال لها: أخرجي لبئس الضيف كنت لي»[2].

الرجاء من الله تعالى

وهو: انتظار محبوب تمهدّت أسباب حصوله، كمن زرع بذراً في أرض طيّبة، ورعاه بالسقي والمداراة، فرجا منه النتاج والنفع.

فإن لم تتمهد الأسباب، كان الرجاء حمقاً وغروراً، كمن زرع أرضاً سبخة وأهمل رعايتها، وهو يرجو نتاجها.

والرجاء: هو الجناح الثاني من الخوف، اللذان يطير بهما المؤمن إلى آفاق طاعة الله، والفوز بشرف رضاه، وكرم نعمائه، إذ هو باعث على الطاعة رغبةً كما يبعث الخوف عليها رهبة وفزعاً.

ولئن تساند الخوف والرجاء، على تهذيب المؤمن، وتوجيهه وجهة الخير

(١)، (٢) عن البحار م ٥ عن قصص الأنبياء للقطب الراوندي.

والصلاح، بيد أن الرجاء أعذب مورداً، وأحلى مذاقاً من الخوف، لصدوره عن الثقة بالله، والاطمئنان بسعة رحمته، وكرم عفوه، وجزيل ألطافه.

ويديهي أن المطيع رغبة ورجاءاً، أفضل منه رهبة وخوفاً، لذلك كانت تباشير الرجاء وافرة، وبواعثه جمّة وآياته مشرقة، وإليك طرفاً منها:

١ ـ النهي عن اليأس والقنوط:

قال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾ «الزمر: ٥٣».

وقال تعالى: ﴿ولا تيأسوا من روح الله إنه لا ييأس من روح الله، إلا القوم الكافرون﴾ «يوسف: ٨٧».

وقال أمير المؤمنين (ع) لرجل أخرجه الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه: «أيا هذا، يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك»[1].

وقال النبي (ص): «يبعث الله المقنّطين يوم القيامة، مغلّبةً وجوهُهُم، يعني غلبة السواد على البياض، فيقال لهم: هؤلاء المقنّطون من رحمة الله تعالى»[2].

٢ ـ سعة رحمة الله وعظيم عفوه:

قال تعالى: ﴿فقل ربكّم ذو رحمة واسعة﴾ (الأنعام: ١٤٧).

وقال تعالى: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ (الرعد: ٦).

وقال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ (النساء: ٤٨).

وقال تعالى: ﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة انه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم﴾ (الزمر: ٥٣).

---

(١) جامع السعادات ج ١ ص ٢٤٦.

(٢) سفينة البحار ج ٢ ص ٤٥١ عن نوادر الراوندي.

وجاء في حديث عن النبي (ص): «لولا أنكم تذنبون فتستغفرون الله تعالى، لأتى الله تعالى بخلق يذنبون ويستغفرون، فيغفر لهم، إنّ المؤمن مفتن توّاب، أما سمعت قول الله تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين﴾ (البقرة: ٢٢٢) الخبر»[١].

توضيح: المفتن التواب: هو من يقترف الذنوب ويسارع إلى التوبة منها.

وقال الصادق (ع): «إذا كان يوم القيامة، نشر الله تبارك وتعالى رحمته حتى يطمع إبليس في رحمته»[٢].

وعن سليمان بن خالد قال: «قرأت على أبي عبدالله (ع) هذه الآية: ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً، فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾ (الفرقان: ٧٠).

فقال: هذه فيكم، إنه يؤتى بالمؤمن المذنب يوم القيامة، حتى يوقف بين يدي الله عز وجل، فيكون هو الذي يلي حسابه، فيوقفه على سيئاته شيئاً فشيئاً، فيقول: عملت كذا في يوم كذا في ساعة كذا، فيقول أعرف يا ربي، حتى يوقفه على سيئاته كلّها، كل ذلك يقول: أعرف. فيقول سترتها عليك في الدنيا، وأغفرها لك اليوم، أبدلوها لعبدي حسنات.

قال: فتُرفع صحيفته للناس فيقولون: سبحان الله! أما كانت لهذا العبد سيئة واحدة، وهو قول الله عز وجل: ﴿أولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات﴾ (الفرقان: ٧٠)[٣].

٣ ـ حسن الظن بالله الكريم، وهو أقوى دواعي الرجاء.

قال الرضا (ع): «أحسِن الظن بالله، فإن الله تعالى يقول: أنا عند ظن عبدي بي، إنْ خيراً فخيراً، وإنْ شراً فشراً»[٤].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٥١ عن الكافي.

(٢) البحار مجلد ٣ ص ٢٧٤ عن أمالي الشيخ الصدوق.

(٣) البحار مجلد ٣ ص ٢٧٤ عن محاسن البرقي.

(٤) الوافي ج ٣ ص ٥٩ عن الكافي.

وقال الصادق (ع): «آخر عبد يؤمر به إلى النـار، يلتفت، فيقول الله عـز وجل: اعجلوه[1]، فإذا أتى به قال لـه: يا عبـدي لِمَ التفت؟ فيقول: يـا رب ما كان ظني بك هذا، فيقول الله عز وجل: عبـدي وما كـان ظنك بي؟ فيقـول: يا رب كـان ظني بك أن تغفـر لي خطيئتي وتسكنني جنتـك. فيقول الله: مـلائكتي وعزتي وجلالي وآلائي وبـلائي وارتفاع مكـاني ما ظن بي هـذا ساعـة من حياتـه خيراً قط، ولو ظن بي ساعة من حياته خيراً ما روعتـه بالنـار، أجيزوا لـه كذبـه وأدخلوه الجنة.

ثم قال أبو عبدالله (ع): ما ظن عبد بالله خيراً، إلا كان الله عند ظنه به، ولا ظن به سوءاً إلا كان الله عند ظنه به، وذلك قوله عز وجل: ﴿وذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين﴾ (فصلت: ٢٣)»[2].

٤ ـ شفاعة النبي والأئمة الطاهرين عليهم السلام لشيعتهم ومحبيهم:

عن الرضا عن آبائه عن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله (ص): «إذا كان يوم القيامة وُلِّينا حساب شيعتنا، فمن كانت مـظلمته فيـها بينه وبـين الله عز وجل، حكمنا فيها فأجابنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبين الناس استوهبنـاها فوهبت لنا، ومن كانت مظلمته فيما بينه وبيننا كنّا أحق من عفى وصفح»[3].

وأخـرج الثعلبي في تفسيره الكبير بالإسنـاد إلى جريـر بن عبدالله البجـلي قال: قال رسـول الله (ص): «ألا ومن مات عـلى حب آل محمد مـات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمـد مات مغفـوراً له، ألا ومن مـات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مـات على حب آل محمـد بشره ملك الموت بـالجنة ثم منكـر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزفّ إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجهـا، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بـابان إلى الجنـة، ألا ومن مات

---

(١) أعجلوه: اي ردّوه مستعجلاً.

(٢) البحار م ٣ ص ٢٧٤ عن ثواب الأعمال للصدوق.

(٣) البحار م ٣ ص ٣٠١ عن عيون أخبار الرضا عليه السلام.

على حب آل محمد جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة.

ألا ومن مات على بغض آل محمد، جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه: آيس من رحمة الله. . . .».

وقد أرسله الزمخشري في تفسير آية المودة من كشافه إرسال المسلمات، رواه المؤلفون في المناقب والفضائل مرسلاً مرة ومسنداً تارات[١].

وأورد ابن حجر في صواعقه ص ١٠٣ حديثاً هذا لفظه:

«إن النبي (ص) خرج على أصحابه ذات يوم، ووجهه مشرق كدائرة القمر، فسأله عبدالرحمن بن عوف عن ذلك، فقال (ص): بشارة أتتني من ربي في أخي وابن عمي وابنتي، بأن الله زوج علياً من فاطمة، وأمر رضوان خازن الجنان فهز شجرة طوبى، فحملت رقاقاً (يعني صكاكاً) بعدد محبي أهل بيتي، وأنشأ تحتها ملائكة من نور، دفع إلى كل ملك صكاً، فإذا استوت القيامة بأهلها، نادت الملائكة في الخلائق، فلا يبقى محب لأهل البيت، إلا دفعت إليه صكاً فيه فكاكه من النار، فصار أخي وابن عمي وابنتي فكاك رقاب رجال ونساء من أمتي من النار»[٢].

وجاء في الصواعق ص ٩٦ لابن حجر: «أنه قال: لما أنزل الله تعالى ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البرية، جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً، رضي الله عنهم ورضوا عنه، ذلك لمن خشي ربه﴾ (البينة: ٧ ـ ٨) قال رسول الله (ص) لعلي: هم أنت وشيعتك، تأتي أنت وشيعتك يوم القيامة راضين مرضيين، ويأتي عدوك غضابى مقمحين»[٣].

٥ ـ النوائب والأمراض كفارة لآثام المؤمن:

---

(١) الفصول المهمة للمرحوم آية الله السيد عبدالحسين شرف الدين.
(٢) الفصول المهمة للإمام شرف الدين ص ٤٤.
(٣) الفصول المهمة للإمام شرف الدين ص ٣٩.

قال الصادق (ع): «يا مفضل إياك والذنوب، وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المعرّة من السلطان، وما ذاك إلا بذنوبه، وإنه ليصيبه السقم، وما ذاك إلا بذنوبه، وإنه ليحبس عنه الرزق وما هو إلا بذنوبه، وإنه ليشدد عليه عند الموت، وما هو إلا بذنوبه، حتى يقول من حضر: لقد غمّ بالموت. فلما رأى ما قد دخلني، قال: أتدري لِمَ ذاك يا مفضل؟ قال: قلت لا أدري جعلت فداك. قال: ذاك والله أنكم لا تؤاخذون بها في الآخرة وعُجّلت لكم في الدنيا»[1].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «قال الله تعالى: وعزتي وجلالي لا أخرج عبداً من الدنيا وأنا أريد أن أرحمه، حتى أستوفي منه كل خطيئة عملها، إما بسقم في جسده، وإما بضيق في رزقه، وإما بخوف في دنياه، فإن بقيت عليه بقية، شدّدت عليه عند الموت...»[2].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ما يزال الغم والهم بالمؤمن حتى ما يدع له ذنباً»[3].

وقال الصادق (ع): «إن المؤمن ليهوّل عليه في نومه فيغفر له ذنوبه، وإنه ليُمْتَهَنُ في بدنه فيغفر له ذنوبه»[4].

واقع الرجاء

ومما يجدر ذكره: أن الرجاء كما أسلفنا لا يجدي ولا يثمر، إلا بعد توفر الأسباب الباعثة على نجحه، وتحقيق أهدافه، وإلا كان هوساً وغروراً.

فمن الحمق أن يتنكّب المرء مناهج الطاعة، ويتعسف طرق الغواية والضلال، ثم يَمنّي نفسه بالرجاء، فذلك غرور باطل وخُداع مغرّر.

ألا ترى عظماء الخلق وصفوتهم من الأنبياء والأوصياء والأولياء كيف تفانوا في طاعة الله عز وجل، وانهمكوا في عبادته، وهم أقرب الناس إلى كرم الله

(١) البحار م ٣ ص ٣٥ عن علل الشرائع للصدوق (ره).
(٢)، (٣)، (٤) الوافي ج ٣ ص ١٧٢ عن الكافي.

وأرجاهم لرحمته.

إذاً فلا قيمة للرجاء، إلا بعد توفر وسائل الطاعة، والعمل لله تعالى، كما قال الإمام الصادق (ع): «لا يكون المؤمن مؤمناً حتى يكون خائفاً راجياً، ولا يكون خائفاً راجياً حتى يكون عاملاً لما يخاف ويرجو»[١].

وقيل له (ع): إن قوماً من مواليك يَلمّون بالمعاصي، ويقولون نرجو. فقال: «كذبوا ليسوا لنا بموال، أولئك قوم ترجّحت بهم الأماني، من رجا شيئاً عمل له، ومن خاف شيئاً هرب منه»[٢].

الحكمة في الترجّي والتخويف

يختلف الناس في طباعهم وسلوكهم اختلافاً كبيراً، فمن الحكمة في إرشادهم وتوجيههم، رعاية ما هو الأجدر بإصلاحهم من الترجيّ والتخويف فمنهم من يصلحه الرجاء، وهم:

١ ـ العصاة النادمون على ما فرّطوا في الآثام، فحاولوا التوبة إلى الله، بيد أنهم قنطوا من عفو الله وغفرانه، لفداحة جرائمهم، وكثرة سيئاتهم، فيعالج والحالة هذه قنوطهم بالرجاء بعظيم لطف الله، وسعة رحمته وغفرانه.

٢ ـ وهكذا يُداوي بالرجاء من أنهك نفسه بالعبادة وأضرّ بها.

أما الذين يصلحهم الخوف:

فهم المردة العصاة، المنغمسون في الآثام، والمغترون بالرجاء، فعلاجهم بالتخويف والزجر العنيف، بما يتهددهم من العقاب الأليم، والعذاب المُهين.

وما أحلى قول الشاعر:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

الغرور

وهو: انخداع الإنسان بخدعة شيطانية ورأي خاطيء، كمن ينفق المال

(١) الوافي ج ٣ ص ٥٨ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٥٧ عن الكافي.

المغصوب في وجوه البر والإحسان، معتقداً بنفسه الصلاح، ومؤمّلاً للأجر والثواب، وهو مغرور مخدوع بذلك.

وهكذا ينخدع الكثيرون بالغرور، وتلتبس به أعمالهم، فيعتقدون صحتها ونُجحها، ولو محصوها قليلاً، لأدركوا ما تتسم به من غرور وبطلان.

لذلك كان الغرور من أخطر أشراك الشيطان، وأمضى أسلحته، وأخوف مكائده.

وللغرور صور وألوان مختلفة باختلاف نزعات المغرورين وبواعث غرورهم، فمنهم المغتر بزخارف الدنيا ومباهجها الفاتنة، ومنهم المغتر بالعلم أو الزعامة، أو المال، أو العبادة، ونحو ذلك من صور الغرور وألوانه.

وسأعرض في البحث التالي أهم صور الغرور وأبرز أنواعه، معقباً على كل نوع منها بنصائح علاجية، تجلو غبش الغرور وتخفف من حدته.

الغرور

(أ) الاغترار بالدنيا

وأكثر من يتصف بهذا الغرور هم: ضعفاء الإيمان، والمخدوعون بمباهج الدنيا ومفاتنها، فيتناسون فناءها وزوالها، وما يعقبها من حياة أبدية خالدة، فيتذرعون إلى تبرير اغترارهم بالدنيا، وتهالكهم عليها، بزعمين فاسدين، وقياسين باطلين:

الأول: إن الدنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنقد خير من النسيئة.

الثاني: أن لذائذ الأولى ومتعها يقينية، ولذائذ الثانية ـ عندهم ـ مشكوكة، والمتيقن خير من المشكوك.

وقد أخطأوا وضلوا ضلالاً مبيناً، إذ فاتهم في زعمهم الأول أن النقد خير من النسيئة إن تعادلا في ميزان النفع، وإلا فإن رجحت النسيئة كانت أفضل وأنفع من النقد، كمن يتاجر بمبلغ عاجل من المال، ليربح أضعافه في الأجل، أو يحتمي عن شهوات ولذائذ عاجلة توخياً للصحة في الأجل المديد.

هذا إلى الفارق الكبير، والبون الشاسع، بين لذائذ الدنيا والآخرة، فللذائذ الأولى فانية، منغصة بالأكدار والهموم، والثانية خالدة هانئة.

وهكذا أخطأوا بزعمهم الثاني في شكهم وارتيابهم في الحياة الأخروية، فقد أثبتها الأنبياء والأوصياء عليهم السلام والعلماء، وكثير من الأمم البدائية الأولى، وأيقنوا بها يقيناً لا يخالجه الشك، فارتياب المغرورين بالآخرة والحالة هذه، هَوَس يستنكره الدين والعقل.

ألا ترى كيف يؤمن المريض بنجع الدواء الذي أجمع عليه الأطباء، وإن كذّبهم فصبيّ غِر أو مُغفَّل بليد.

وبعد أن عرفت فساد ذينك الزعمين وبطلانهما، فاعلم أنه لم يصور واقع الدنيا، ويعرض خدعها وأمانيها المُغرِّرة كما صورها القرآن الكريم، وعرّفها أهل البيت عليهم السلام، فإذا هي برق خلّاب وسراب خادع.

أنظر كيف يصور القرآن واقع الدنيا وغرورها، فيقول تعالى:

﴿إنما الحياة الدنيا لَعِب ولهو وزينة وتفاخر بينكم، وتكاثر في الأموال والأولاد، كمثل غيث أعجب الكفّار نباته، ثم يهيج فتراه مصفّراً، ثم يكون حُطاماً، وفي الآخرة عذاب شديد﴾ (الحديد: ٢٠).

وقال تعالى: ﴿إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء، فاختلط به نبات الأرض، مما يأكل الناس والأنعام، حتى إذا أخذت الأرض زخرفها، وازينت، وظن أهلها أنهم قادرون عليها، أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً، فجعلناها حصيداً، كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون﴾ (يونس: ٢٤).

وقال عز وجل: ﴿فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإنّ الجحيم هي المأوى، وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإنّ الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٣٧ ـ ٤١).

وقال الصادق (ع): «ما ذئبان ضاريان في غنم قد فارقها رعاؤها، أحدهما

في أولها، والآخر في آخرها، بأفسد فيها، من حُب الدنيا والشرف في دين المسلم»[١].

وقال الباقر (ع): «مَثَلُ الحريص على الدنيا، مثل دودة القز كلما ازدادت من القز على نفسها لفّاً، كان أبعد لها من الخروج، حتى تموت غمّاً»[٢].

وقال الصادق (ع): «من أصبح وأمسى، والدنيا أكبر همّه، جعل الله تعالى الفقر بين عينيه، وشتت أمره، ولم ينل من الدنيا إلا ما قُسِمَ له، ومن أصبح وأمسى والآخرة أكبر همه، جعل الله تعالى الغنى في قلبه، وجمع له أمره»[٣].

وقال أمير المؤمنين (ع): «إنما الدنيا فناء وعَناء وغِيَرَ وعِبَر:

فمن فنائها: أنك ترى الدهر موتِراً قوسه، مفوقاً نبله، لا تُخطىء سهامه، ولا يشفى جراحه، يرمي الصحيح بالسقم، والحي بالموت.

ومن عنائها: أن المرء يجمع ما لا يأكل، ويبني ما لا يسكن، ثم يخرج إلى الله لا مالاً حمل ولا بناءاً نقل.

ومن غِيَرها أنك ترى المغبوط مرحوماً، والمرحوم مغبوطاً، ليس بينهم إلا نعيم زلّ، وبؤس نزل.

ومن عِبَرها: أن المرء يشرف على أمله، فيتخطفه أجله، فلا أمَلٌ مدروك، ولا مؤمّل متروك»[٤].

وقال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: «يا هشام، إن العقلاء زهدوا في الدنيا، ورغبوا في الآخرة، لأنهم علموا أن الدنيا طالبة ومطلوبة، والآخرة طالبة ومطلوبة: فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا، حتى يستوفي منها رزقه، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة، فيأتيه الموت، فيفسد عليه دنياه وآخرته»[٥].

---

(١)، (٢) الوافي ج ٣ ص ١٥٢ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٥٤ عن الكافي.
(٤) سفينة البحار ج ١ ص ٤٦٧.
(٥) تحف العقول في وصيته لهشام بن الحكم.

القانون الخالد

تواطأ الناس بأسرهم، على ذم الدنيا وشكايتها، لمعاناة آلامها، ففرحها مكدّر بالحزن، وراحتها منغصة بالعناء، لا تصفو لأحد، ولا يهنأ بها إنسان. وبالرغم من تواطئهم على ذلك تباينوا في سلوكهم وموقفهم من الحياة:

فمنهم من تعشّقها، وهام بحبها، وتكالب على حُطامها، ما صيرهم في حالة مزرية، من التنافس والتناحر.

ومنهم من زهد فيها، وانزوى هارباً من مباهجها ومُتعها إلى الأديرة والصوامع، ما جعلهم فلولاً مبعثرةً على هامش الحياة.

وجاء الإسلام، والناس بين هذين الاتجاهين المتعاكسين، فاستطاع بحكمته البالغة، وإصلاحه الشامل، أن يشرّع نظاماً خالداً، يؤلّف بين الدين والدنيا، ويجمع بين مآرب الحياة وأشواق الروح، بأسلوب يلائم فطرة الإنسان، ويضمن له السعادة والرخاء.

فتراة تارة يحذّر عشّاق الحياة من خُدعها وغرورها، ليحررهم من أسرها واسترقاقها، كما صورته الآثار السالفة.

وأخرى يستدرج المتزمتين الهاربين من زخارف الحياة إلى لذائذها البريئة وأشواقها المرفرفة، لئلا ينقطعوا عن ركب الحياة، ويصبحوا عرضة للفاقة والهوان.

قال الصادق (ع): «ليس منّا من ترك دنياه لآخرته، ولا آخرته لدنياه»[1].

وقال العالم (ع): «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[2].

وبهذا النظام الفذ ازدهرت حضارة الإسلام، وتوغل المسلمون في مدارج الكمال، ومعارج الرقيّ الماديّ والروحي.

---

(١)، (٢) الوافي ج ١٠ ص٩ عن الفقيه.

وعلى ضوء هذا القانون الخالد نستجلي الحقائق التالية:

١ ـ التمتع بملاذ الحياة، وطيباتها المحللة، مستحسن لا ضير فيه، ما لم يكن مشتملاً على حرام أو تبذير، كما قال سبحانه: ﴿قل من حرّم زينة الله التي أخرج لعباده، والطيبات من الرزق، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾ (الأعراف: ٣٢).

وقال أمير المؤمنين (ع): «إعلموا عباد الله أن المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت، وأكلوها بأفضل ما أكلت، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبرون، ثم انقلبوا عنها بالزاد المُبلّغ والمتجر الرابح»[1].

٢ ـ إن التوفر على مقتنيات الحياة ونفائسها ورغائبها، هو كالأول مستحسن محمود، إلا ما كان مختلساً من حرام، أو صارفاً عن ذكر الله تعالى وطاعته.

أما اكتسابها إستعفافاً عن الناس، أو تذرعاً بها إلى مرضاة الله عز وجل كصلة الأرحام، وإعانة البؤساء، وإنشاء المشاريع الخيرية كالمساجد والمدارس والمستشفيات، فإنه من أفضل الطاعات وأعظم القربات، كما صرح بذلك أهل البيت عليهم السلام:

قال الصادق (ع): «لا خير فيمن لا يجمع المال من حلال، يكفّ به وجهه، ويقضي به دينه، ويصل به رحمه»[2].

وقال رجل لأبي عبدالله (ع): «والله إنا لنطلب الدنيا ونحب أن نُؤتاها.

فقال: تحب أن تصنع بها ماذا؟ قال: أعود بها على نفسي وعيالي، وأصِلُ بها، وأتصدق بها، وأحج، وأعتمر. فقال أبو عبدالله: ليس هذا طلب الدنيا، هذا طلب الآخرة»[3].

---

(١) نهج البلاغة.

(٢) (٣) الوافي ج ١٠ ص ٩ عن الكافي.

٣ ـ إن حب البقاء في الدنيا ليس مذموماً مطلقاً، وإنما يختلف بالغايات والأهداف، فمن أحبّه لغاية سامية، كالتزود من الطاعة، واستكثار الحسنات، فهو مستحسن. ومن أحبّه لغاية دنيئة، كممارسة الآثام، واقتراف الشهوات، فذلك ذميم مقيت، كما قال زين العابدين (ع): «عمّرني ما كان عمري بِذلة في طاعتك، فإذا كان عمري مرتعاً للشيطان فاقبضني إليك».

ونستخلص مما أسلفناه أنّ الدنيا المذمومة هي التي تخدع الإنسان، وتصرفه عن طاعة الله تعالى، والتأهب للحياة الأخروية.

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

مساوىء الاغترار بالدنيا

١ ـ من أبرز مساوىء الغرور أنّه يلقي حجاباً حاجزاً بين العقل وواقع الإنسان، فلا يتبينّ آنذاك نقائصه ومساويه، من جشع، وحرص، وتكالب على الحياة، مما يسبب نقصه وذمّه.

٢ ـ إن الغرور يُشقي أربابه، ويدفعهم إلى معاناة الحياة، ومصارعتها، دون اقتناع بالكفاف، أو نظر لزوالها المحتوم، مما يُظْنيهم ويُشْقيهم، كما صوره الخبر الأنف الذكر: «مثل الحريص على الدنيا مثل دودة القز، كلما ازدادت على نفسها لفّاً، كان أبعد لها من الخروج حتى تموت غماً».

٣ ـ والغرور بعد هذا وذاك، من أقوى الصوارف والملهيات عن التأهب للآخرة والتزود من الأعمال الصالحة، الموجبة للسعادة الأخروية، ونعيمها الخالد.

قال تعالى: ﴿فأما من طغى، وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى، وأمّا مَنْ خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإنّ الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٣٧ ـ ٤١).

علاج هذا الغرور

وهو كما يلي مجملاً:

١ ـ استعراض الآيات والنصوص الواردة في ذم الغرور بالدنيا وأخطاره الرهيبة.

٢ ـ إجماع الأنبياء والأوصياء والحكماء على فناء الدنيا، وخلود الآخرة، فجدير بالعاقل أن يؤثر الخالد على الفاني، ويتأهب للسعادة الأبدية والنعيم الدائم، ﴿بل تؤثرون الحياة الدنيا، والآخرة خير وأبقى، إن هذا لفي الصحف الأولى، صحف إبراهيم وموسى﴾ (الأعلى: ١٦ ـ ١٩).

٣ ـ الإفادة من المواعظ البليغة، والحكم الموجهة، والقصص الهادفة المعبرة عن ندم الطغاة والجبارين، على اغترارهم في الدنيا، وصرف أعمارهم باللهو والفسوق.

ومن أبلغ العظات وأقواها أثراً في النفس كلمة أمير المؤمنين لابنه الحسن (ع): «أحي قلبك بالموعظة، وأمته بالزهادة، وقوّه باليقين، ونوّره بالحكمة، وذلِّله بذكر الموت، وقرره بالفناء، وبصره فجائع الدنيا، وحَذِّره صولة الدهر، وفحش تقلب الليالي والأيام، واعرض عليه أخبار الماضين، وذكره بما أصاب من كان قبلك من الأولين، وسِرْ في ديارهم وآثارهم، فانظر فيما فعلوا، وعمّا انتقلوا، وأين حلّوا ونزلوا، فإنّك تجدهم قد انتقلوا عن الأحبة، وحلّوا ديار الغربة، وكأنك عن قليل قد صرت كأحدهم، فأصلح مثواك، ولا تبع آخرتك بدنياك»[1].

ومن روائع الحكم التشبيه التالي:

«فقد شبّه الحكماء الإنسان وإنهماكه في الدنيا، واغتراره بها، وغفلته عمّا وراءها، كشخص مُدْلىً في بئر، ووسطه مشدود بحبل، وفي أسفل ذلك البئر ثعبان عظيم، متوجه إليه، منتظر لسقوطه، فاتح فاه لالتقامه، وفي أعلى ذلك البئر جرذان أبيض وأسود، لا يزالان يقرضان ذلك الحبل، شيئاً فشيئاً، ولا يفتران عن قرضه آناً ما، وذلك الشخص مع رؤيته ذلك الثعبان، ومشاهدته لانقراض الحبل آناً فآناً، قد أقبل على قليل عسل، قد لُطخ به جدار ذلك البئر

---

(١) نهج البلاغة في وصيته (ع) لابنه الحسن.

وامتزج بترابه، واجتمع عليه زنابير كثيرة، وهو مشغول بلطعه، منهمك فيه، متلذذ بما أصاب منه، مخاصم لتلك الزنابير التي عليه، قد صرف جميع باله إلى ذلك، فهو غير ملتفت إلى ما فوقه وما تحته.

فالبئر هو الدنيا، والحبل هو العمر، والثعبان الفاتح فاه هو الموت، والجرذان هما الليل والنهار القارضان للأعمار، والعسل المختلط بالتراب هو لذات الدنيا الممزوجة بالكدر والآثام، والزنابير هم أبناء الدنيا المتزاحمون عليها».

ومن العبر البالغة في تصرم الحياة وإن طالت: ما روى أن نوحاً (ع) عاش ألفين وخمسمائة عام، ثم إن ملك الموت جاءه وهو في الشمس، فقال: السلام عليك. فردّ عليه نوح (ع) وقال له: ما حاجتك يا ملك الموت؟ قال: جئت لأقبض روحك. فقال له: تدعني أتحوّل من الشمس إلى الظل. فقال له: نعم. فتحول نوح (ع) ثم قال: يا ملك الموت فكأنّ ما مرّ بي في الدنيا مثل تحولي من الشمس إلى الظل!! فامض لما أمرت به. فقبض روحه (ع).

ومن عبر الطغاة والجبارين ما قاله المنصور لمّا حضرته الوفاة «بعنا الآخرة بنومة».

وردّد هارون الرشيد وهو ينتقي أكفانه عند الموت: ﴿ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه﴾ (الحاقة: ٢٨ ـ ٢٩).

وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه: كيف تجدك يا أبا مروان؟ قال: أجدني كما قال الله تعالى: ﴿ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خوّلناكم وراء ظهوركم﴾ (الأنعام: ٩٤).

ورأى زيتون الحكيم رجلاً على شاطىء البحر مهموماً محزوناً، يتلهف على الدنيا، فقال له: يا فتى ما تلهفك على الدنيا؟! لو كنت في غاية الغنى، وأنت راكب لجة البحر، وقد انكسرت بك السفينة، وأشرفت على الغرق، أما كانت غاية مطلوبك النجاة، وإن يفوتك كل ما بيدك. قال: نعم.

قال: ولو كنت ملكاً على الدنيا، وأحاط بك من يريد قتلك، أما كان مرادك النجاة من يده، ولو ذهب جميع ما تملك. قال: نعم.

قال: فأنتَ ذلك الغنيُّ الآن، وأنت ذلك الملكُ، فتسلى الرجل بكلامه.

وقال بعض العارفين لرجل من الأغنياء: كيف طلبك للدنيا؟ فقال: شديد. قال: فهل أدركت منها ما تريد؟ قال: لا. قال: هذه التي صرفت عمرك في طلبها لم تحصل منها على ما تريد فكيف التي لم تطلبها!!

ولا ريب أن تلك العظات لا تنجع إلا في القلوب السليمة، والعقول الواعية، أما الذين إسترقتهم الحياة، وطبعت على قلوبهم، فلا يجديهم أبلغ المواعظ، كما قال بعض العارفين: إذا أشرب القلبُ حبَ الدنيا لم تنجع فيه كثرة المواعظ، كما أن الجسد إذا استحكم فيه الداء، لم ينجع فيه كثرة الدواء.

(ب) غرور العلم

ومن صور الغرور ومفاتنه، الاغترار بالعلم، واتساع المعارف، مما يثير في بعض الفضلاء الزهو والتيه، والتنافس البشع على الجاه، والتهالك على الأطماع، ونحوها من الخلال المقيتة، التي لا تليق بالجهّال فضلاً عن العلماء.

وربّما أفرط بعضهم في الزهو والغرور، فَجُنَّ بجنون العظمة، والتطاول على الناس بالكبر والإزدراء.

وفات المغترين بالعلم أنّ العلم ليس غاية في نفسه، وإنّما هو وسيلة لتهذيب الإنسان وتكامله، وإسعاده في الحياتين الدنيوية والأخروية، فإذا لم يحقق العلم تلك الغايات السامية، كان جُهْداً ضائعاً، وعَناءاً مُرْهقاً، وغروراً خادعاً: ﴿مثل الذين حُمِلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً﴾ (الجمعة: ٥).

وقد أحسن الشاعر حيث يقول:

ولو أنّ أهل العلم صانوه صانهم ... ولو عَظّموه في النفوس لَعُظما
ولكن أهانوه فهان وجهّموا ... محياه بالأطماع حتى تجهما

فالعلم كالغيث ينهلّ على الأرض الطيبة، فيحيلها جناناً وارفة، تزخر بالخير والجمال، وينهلّ على الأرض السبخة فلا يجديها نفعاً.

وهكذا يفيء العلم على الكرام طيبة وبهاءاً، وعلى اللئام خبثاً ولؤماً.

وكيف يغترّ العالِم بعلمه، ولم يكن الوحيد في مضماره، فقد عرف الناس قديماً وحديثاً علماء أفذاذاً جَلّوا في ميادين العلم، وحَلقوا في آفاقه، وكانت لهم مآثرهم العلمية الخالدة.

وعلى م الاغترار بالعلم، ومسؤولية العالم خطيرة، ومؤاخذته أشدّ من الجاهل، والحجة عليه الزم، فإن لم يهتد بنور العلم، ويعمل بمقتضاه، كان العلم وبالاً عليه، وغدا قدْوة سيئة للناس.

انظر كيف يصور أهل البيت عليهم السلام جرائر العلماء المنحرفين، وأخطارهم:

فعن جعفر بن محمد عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله (ص): «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت أمتي. قيل: يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء»[1].

وقال الصادق (ع): «يُغفر للجاهل سبعون ذنباً، قبل أن يغفر للعالم ذنب واحد»[2].

وقال النبي (ص): «يطلع قوم من أهل الجنة إلى قوم من أهل النار، فيقولون: ما أدخلكم النار وقد دخلنا الجنة لفضل تأديبكم وتعليمكم؟ فيقولون: إنا كنا نأمر بالخير ولا نفعله»[3].

فجدير بالعلماء والفضلاء أن يكونوا قدوة حسنة للناس، ونموذجاً للخلق الرفيع، وان يتفادوا ما وسعهم مزالق الغرور، وخلاله المقيتة، وأن يستشعروا الآية الكريمة:

﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾ (القصص: ٨٣).

---

(١) البحار م ١ ص ٨٣ عن خصال الشيخ الصدوق.

(٢) الوافي مجلد العقل والعلم ص ٥٢ عن الكافي.

(٣) الوافي في وصيته (ص) لأبي ذر.

(ج) غرور الجاه:

ويعتبر الجاه والسلطة من أقوى دواعي الغرور، وأشد بواعثه، فترى المتسلطين يتيهون على الناس زهواً وغروراً، ويستذلون كراماتهم صلفاً وكِبراً.

وقد عاش الناس هذه المأساة في غالب العصور، وعانوا غرور المتسلطين وتحديهم، بأسى ولوعة بالغين.

وفات هؤلاء المغرورين بمفاتن السلطة والزعامة، إن الإسراف في الغرور والأنانية أمر يستنكره الإسلام ويتوعد عليه بصنوف الإنذار والوعيد، في عاجل الحياة وآجلها، كما يعرضهم لمقت الناس وغضبهم ولعنهم، ويخسرون بذلك أغلى وأخلد مآثر الحياة: حب الناس وعطفهم، وكان عليهم أن يستغلوا جاههم، ونفوذهم في استقطاب الناس، وتوفير رصيدهم الشعبي، وكسب عواطف الجماهير وودّهم.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإحسان إنسانا

وأقوى عامل على تخفيف حدة هذا الغرور، وقمع نزواته العارمة، هو التأمل والتفكر فيما ينتاب هؤلاء المغرورين من صروف الدهر، وسطوة الأقدار، وتنكّر الزمان. فصاحب السلطان كراكب الأسد، لا يدري أمَدَ غضبه وافتراسه.

وقد زخر التاريخ بصنوف العبر والعظات الدالة على ذلك:

منها: ما ذكره عبدالله بن عبدالرحمن صاحب الصلاة بالكوفة، قال: دخلت إلى أمي في يوم أضحى، فرأيت عندها عجوزاً في أطمار رثة، وذلك في سنة ١٩٠، فإذا لها لسان وبيان، فقلت لأمي: من هذه؟ قالت: خالتك عباية أم جعفر بن يحيى البرمكي. فسلمت عليها، وتحفيت بها، وقلت: أصارك الدهر إلى ما أرى؟!

فقالت: نعم يا بني، إنّا كنّا فى عوارى ارتجعها الدهر منّا. فقلت: فحدثيني ببعض شأنك.

فقالت: خذه جملة، لقد مضى عليّ أضحى، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة،

وأنا أزعم أنّ ابني عاق، وقد جئتك اليوم أطلب جلدتي شاة، اجعل إحداهما شعاراً، والأخرى دثاراً.

قال فرقفت لها، ووهبت لها دراهم، فكادت تموت فرحاً[١].

ودخل بعض الوعاظ على الرشيد، فقال: عظني، فقال له: أتراك لو منعت شربة من ماء عند عطشك، بم كنت تشتريها؟ قال: بنصف مُلْكي.

قال: أتراها لو حُبِسَتْ عند خروجها بم كنت تشتريها؟ قال: بالنصف الباقي.

قال: فلا يغرنّك مُلْكٌ قيمته شربة ماء[٢].

فجدير بالعاقل أن يدرك أن جميع ما يزهو به، ويدفعه على الغرور من مال، أو علم، أو جاه، ونفوذ، إنّما هي نِعَمٌ وألطاف إلهية أسداها المنعم الأعظم، فهي أحرى بالحمد، وأجدر بالشكر، منها بالغرور والخيلاء.

الجاه بين المدح والذم

ليس طلب الجاه مذموماً على الإطلاق، وإنما هو مختلف باختلاف الغايات والأهداف، فمن طلبه لغاية مشروعة، وهدف سام نبيل، كنصرة المظلوم، وعون الضعيف، ودفع المظالم عن نفسه أو غيره، فهو الجاه المحبب المحمود.

ومن توخاه للتسلط على الناس، والتعالي عليهم، والتحكم بهم، فذلك هو الجاه الرخيص الذميم.

وقد تلتبس الغايات أحياناً في بعض صور الجاه، كالتصدي لإمامة الجماعة، وممارسة توجيه الناس وإرشادهم، وتسنم المراكز الروحية الهامة.

فتتميز الغايات آنذاك بما يتصف به ذووها من حسن الإخلاص، وسمو الغاية، وحب الخير للناس، أو يتسمون بالأنانية، والانتهازية، وهذا من صور الغرور الخادعة، أعاذنا الله منها جميعاً.

---

(١) سفينة البحار م ٢ ص ٦٠٩.

(٢) لآلي التركاني.

(د) غرور المال

وهكذا يستثير المال كوامن الغرور، ويعكس على أربابه صوراً مقيتة من التلبيس والخداع.

فهو يفتن الأثرياء من عشاق الجاه، ويحفزّهم على السخاء والأريحية، بأموال مشوبة بالحرام، ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهم مخدوعون مغرورون.

وقد يتعطف بعضهم على البؤساء والمعوزين جهراً ويشحّ عليهم سراً، كسباً للسمعة والإطراء، وهو مغرور مفتون.

ومنهم من يمتنع عن أداء الحقوق الإلهية المحَتّمة عليه بخلاً وشحاً، مكتفياً بأداء العبادات التي لا تتطلب البذل والإنفاق، كالصلاة والصيام، زاعماً براءة ذمته بذلك، وهو مفتون مغرور، إذ يجب أداء الفرائض الإلهية مادية وعبادية، ولكل فرض أهميته في عالم العقيدة والشريعة.

من أجل ذلك كان المال من أخطر بواعث الغرور ومفاتنه.

فعن الصادق (ع) قال: «يقول ابليس: ما أعياني في ابن آدم فلن يُعيني منه واحدة من ثلاثة: أخذُ مالٍ من غير حلّه، أو مَنعه، من حقه، أو وضعه في غير وجهه»[١].

وعن أمير المؤمنين (ع) قال: «قال رسول الله (ص): «إن الدينار والدرهم أهلكا من كان قبلكم، وهما مهلكاكم»[٢].

المال بين المدح والذم

للمال محاسنه ومساوئه، ومضاره ومنافعه، فهو يُسعد ويشقي أربابه تبعاً لوسائل كسبه وغايات إنفاقه.

فمن محاسنه: أنه الوسيلة الفعالة لتحقيق وسائل العيش، ونيل مآرب

---

(١) عن خصال الصدوق (ره).

(٢) الوافي ج ٣ ص ١٥٢ عن الكافي.

الحياة، وأشواقها المادية، والسبب القوي في عزة مُلاّكه واستغنائهم عن لئام الناس، والذريعة الهامة في كسب المحامد والأمجاد، كما قال الشريف الرضي رحمه الله:

أشتر العزّ بما بيع | فما العز بغالي
بالقصار الصفر إن | شئت أو السمر الطوال
ليس بالمغبون عقلاً | من شرى عزاً بمال
إنما يُدّخر المال | لحاجات الرجال
والفتى من جعل الأموال | أثمان المعالي

كما أن المال من وسائل التزود للآخرة، وكسب السعادة الأبدية فيها.

ومن مساوىء المال: أنه باعث على التورط في الشبهات، واقتراف المحارم والآثام، كاكتسابه بوسائل غير مشروعة، أو منع الحقوق الإلهية المفروضة عليه، أو إنفاقه في مجالات الغواية والمنكرات، كما أوضحت غوائله النصوص السالفة.

وهو إلى ذلك من أقوى الصوارف والملهيات عن ذكر الله عز وجل، والتأهب للحياة الأخروية الخالدة.

﴿يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون﴾ (المنافقون: ٩).

فليس المال مذموماً إطلاقاً، وإنما يختلف باختلاف وسائله وغاياته، فإن صحت ونَبُلَتْ كان مدعاة للحمد والثناء، وإن هبطت وأسفّت كان مدعاة للذم والاستنكار.

ولما كانت النفوس مشغوفة بالمال، مولعة بجمعه واكتنازه، فحريٌ بالمؤمن الواعي المستنير، أن لا ينخدع ببريقه، ويغتر بمفاتنه، وأن يتعظ بحرمان المغرورين به، والحريصين عليه، من كسب المثوبة في الآخرة، وإفلاسهم مما زاد عن حاجاتهم وكفافهم في الدنيا، فإنهم خزّان أمناء، يكدحون ويشقون في ادخاره، ثم يخلّفونه طعمة سائغة للوارثين، فيكون عليهم الوزر ولأبنائهم المُهنّى والاغتباط.

(هـ) غرور النسب:

وقد يغتر بعضهم برفعة أنسابهم، وانحدارهم من سلالة أهل البيت (ع)، فيحسبون أنهم ناجون بزلفاهم، وإن انحرفوا عن نهجهم، وتعسفوا طرق الغواية والضلال.

وهو غرور خادع حيث أن الله تعالى يكرم المطيع ولو كان عبداً حبشياً، ويهين العاصي ولو كان سيداً قرشياً.

وما نال أهل البيت عليهم السلام تلك المآثر الخالدة ونالوا شرف العزة والكرامة عند الله عز وجل إلا باجتهادهم في طاعة الله، وتفانيهم في مرضاته.

فاغترار الأبناء بشرف آبائهم وعراقتهم، وهم منحرفون عن سيرتهم، من أحلام اليقظة ومفاتن الغرور.

أرأيت جاهلاً غدا عالماً بفضيلة آبائه؟ أو جباناً صار بطلاً بشجاعة أجداده؟ أو لئيماً عاد سخياً معطاءاً بجود أسلافه؟ كلا، ما كان الله تعالى ليساوي بين المطيع والعاصي، وبين المجاهد والوادع.

أنظر كيف يقص القرآن الكريم ضراعة نوح (ع) إلى ربه في استشفاع وليده الحبيب ونجاته من غمرات الطوفان الماحق، فلم يجده ذلك لكفر ابنه وغوايته: ﴿ونادى نوح ربه، فقال: ربِّ إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين. قال: يا نوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح، فلا تسألنِ ما ليس لك به علم، إني أعظك أن تكون من الجاهلين﴾ (هود: ٤٥ - ٤٦).

واستمع إلى سيد المرسلين (ص) كيف يُملي على أسرته الكريمة درساً خالداً في الحث على طاعة الله تعالى وتقواه، وعدم الاغترار بشرف الأنساب والأحساب، كما جاء عن أبي جعفر (ع) أنه قال: «قام رسول الله (ص) على الصفا، فقال: يا بني هاشم يا بني عبد المطلب، إني رسول الله إليكم، وإني شفيق عليكم، وإن لي عملي، ولكل رجل منكم عمله، لا تقولوا إن محمداً منّا، وسندخل مدخله، فلا والله ما أوليائي منكم، ولا من غيركم يا بني عبدالمطلب

إلا المتقون، ألا فلا أعرفكم يوم القيامة تأتون تحملون الدنيا على ظهوركم، ويأتي الناس يحملون الآخرة، ألا إني قد أعذرت إليكم، فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله تعالى فيكم»[١].

فجدير بالعاقل أن يتوقى فتنة الغرور بشرف الأنساب، وأن يسعى جاهداً في تهذيب نفسه وتوجيهها وجهة الخير والصلاح، متمثلاً قول الشاعر:

إن الفتى من يقول ها أنذا ليس الفتى من يقول كان أبي

الحسد

وهو: تمني زوال نعمة المحسود، وانتقالها للحاسد، فإن لم يتمنَّ زوالها بل تمنى نظيرها، فهو غبطة، وهي ليست ذميمة.

والحسد من أبشع الرذائل وألأم الصفات، وأسوأ الانحرافات الخلقية أثراً وشراً، فالحسود لا ينفك عن الهم والعناء، ساخطاً على قضاء الله سبحانه في رعاية عبيده، وآلائه عليهم، حانقاً على المحسود، جاهداً في كيده، فلا يستطيع ذلك، فيعود وبال حسده عليه، ويرتد كيده في نحره.

ناهيك في ذم الحسد والحساد، وخطرها البالغ، إن الله تعالى أمر بالاستعاذة من الحاسد، بعد الاستعاذة من شر ما خلق قائلاً: ﴿ومن شر حاسد إذا حسد﴾ (الفلق: ٥).

لذلك تكاثرت النصوص في ذمه والتحذير منه:

قال رسول الله (ص): «الحسد يأكل الحسنات، كما تأكل النار الحطب»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «ما رأيت ظالماً أشبه بمظلوم من الحاسد، نَفَس دائم، وقلب هائم، وحزن لازم»[٣].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٠ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٣ عن المجازات النبوية، وجاء في الكافي عن الصادق (ع) «يأكل الإيمان» بدل الحسنات.

(٣) البحار م ١٥ ج ٣ ص ١٣١ عن كنز الكراجكي.

وقال الحسن بن علي (ع): «هلاك الناس في ثلاث: الكبر، والحرص، والحسد.

فالكبر: هلاك الدين وبه لُعن إبليس.

والحرص: عدو النفس، وبه أخرج آدم من الجنة.

والحسد: رائد السوء، ومنه قتل قابيل هابيل»[١].

وقال رسول الله (ص) ذات يوم لأصحابه: «ألا إنه قد دبَّ إليكم داء الأمم من قبلكم وهو الحسد، ليس بحالق الشعر، لكنه حالق الدين، ويُنجي منه أن يكفَّ الإنسان يده، ويخزن لسانه، ولا يكون ذا غمز على أخيه المؤمن»[٢].

بواعث الحسد

للحسد أسباب وبواعث نجملها في النقاط التالية:

١ ـ خبث النفس:

فهناك شذّاذ طبعوا على الخُبث واللؤم، فنراهم يحزنون بمباهج الناس وسعادتهم، ويُسرّون بشقائهم ومآسيهم، ومن ثم يحسدونهم على ما آتاهم الله من فضله، وإن لم يكن بينهم تِرة أو عداء، وذلك لخبثهم ولؤم طباعهم.

٢ ـ العداء:

وهو أقوى بواعث الحسد، وأشدها صرامة على مكايدة المحسود واستلاب نعمته.

٣ ـ التنافس:

بين أرباب المصالح والغايات المشتركة: كتحاسد أرباب المهن المتحدة وتحاسد الأبناء في الحظوة لدى آبائهم، وتحاسد بطانة الزعماء والأمراء في الزلفى لديهم.

---

(١) عن كشف الغمة.

(٢) البحار م ١٥ ج ٣ ص ١٣١ عن مجالس الشيخ المفيد وأمالي ابن الشيخ الطوسي.

وهكذا تكثر بواعث الحسد بين فئات تجمعهم وحدة الأهداف والروابط، فلا تجد تحاسداً بين متباينين هدفاً واتجاهاً، فالتاجر يحسد نظيره التاجر دون المهندس والزارع.

٤ ـ الأنانية:

وقد يستحوذ الحسد على ذويه بدافع الأثرة والأنانية، رغبة في التفوق على الأقران، وحباً بالتفرّد والظهور.

٥ ـ الازدراء:

وقد ينجم الحسد عن ازدراء الحاسد للمحسود، مستكثراً نِعَم الله عليه، حاسداً له على ذلك.

وربما اجتمعت بواعث الحسد في شخص، فيغدو آنذاك بركاناً ينفجر حسداً وبغياً، يتحدى محسوده تحدياً سافراً مليئاً بالحنق واللؤم، لا يستطيع كتمان ذلك، مما يجعله شريراً مجرماً خطيراً.

مساوىء الحسد

يختص الحسد بين الأمراض الخُلقية بأنّه أشدّها ضرراً، وأسوأها مغبةً في دين الحاسد ودنياه.

١ ـ فمن أضراره العاجلة في دنيا الحاسد، أنه يكدّر عليه صفو الحياة ويجعله قرين الهمّ والعناء، لتبرمه بنِعَم الله على عباده، وهي عظيمة وفيرة، وذلك ما يشقيه، ويتقاضاه عللاً صحية ونفسية ماحقة.

كما يُفجعه في أنفس ذخائر الحياة: في كرامته، وسمعته، فتراه ذميماً مُحَقّراً، منبوذاً تمقته النفوس، وتنبذه الطباع.

ويفجعه كذلك في أخلاقه، فتراه لا يتحرج عن الوقيعة بمحسوده، بصنوف التهم والأكاذيب المحرّمة في شرعة الأخلاق، ولا يألو جهداً في إثارة الفتن المفرقة بينه وبين أودّائه، وذوي قرباه، نكاية به وإذلالاً له.

وأكثر الناس استهدافاً للحسد، ومعاناة لشروره وأخطاره، اللامعون

المتفوقون من أرباب العلم والفضائل، لما ينفسه الحساد عليهم من سمو المنزلة، وجلالة القدر، فيسعون جاهدين في ازدرائهم واستنقاصهم، وشنّ الحملات الظالمة عليهم.

وهذا هو سر ظلامة الفضلاء، وحرمانهم من عواطف التقدير والإعزاز، وربما طاشت سهام الحسد، فأخلفت ظن الحاسد، وعادت عليه باللوعة والأسى، وعلى المحسود بالتنويه والإكبار كما قال أبو تمام:

وإذا أراد الله نشر فضيلة طويت أتاح لها لسان حسود
لولا اشتعال النار فيما جاورت ما كان يعرف طيب عَرْف العود
لولا التخوف للعواقب لم يزل للحاسد النعمى على المحسود

ويقول الآخر:

إصبر على حسد الحسود فإنّ صبرك قاتله
فالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

٢ ـ وأما أضرار الحسد الأجلة:

فقد عرفت ما يتذرع به الحاسد من صنوف الدس والتخريب في الوقيعة بالمحسود، وهدر كرامته. وهذا ما يعرض الحاسد لسخط الله تعالى وعقابه، ويأكل حسناته كما تأكل النار الحطب.

هذا إلى تنمّر الحاسد، وسخطه على مشيئة الله سبحانه، في إغداق نعمه على عباده، وتلك جرأة صارخة تبوّئه السخط والهوان.

علاج الحسد

وإليك بعض النصائح العلاجية للحسد:

١ ـ تَرْكُ تطلع المرء إلى من فوقه سعادة ورخاءً وجاهاً، والنظر إلى من دونه في ذلك، ليستشعر عناية الله تعالى به، وآلائه عليه، فتخف بذلك نوازع الحسد وميوله الجامحة.

٢ ـ تذكّر مساوىء الحسد، وغوائله الدينية والدنيوية، وما يعانيه الحسّاد

من صنوف المكاره والأزمات.

٣ ـ مراقبة الله تعالى، والإيمان بحكمة تدبيره لعباده، والاستسلام لقضائه، متوقياً بوادره الحسد، ومقتضياته الأثيمة من ثلب المحسود والإساءة إليه، كما قال (ص): «ويُنجي منه أن يكفّ الإنسان يده، ويخزن لسانه، ولا يكون ذا غمز على أخيه المؤمن».

ولو لم يكن في نبذ الحسد إلا استهجانه، والترفع عن الاتصاف بمثالبه المقيتة، لوجب نبذه ومجافاته.

وجدير بالآباء أن لا يميزوا بين أبنائهم في شمول العناية والبر، فيبذروا في نفوسهم سموم الحسد، ودوافعه الأثيمة.

الغيبة

وهي: ذكر المؤمن المعين بما يكره، سواءً أكان ذلك في خَلْقِه، أو خُلُقه، أو مختصاته.

وليست الغيبة محصورة باللسان، بل تشمل كل ما يشعر باستنقاص الغير، قولاً أو عملاً، كتابة أو تصريحاً.

وقد عرفها الرسول الأعظم (ص) قائلاً: هل تدرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «ذكرك أخاك بما يكره».

قيل له: أرأيت إنْ كان في أخي ما أقول؟ قال: «إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهته».

وهي من أخسّ السجايا، وألأم الصفات، وأخطر الجرائم والآثام، وكفاها ذمّاً أن الله تعالى شبّه المغتاب بآكل لحم الميتة، فقال: ﴿ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ (الحجرات: ١٢).

وقال سبحانه ناهياً عنها: ﴿لا يحب الله الجهر بالسوء من القول إلا من ظُلم، وكان الله سميعاً عليماً﴾ (النساء: ١٤٨).

وهكذا جاءت النصوص المتواترة في ذمّها، والتحذير منها:

قال رسول الله (ص): «الغيبة أسرع في دين الرجل المسلم من الآكلة في جوفه»[١].

وقال الصادق (ع): «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروته، ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله عز وجل من ولايته إلى ولاية الشيطان»[٢].

وقال الصادق (ع): «لا تَغتَبْ فتُغتَبْ، ولا تَحفُرْ لأخيك حفرة، فتقع فيها، فإنك كما تَدين تُدان»[٣].

وقال الصادق (ع): «قال رسول الله (ص): «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها، ومن عيّر مؤمناً بشيء لا يموت حتى يركبه»[٤].

التصامم عن الغيبة

وجدير بالعاقل أن يترفّع عن مجاراة المغتابين، والاستماع إليهم، فإن المستمع للغيبة صنو المستغيب، وشريكه في الإثم.

ولا يعفيه من ذلك إلا أن يستنكر الغيبة بلسانه، أو يطور الحديث بحديث بريء، أو النفار من مجلس الاغتياب، فإن لم يستطع ذلك كله، فعليه الإنكار بقلبه، ليأمن جريرة المشاركة في الاغتياب.

قال بعض الحكماء: «إذا رأيت من يغتاب الناس، فاجهد جهدك أن لا يعرفك، فإن أشقى الناس به معارفوه».

وكما يجب التوقي من استماع الغيبة، كذلك يجدر حفظ غَيْبة المؤمن، والذب عن كرامته، إذا ما ذُكر بالمزريات، فعن الصادق (ع) قال: قال رسول

(١) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٧٧ عن الكافي.
(٢) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٧ عن ثواب الأعمال ومحاسن البرقي وأمالي الصدوق.
(٣) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٥ عن أمالي الصدوق.
(٤) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٨ عن ثواب الأعمال ومحاسن البرقي . .

الله (ص): «مَنْ رَدَّ عن عرض أخيه المسلم وجبت له الجنـة ألبتّة»[1].

وجدير بالذكر أن حرمة الاغتياب مختصة بمن يعتقد الحق، فـلا تسري إلى غيره من أهل الضلال.

بواعث الغيبة

للغيبة بواعث ودوافع أهمها ما يلي:

١ ـ العداء أو الحسد، فإنهما أقوى دواعي الاغتيـاب والتشهير بـالمعادي أو المحسود، نكايةً به، وتشفياً منه.

٢ ـ الهـزل، وهو بـاعث على ثلب المستغـاب، ومحاكـاتـه إثـارة للضحـك والمجون.

٣ ـ المباهاة: وذلك بذكر مساوىء الغير تشدقاً ومباهاة بالترفع عنها والبراءة منها.

٤ ـ المجـاراة: فكثيراً مـا ينـدفـع المرء عـلى الاغتياب مجاراة لـلأصـدقـاء والخلطاء اللاهين بالغيبة، وخشية من نفرتهم إذا لم يجاورهم في ذلك.

مساوىء الغيبة

من أهم الأهداف والغايات التي حققها الإسلام. وعني بها عناية كـبرى، إتحاد المسلمين وتآزرهم وتآخيهم، ليكونوا المثل الأعلى في القـوة والمنعة، وسمـو الكرامة، والمجد. وعزّز تلك الغاية السامية بمـا شرّعه من نـظم وآداب، لتكون دستـوراً خالـداً للمسلمين، فحثّهم عـلى ما ينمّي الألفـة والمودة ويـوثّق العلائق الاجتـماعية، ويحقق التـآخي والتـآزر، كحسن الخُلق، وصـدق الحـديث، وأداء الأمانة، والاهتمام بشؤون المسلمين، ورعاية مصـالحهم العامـة. ونهاهم عن كل مـا يعكّر صفـو القلوب، ويثير الأحقـاد والضغـائن المـوجبـة لتنـاكـر المسلمـين، وتقاطعهم كالكذب، والغش، والخيانة، والسخرية.

وحيث كـانت الغيبة عـاملاً خـطيراً، ومِعـولاً هدّامـاً، في تقـويض صرح

(١) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٨ عن ثواب الأعمال.

المجتمع، وإفساد علاقاته الوثيقة، فقد حرّمها الشرع الإسلامي، وعدّها من كبائر الآثام.

فمن مساوئها: أنها تبذر سموم البغض والفرقة في صفوف المسلمين، فتعكر صفو المحبة، وتفصم عرى الصداقة، وتقطع وشائج القرابة.

وذلك بأن الغيبة قد تبلغ المغتاب، وتستثير حَنَقه على المستغيب، فيثأر منه، ويبادله الذم والقدح، وطالما أثارت الفتن الخطيرة، والمآسي المحزنة.

هذا إلى مساوئها وآثامها الروحية التي أوضحتها الآثار، حيث صرحت أن الغيبة تنقل حسنات المستغيب يوم القيامة إلى المستغاب، فإن لم يكن له حسنات طرح عليه من سيئات المستغاب، كما جاء عن النبي (ص) أنه قال: «يؤتى بأحدكم يوم القيامة، فيوقف بين يدي الله تعالى، ويُدفع إليه كتابه، فلا يرى حسناته، فيقول: إلهي ليس هذا كتابي فإني لا أرى فيه طاعتي. فيقول له: إن ربك لا يضل ولا ينسى، ذهب عملك باغتياب الناس.

ثم يُؤتى بآخر ويُدفع إليه كتابه، فيرى فيه طاعات كثيرة، فيقول: إلهي ما هذا كتابي، فإني ما عملت هذه الطاعات، فيقول له: إن فلاناً اغتابك فدُفعت حسناته إليك»[1].

مسوّغات الغيبة

الغيبة المحرمة هي ما قُصد بها استنقاص المؤمن وإذلاله، فإنْ لم يُقصد بها ذلك، وتوقف عليها غرض وجيه، فلا حرمة فيها. وإليك ما ذكره العلماء من الموارد المسوّغة للغيبة:

١ ـ شكاية المتظلم لإحقاق حقه عند الحاكم، فيصح نسبة الجناية والظلم إلى الغير في هذه الحالة.

٢ ـ نُصْح المستشير في أمر ما كالتزويج والأمانة، فيحق للمستشار أن يذكر مثالب المسؤول عنه.

(١) جامع السعادات ج ٢ ص ٣٠١.

ويصح كذلك تحذير المؤمن من صحبة فاسق أو مُضلّ، بذكر مساوئهما من الفسق والضلال، صيانة له من شرهما وإضلالهما، ويصح جرح الشاهد إذا ما سُئل عنه.

٣ ـ ردّ من ادّعى نسباً مزوراً.

٤ ـ القدح في مقالة فاسدة، أو إدّعاء باطل شرعاً.

٥ ـ الشهادة على مقترفي الجرائم والمحارم.

٦ ـ ضرورة التعريف: وذلك بذكر الألقاب المقيتة، التي يتوقف عليها تعريف أصحابها، كالأعمش والأعرج ونحوهما.

٧ ـ النهي عن المنكر: وذلك بذكر مساوىء شخص عند من يستطيع إصلاحه ونهيه عنها.

٨ ـ غيبة المتجاهر بالفسق كشرب الخمر، ولعب القمار، بشرط الاقتصار على ما يتجاهر به، إذْ ليس لفاسق غيبة.

ولا بُدّ للمرء أن يستهدف في جميع تلك الموارد السالفة، الغاية النبيلة، والقصد السليم، من بواعث الغيبة، ويتجنب البواعث غير النبيلة، كالعداء والحسد ونحوهما.

علاج الغيبة

وذلك باتّباع النصائح التالية:

١ ـ تذكّر ما عَرضناه من مساوىء الغيبة، وأخطارها الجسيمة، في دنيا الإنسان وأخراه.

٢ ـ الاهتمام بتزكية النفس، وتجميلها بالخلق الكريم، وصونها عن معائب الناس ومساوئهم، بدلاً من اغتيابهم واستنقاصهم.

قيل لمحمد بن الحنفية: من أدّبك؟ قال: «أدبني ربي في نفسي، فما استحسنته من أولى الألباب والبصيرة تبعتهم به فاستعملته، وما استقبحت من الجُهال اجتنبته وتركته متنفراً، فأوصلني ذلك إلى كنوز العلم»[1].

---

(١) سفينة البحار م ١ ص ٣٢٤.

٣ ـ استبدال الغيبة بالأحاديث الممتعة، والنوادر الشيقة، والقصص الهادفة الطريفة.

٤ ـ ترويض النفس على صون اللسان، وكفّه عن بوادر الغيبة وقوارصها، وبذلك تخف نوازع الغيبة وبواعثها العارمة.

كفّارة الغيبة

وسبيلها بعد الندم على اقترافها، والتوبة من آثامها، التودد إلى المستغاب، واستبراء الذمة منه، فإن صفح وعفى، وإلا كان التودد إليه، والاعتذار منه، مكافئاً لسيئة الغيبة.

هذا إذا كان المستغاب حيّاً، ولم يثر الاستيهاب منه غضبه وحقده، فإن خيف ذلك، أو كان ميتاً أو غائباً، فاللازم ـ والحالة هذه ـ الأستغفار له، تكفيراً عن اغتيابه، فعن أبي عبدالله (ع) قال: «سُئل النبي (ص) ما كفارة الاغتياب؟ قال: تستغفر الله لمن اغتبته كلّما ذكرته»[١].

قوله (ص): «كلما ذكرته» أي كلما ذكرت المستغاب بالغيبة.

البهتـــان

وعلى ذكر الغيبة يحسن الإشارة إلى البهتان: ـ وهو اتّهام المؤمن، والتجني عليه، بما لم يفعله، وهو أشد إثماً وأعظم جرماً من الغيبة، كما قال الله عز وجل: ﴿ومن يكسب خطيئة أو إثماً، ثم يَرْمِ به بريئاً، فقد احتمل بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (النساء: ١١٢).

وقال رسول الله (ص): «من بهت مؤمناً أو مؤمنة، أو قال فيه ما ليس فيه، أقامه الله تعالى يوم القيامة على تلٍ من نار، حتى يخرج مما قاله فيه»[٢].

---

(١) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٤ عن الكافي.
(٢) سفينة البحار م ١ ص ١١٠ عن عيون أخبار الرضا (ع).

النميمـــــة

وهي: نقـل الأحاديث التي يكـره الناس إفشـاؤها ونقلهـا من شخص إلى آخر، نكاية بالمحكي عنه ووقيعة به.

والنميمة من أبشع الجرائم الخُلُقية، وأخـطرها في حيـاة الفرد والمجتمـع، والنمّام ألأم الناس وأخبثهم، لاتصافه بالغيبة، والغـدر، والنفاق، والإفسـاد بين الناس، والتفريق بين الأحباء.

لذلك جاء ذمّه، والتنديد به في الآيات والأخبار:

قال تبارك وتعالى: ﴿ولا تُطِعْ كل حلّاف مهين، همّاز مشّـاء بنميم، منّاع للخير معتد أثيم، عتّل بعد ذلك زنيم﴾ (القلم: ١٠ ـ ١٣).

والـزنيم هو الـدعيّ، فظهـر من الآيـة الكـريمـة، أن النميمـة من خـلال الأدعياء، وسجايا اللقطاء.

وقال سبحانه: ﴿ويل لكل هُمَزةٍ لُمَزة﴾ فالهُمزَة النمّام واللمزة المغتاب.

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ألا أنبئكم بشراركم. قالوا: بلى يا رسول الله. قال: المشّاؤن بالنميمة، المفرقون بين الأحبّة، الباغـون للبراء العيب»[1].

وقال الباقر (ع): «محرمة الجنة على العيّابين المشائين بالنميمة»[2].

وقال الصادق (ع) للمنصور: «لا تقبل في ذي رحمك، وأهل الـرعايـة من أهل بيتك، قول من حرّم الله عليه الجنة، وجعل مأواه النار، فإن النـمام شاهـد زور، وشريك إبليس في الإغراء بين الناس، فقد قال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على مـا فعلتم نادمين﴾ (الحجرات: ٦)[3].

---

(١)، (٢) الوافي ج ٣ ص ١٦٤ عن الكافي.
(٣) البحار كتاب العشرة ص ١٩٠ عن أمالي الصدوق.

بواعث النميمة

للنميمة باعثان:

١ ـ هتك المحكّي عنه، والوقيعة به.

٢ ـ التودد والتزلف للمحكّي له بنم الأحاديث إليه.

مساوىء النميمة

تجمع النميمة بين رذيلتين خطيرتين: الغيبة والنَم، فكل نميمة غيبة، وليست كل غيبة نميمة، فمساوئها كالغيبة، بل أنكى منها وأشدّ، لاشتمالها على إذاعة الأسرار، وهتك المحكّي عنه، والوقيعة فيه، وقد تسول سفك الدماء، واستباحة الأموال، وانتهاك صنوف الحرمات، وهدر الكرامات.

كيف تعامل النّمام

وحيث كان النّمام من أخطر المفسدين، وأشدهم إساءة وشراً للناس، فلزم الحذر منه، والتوقي من كيده وإفساده، وذلك باتّباع النصائح الآتية:

١ ـ أنْ يكذب النمام، لفسقه وعدم وثاقته، كما قال تعالى: ﴿إنْ جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾ (الحجرات: ٦).

٢ ـ أن لا يظن بأخيه المؤمن سوءاً، بمجرد النمّ عليه، لقوله تعالى: ﴿اجتنبوا كثيراً من الظن إنّ بعض الظن إثم﴾ (الحجرات: ١٢).

٣ ـ أن لا تبعثه النميمة على التجسس والتحقق عن واقع النـّمام، لقوله تعالى: ﴿ولا تجسسوا﴾ (الحجرات: ١٢).

٤ ـ أن لا ينمّ على النّمام بحكاية نميمته، فيكون نماماً ومغتاباً، في آن واحد.

وقد روي عن أمير المؤمنين (ع): «أن رجلاً أتاه يسعى إليه برجل. فقال: يا هذا نحن نسأل عما قلت، فإن كنت صادقاً مقتناك، وإن كنت كاذباً عاقبناك،

وإن شئت أن نقيلك أقلناك، قال: أقلني يا أمير المؤمنين»[١].

وعن محمد بن الفضيل عن أبي الحسن موسى (ع) قال: «قلت له: جعلت فداك، الرجل من إخوتي يبلغني عنه الشيء الذي أكره له، فأسأله عنه فينكر ذلك، وقد أخبرني عنه قوم ثقات. فقال لي: يا محمد كَذِّبْ سمعك وبصرك عن أخيك، فإنْ شهد عندك خمسون قسامة، وقال لك قولاً فصدّقه وكذّبهم، ولا تذيعن عليه شيئاً تشينه به، وتهدم به مروته، فتكون من الذين قال الله عز وجل: ﴿إنّ الذين يحبون أنْ تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ (النور: ١٩)[٢].

السعاية

ومن متمات بحث النميمة (السعاية): وهي أقسى صور النميمة، وأنكاها جريرة وإثماً، إذ تستهدف دمار المسعى به وهلاكه بالنمّ عليه، والسعاية فيه لدى المرهوبين، من ذوي السلطة والسطوة.

وأكثر ضحايا السعاية هم المرموقون من العظماء والأعلام، المحسودون على أمجادهم وفضائلهم، مما يُحفّز حاسديهم على إذلالهم، والنكاية بهم، فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلاً، فيكيدونهم بلؤم السعاية، إرضاءاً لحسدهم وخبثهم، بيد أنه قد يبطل كيد السعاة، وتُخفق سعايتهم، فتعود عليهم بالخِزْي والعقاب، وعلى المسعي به بالتبجيل والإعزاز.

لذلك كان الساعي من ألأم الناس، وأخطرهم جناية وشراً، كما جاء عن الصادق عن آبائه (ع) عن النبي (ص) قال: «شر الناس المثلث؟ قيل: يا رسول الله وما المثلث؟ قال: الذي يسعى بأخيه إلى السلطان، فيهلك نفسه، ويهلك أخاه، ويهلك السلطان»[٣].

---

(١) سفينة البحار م ٢ ص ٦١٣.

(٢) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٨٨ عن ثواب الأعمال للصدوق.

(٣) البحار م ١٥ كتاب العشرة ص ١٩١ عن كتاب الإمامة والتبصرة.

الفحش والسب والقذف

الفحش هو: التعبير عمّا يقبح التصريح به، كألفاظ الوقاع، وآلاته مما يتلفظ به السفهاء، ويتحاشاه النبلاء، ويعبرون عنها بالكناية والرمز كاللمس والمس، كناية عن الجماع.

وهكذا يكنّي الأدباء عن ألفاظ ومفاهيم يتفادون التصريح بها لباقة وأدباً، كالكناية عن الزوجة بالعائلة وأم الأولاد، وعن التبول والتغوط بقضاء الحاجة، والرمز إلى البرص والقرع بالعارض مثلاً، إذ التصريح بتلك الألفاظ والمفاهيم مُسْتَهْجَن عند العقلاء والعارفين.

وأما السب فهو: الشتم، نحو «يا كلب، يا خنزير، يا حمار، يا خائن» وأمثاله من مصاديق الإهانة والتحقير.

وأما القذف: نحو يا منكوح، أو يا ابن الزانية، أو يا زوج الزانية، أو يا أخت الزانية.

وهذه الخصال الثلاث من أبشع مساوىء اللسان، وغوائله الخطيرة، التي استنكرها الشرع والعقل، وحذّرت منها الآثار والنصوص.

أما الفحش: فقد قال رسول الله (ص) في ذمّه: «إنّ الله حرّم الجنة على كل فحّاش بذيء، قليل الحياء، لا يُبالي ما قال ولا ما قيل له، فإنك إن فتشته لم تجده إلا لغية، أو شرك شيطان فقيل يا رسول الله وفي الناس شرك شيطان؟! فقال رسول الله (ص): أما تقرأ قول الله تعالى: ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ (الإسراء: ٦٤)[1].

المراد بمشاركة الشيطان للناس في الأموال دفعهم على كسبها بالوسائل المحرمة، وإنفاقها في مجالات الغواية والآثام. وأما مشاركته في الأولاد: فبمشاركته الآباء في حال الوقاع إذا لم يسموا الله تعالى عنده، وولد غية أي ولد زنا.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٦٠ عن الكافي.

وعن أبي عبدالله (ع) قال: «قال رسول الله (ص): إن من شرار عباد الله من تُكره مجالسته لفحشه»[١].

وقال الصادق (ع): «من خاف الناس لسانه فهو في النار»[٢].

وقال (ع) لنفر من الشيعة: «معاشر الشيعة كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حُسْناً، واحفظوا ألسنتكم، وكفّوها عن الفضول وقبيح القول»[٣].

وأما السب: فعن أبي جعفر (ع) قال: «قال رسول الله (ص): سَبَابُ المؤمن فُسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه»[٤].

وعن أبي الحسن موسى (ع) في رجلين يتسابان فقال: «البادىء منهما أظلم، ووزره ووزر صاحبه عليه، ما لم يتعدّ المظلوم»[٥].

وأما القذف: فقد قال الباقر (ع): «ما من إنسان يطعن في مؤمن، إلا مات بشر ميتة، وكان قمنا أن لا يرجع إلى خير»[٦].

وكان للإمام الصادق (ع) صديق لا يكاد يفارقه إذا ذهب مكاناً، فبينما هو يمشي معه في الحذائين، ومعه غلام سِنْدِي يمشي خلفهما، إذ التفت الرجل يريد غلامه ثلاث مرات فلم يره، فلما نظر في الرابعة قال: يابن الفاعلة أين كنت؟!

قال الراوي: فرفع الصادق يده فصلت بها جبهة نفسه، ثم قال: سبحان الله تقذف أمه!! قد كنت أريتَني أن لك ورعاً، فإذا ليس لك ورع. فقال: جعلت فداك إن أمه سندية مشركة. فقال: أما علمت أن لكل أمة نكاحاً، تنح عني.

قال الراوي: فما رأيته يمشي معه، حتى فرّق بينهما الموت»[٧].

---

(١)، (٢) الوافي ج ٣ ص ١٦٠ عن الكافي.
(٣) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٩٢ عن أمالي الشيخ الصدوق وأمالي ابن الشيخ الطوسي.
(٤) الوافي ج ٣ ص ١٦٠ عن الكافي والفقيه.
(٥)، (٦) الوافي ج ٣ ص ١٦٠ عن الكافي.
(٧) الوافي ج ٣ ص ١٦١ عن الكافي.

بواعث البذاء

من الواضح أن تلك المهاترات والقوارص، تنشأ غالباً عن العداء، أو الحسد، أو الغضب، وسوء الخُلق، وكثيراً ما تنشأ عن فساد التربية، وسوء الأدب، باعتياد البذاء وعدم التحرج من آثامه ومساوئه.

مساوىء المهاترات

لا ريب أن لتلك المهاترات من الفحش، والسب، والقذف، أضراراً خطيرة وآثاماً فادحة:

فمن مساوئها: أنها تجرد الإنسان من خصائص الإنسانية المهذبة، وأخلاقها الكريمة، وتسمه بالسفالة والوحشية.

ومنها: أنها داعية العداء والبغضاء، وإفساد العلاقات الاجتماعية، وإيجابها المقت والمجافاة من أفراد المجتمع.

ومنها: أنها تعرض ذويها لسخط الله تعالى وعقابه الأليم، كما صورته النصوص السالفة.

لذلك جاء التحريض على رعاية اللسان، وصونه عن قوارص البذاء.

قال أمير المؤمنين (ع): «اللسان سبع إنْ خُلي عنه عقر».

وستأتي النصوص المشعرة بذلك في بحث الكلم الطيب.

السُخرية

وهي: محاكاة أقوال الناس، أو أفعالهم، أو صفاتهم على سبيل استنقاصهم، والضحك عليهم، بألوان المحاكاة القولية والفعلية.

وقد حرّمها الشرع لإيجابها العداء، وإثارة البغضاء، وإفساد العلاقات الوديّة بين أفراد المسلمين.

وكيف يجرأ المرء على السخرية بالمؤمن؟! واستنقاصه، وإعابته، وكل فرد سوى المعصوم، لا يخلو من معائب ونقائص، ولا يأمن أن تجعله عوادي الزمن

يوماً ما هدفاً للسخرية والإزدراء.

لذلك ندر القرآن الكريم بالسخرية وحذّر منها:

فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ (الحجرات: ١١).

وقال تعالى: ﴿إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون، وإذا مروا بهم يتغامزون، وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين، وإذا رأوهم قالوا إنّ هؤلاء لضالون﴾ (المطففين: ٢٩ - ٣٢).

وقال الصادق (ع): «من روى على مؤمن رواية يريد بها شينه، وهدم مروّته، ليسقط من أعين الناس، أخرجه الله تعالى من ولايته إلى ولاية الشيطان، فلا يقبله الشيطان»[1].

وعنه (ع) قال: «قال رسول الله (ص): «لا تطلبوا عثرات المؤمنين، فإنه من تتبع عثرات المؤمنين تَتبّع الله عثراته، ومن تتبع الله عثراته يفضحه ولو في جوف بيته»[2].

فجدير بالعاقل أن ينبذ السخرية تحرجاً من آثامها وتوقياً من غوائلها، وأن يقدّر الناس على حسب إيمانهم وصلاحهم، وحسن طويتهم غاضاً عن نقائصهم وعيوبهم، كما جاء في الخبر: «إن الله تعالى أخفى أولياءه في عباده، فلا تستصغرن عبداً من عباد الله، فربما كان وليّه وأنت لا تعلم».

الكَــلِم الطيب

من استقرأ أحداث المشاكل الاجتماعية، والأزمات المعكّرة لصفو المجتمع، علم أن منشأها في الأغلب بوادر اللسان، وتبادل المهاترات الباعثة على توتر العلائق الاجتماعية، وإثارة الضغائن والأحقاد بين أفراد المجتمع.

---

(١)، (٢) الوافي ج ٣ ص ١٦٣ عن الكافي.

من أجل ذلك كان صون اللسان عن تلك القوارص والمباذل، وتعويده على الكلم الطيب، والحديث المهذّب النبيل، ضرورة حازمة يفرضها أدب الكلام وتقتضيها مصلحة الفرد والمجتمع.

فطيب الحديث، وحسن المقال، من سمات النبل والكمال، ودواعي التقدير والإعزاز، وعوامل الظفر والنجاح.

وقد دعت الشريعة الإسلامية إلى التحلي بأدب الحديث، وطيب القول، بصنوف الآيات والأخبار، وركّزت على ذلك تركيزاً متواصلاً إشاعة للسلام الاجتماعي، وتعزيزاً لأواصر المجتمع.

قال تعالى: ﴿وقل لعبادي يقولوا التي هي أحسن، إن الشيطان ينزغ بينهم، إن الشيطان كان للإنسان عدواً مبيناً﴾ (الإسراء: ٥٣).

وقال سبحانه: ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ (البقرة: ٨٣).

وقال عز وجل: ﴿ولا تستوي الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾ (فصلت: ٣٤).

وقال تعالى: ﴿واغضض من صوتك إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾ (لقمان: ١٩).

وقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم، ويغفر لكم ذنوبكم﴾ (الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١).

وقال رجل لأبي الحسن (ع): «أوصني. فقال: «احفظ لسانك تعزّ، ولا تمكّن الناس من قيادك فتذل رقبتك»[1].

وجاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله أوصني. قال: «احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك. قال: يا رسول الله أوصني. قال: احفظ لسانك، ويحك وهل يكبّ الناس على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم!!»[2].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٨٤ عن الكافي.

(٢) الوافي ج ٣ ص ٨٥ عن الكافي.

وقال الصادق (ع) لعبّاد بن كثير البصري الصوفي «ويحك يا عبّاد، غرّك أنْ عنّ بطنك وفرجك، إنّ الله تعالى يقول في كتابه: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولاً سديداً يصلح لكم أعمالكم﴾ (الأحزاب: ٧٠ - ٧١). إنه لا يتقبل الله منك شيئاً حتى تقول قولاً عدلاً»[1].

وقال علي بن الحسين (ع): «القول الحسن يثري المال، وينمّي الرزق، وينسىء في الأجل، ويحبب إلى الأهل، ويدخل الجنة»[2].

ويُنسب للصادق (ع) هذا البيت:

عوّد لسانك قول الخير تحظ به ... إن اللسان لما عوّدت معتاد

وعن موسى بن جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «رحم الله عبداً قال خيراً فغنم، أو سكت عن سوء فسلم»[3].

ونستجلي من تلك النصوص الموجهة ضرورة التمسك بأدب الحديث، وصون اللسان عن البذاء، وتعويده على الكلم الطيب، والقول الحسن.

فللكلام العفيف النبيل حلاوته ووقعه في نفوس الأصدقاء والأعداء معاً، ففي الأصدقاء ينمّي الحب، ويستديم الودّ، ويمنع نزغ الشيطان، في إفساد علائق الصداقة والمودة.

وفي الأعداء يلطّف مشاعر العداء، ويخفف من إساءتهم وكيدهم.

لذلك نجد العظماء يرتاضون على ضبط ألسنتهم، وصيانتها من العثرات والفلتات.

فقد قيل أنّه اجتمع أربعة ملوك فتكلموا:

فقال ملك الفرس: ما ندمت على ما لم أقل مرة، وندمت على ما قلت مراراً.

---

(١) الوافي ج٣ ص٨٥ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٩٢ عن الخصال وآمالي الصدوق.

(٣) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٨٨ عن كتاب الإمامة والتبصرة.

وقال قيصر: أنا على رد ما لم أقل أقدر مني على رد ما قلت.

وقال ملك الصين: ما لم أتكلم بكلمة ملكتها، فإذا تكلمت بها ملكتني.

وقال ملك الهند: العجب ممن يتكلم بكلمة إن رُفعت ضرت، وإن لم تُرفع لم تنفع[1].

وليس شيء أدل على غباء الإنسان، وحماقته، من الثرثرة، وفضول القول، وبذاءة اللسان.

فقد مرّ أمير المؤمنين برجل يتكلم بفضول الكلام، فوقف عليه وقال: «يا هذا إنك تملي على حافظيك كتاباً إلى ربك، فتكلم بما يعنيك ودع ما لا يعنيك»[2].

وقال (ع): «من كثر كلامه كثر خطأه، ومن كثر خطأه قلّ حياؤه، ومن قلّ حياؤه قلّ ورعه، ومن قلّ ورعه مات قلبه، ومن مات قلبه دخل النار»[3].

وعن سليمان بن مهران قال: «دخلت على الصادق (ع) وعنده نفر من الشيعة، فسمعته وهو يقول: معاشر الشيعة كونوا لنا زيناً، ولا تكونوا علينا شيناً، قولوا للناس حسناً، واحفظوا ألسنتكم، وكفّوها عن الفضول وقبيح القول»[4].

وتوقياً من بوادر اللسان ومآسيه الخطيرة، فقد حثت النصوص على الصمت، وعفة اللسان، ليأمن المرء كبوته وعثراته المدمّرة.

قال الصادق (ع): «الصمت كنز وافر، وزين الحليم، وستر الجاهل»[5].

وعن أبي جعفر (ع) قال: «كان أبو ذر يقول: يا مبتغي العلم إن هذا

---

(١) مجاني الأدب.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٨٥ عن الفقيه.
(٣) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٨٧ عن النهج.
(٤) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٩٢ أمالي الصدوق.
(٥) الوافي ج ٣ ص ٨٥ عن الفقيه.

اللسان مفتاح خير، ومفتاح شر، فاختم على لسانك، كما تختم على ذهبك ووَرِقك»[1].

ونُقل أنه اجتمع قس بن ساعدة وأكثم بن صيفي، فقال أحدهما لصاحبه: كم وجدت في ابن آدم من العيوب؟ فقال: هي أكثر من أن تحصر، وقد وجدت خصلة إن استعملها الإنسان سترت العيوب كلها، قال: ما هي؟ قال: حفظ اللسان.

غوائل الذنوب

إنّ بين الأمراض الصحية التي يعانيها الإنسان، وبين الذنوب التي يقترفها شبه قوي في نشأتها، وسوء مغبتها عليه.

فكما تنشأ أغلب الأمراض عن مخالفة الدساتير الصحية التي وضعها الأطباء، وقاية وعلاجاً للأبدان، كذلك تنشأ الذنوب عن مخالفة القوانين الإلهية، والنظم السماوية، التي شرعها الله تعالى لإصلاح البشر وإسعادهم.

وكما يختص كل مرض بأضرار خاصة، وآثار سيئة، تنعكس على المريض في صور من الاختلاطات والمضاعفات المَرَضيّة، كذلك الذنوب فإن لكل نوع منها مغبة سيئة، وضرراً فادحاً، وآثاراً خطيرة، تسبب للإنسان ألوان المآسي والشقاء.

ولئن اشتركت الأمراض والذنوب في الإساءة والأذى، فإن الذنوب أشدّ نكايةً، وأسوأ أثراً من الأمراض، لسهولة معالجة الأجسام، وصعوبة مباشرة النفوس.

لذلك كانت الذنوب سموماً مهلكة، وجراثيم فاتكة، تعيث في الإنسان فساداً، وتعرضه لصنوف الأخطار والمهالك.

أنظر كيف يعرض القرآن الكريم صوراً رهيبة عن غوائل الذنوب، وأخطارها الماحقة في سلسلة من آياته الكريمة:

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٨٥ عن الكافي.

قال تعالى: ﴿وإذا أردنا أن نُهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمّرناها تدميراً﴾ (الإسراء: ١٦).

وقال تعالى: ﴿ألم يروا كم أهلكنا من قبلهم من قَرْنٍ مكّناهم في الأرض ما لم نمكّن لكم، وأرسلنا السماء عليهم مدراراً، وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم، فأهلكناهم وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين﴾ (الأنعام: ٦).

وقال تعالى: ﴿ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾ (الأعراف: ٩٦).

وقال تعالى: ﴿ذلك بأن الله لم يكن مغيّراً نعمة أنعمها على قوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإن الله سميع عليم﴾ (الأنفال: ٥٣).

وقال تعالى: ﴿وما أصابكم من مصيبة، فبما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير﴾ (الشورى: ٣٠).

وقال تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلّهم يرجعون﴾ (الروم: ٤١).

وهكذا جاءت أحاديث أهل البيت عليهم السلام مُحَذِّرةً غوائل الذنوب، ومآسيها العامة، وأوضحت أنّ ما يعانيه الفرد والمجتمع، من ضروب الأزمات، والمحن، كشيوع المظالم، وانتشار الأمراض، وشح الأرزاق، كل ذلك ناشىء عن مقارفة الذنوب والآثام، وإليك طرفاً منها:

عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): عجبت لمن يحتمي من الطعام مخافة الداء، كيف لا يحتمي من الذنوب مخافة النار؟!!»[1].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله (ص): يقول الله تبارك وتعالى: يابن آدم ما تنصفني، أتحبب إليك بالنعم، وتتمقت إليّ بالمعاصي، خيري عليك مُنْزَل، وشرّك إليّ صاعد، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كل يوم وليلة بعمل قبيح، يابن آدم لو سمعت وصفك من غيرك،

(١) البحار م ١٥ ج ٣ ص ١٥٥ عن أمالي الصدوق.

وأنت لا تعلم من الموصوف، لسارعت إلى مقته»[١].

وقال الصادق (ع): «إذا أذنب الرجل خرج في قلبه نكتة سوداء، فإن تاب امحت، وإن زاد زادت، حتى تغلت على قلبه فلا يُفلح بعدها أبداً»[٢].

وقال الباقر (ع): «إن العبد يسأل الله الحاجة، فيكون من شأنه قضاؤها إلى أجل قريب أو إلى وقت بطيء، فيذنب العبد ذنباً، فيقول الله تبارك وتعالى للملك: لا تقضي حاجته، واحرمه إياها، فإنه تعرّض لسخطي، واستوجب الحرمان مني»[٣].

وقال الصادق (ع): «كان أبي (ع) يقول: إن الله قضى قضاءاً حتماً ألا يُنعم على العبد بنعمة فيسلبها إياه، حتى يحدث العبد ذنباً يستحق بذلك النقمة»[٤].

وقال الرضا (ع): «كلّما أحدث العباد من الذنوب ما لم يكونوا يعلمون، أحدث الله لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[٥].

وقال رسول الله (ص): «إذا غضب الله عز وجل على أمّة، ولم ينزل بها العذاب، غلت أسعارها، وقصرت أعمارها، ولم يربح تجارها، ولم تزك ثمارها، ولم تغزر أنهارها، وحُبس عنها أمطارها، وسلّط عليها شرارها»[٦].

وقال الباقر (ع): «وجدنا في كتاب رسول الله (ص): إذا ظهر الزنا من بعدي كثر موت الفجأة، وإذا طفف المكيال والميزان، أخذهم الله تعالى بالسنين والنقص، وإذا منعوا الزكاة، منعت الأرض بركتها من الزرع والثمار والمعادن كلها، وإذا جاروا في الأحكام، تعاونوا على الظلم والعدوان، وإذا نقضوا العهد سلّط الله عليهم عدوهم، وإذا قطعوا الأرحام جعلت الأموال في أيدي الأشرار، وإذا لم يأمروا بالمعروف، ولم ينهوا عن المنكر، ولم يتبعوا الأخيار من أهل بيتي،

---

(١) البحار م ١٥ ج ٣ ص ١٥٦ عن عيون أخبار الرضا للصدوق.

(٢)، (٣) الوافي ج ٣ ص ١٦٧ عن الكافي.

(٤) الوافي ج ٣ ص ١٦٧ عن الكافي.

(٥) الوافي ج ٣ ص ١٦٨ عن الكافي.

(٦) الوافي ج ٣ ص ١٧٣ عن التهذيب والفقيه.

سلّط الله عليهم شرارهم، فيدعو أخيارهم فلا يستجاب لهم»[١].

وعن المفضل قال: قال الصادق (ع): «يا مفضل إياك والذنوب، وحذّرها شيعتنا، فوالله ما هي إلى أحد أسرع منها إليكم، إن أحدكم لتصيبه المَعَرّة من السلطان، وما ذاك إلا بذنوبه، وإنه ليصيبه السقم وما ذاك إلا بذنوبه، وإنه ليحبس عنه الرزق وما هو إلا بذنوبه، وإنه ليشدد عليه عند الموت وما هو إلا بذنوبه، حتى يقول من حضر: لقد غُمّ بالموت.

فلما رأى ما قد دخلني، قال: أتدري لم ذاك يا مفضل؟ قلت: لا أدري جعلت فداك. قال: ذاك والله أنكم لا تؤاخذون بها في الآخرة، وعُجّلت لكم في الدنيا»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «توقوا الذنوب، فما من بلية، ولا نقص رزق، إلا بذنب، حتى الخدش، والكبوة، والمصيبة، قال الله عز وجل: ﴿وما أصابكم من مصيبة، فبما كسبت أيديكم، ويعفو عن كثير﴾[٣].

وربما لبّس الشيطان عن بعض الأغراء، بأن الذنوب لو كانت ماحقة مدمّرة، لأشقت المنهمكين عليها، السادرين في اقترافها، وهم رغم ذلك في أرغد عيش وأسعد حياة.

وخفي عليهم أن الله عز وجل لا يعجزه الدرك، ولا يخاف الفوت، وإنما يمهل العصاة، ويؤخر عقابهم، رعاية لمصالحهم، عسى أن يثوبوا إلى الطاعة والرشد، أو يمهلهم إشفاقاً على الأبرياء والضعفاء ممن تضرهم معاجلة المذنبين وهم براء من الذنوب.

أو يصاير المجرمين استدراجاً لهم، ليزدادوا طغياناً وإثماً، فيأخذهم بالعقاب الصارم، والعذاب الأليم، كما صرحت بذلك الآيات والروايات.

قال الله تعالى: ﴿ولا يحسبنَّ الذين كفروا إنما نملي لهم خير لأنفسهم، إنما

(١) الوافي ج ٣ ص ١٧٣ عن الكافي.
(٢) البحار عن علل الشرائع.
(٣) البحار عن الخصال.

نملي لهم ليزدادوا إثماً، ولهم عذاب مهين﴾ (آل عمران: ١٧٨).

وقال سبحانه: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا، ما ترك على ظهرها من دابة ولكِنْ يؤخرهم إلى أجل مسمى﴾ (فاطر: ٤٥).

وقال الصادق (ع): «إذا أراد الله بعبد خيراً، فأذنب ذنباً، أتبعه بنقمة: ويذكّره الاستغفار، وإذا أراد بعبد شراً، فأذنب ذنباً، أتبعه بنعمة، لينسيه الإستغفار، ويتمادى بها، وهو قول الله تعالى: ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ (القلم: ٤٤) بالنعم عند المعاصي»[١].

وقال الإمام موسى بن جعفر عليهما السلام: «إنّ لله عز وجل في كل يوم وليلة منادياً ينادي: مهلاً مهلاً، عباد الله عن معاصي الله، فلولا بهائم رتّع، وصبية رضّع، وشيوخ ركّع، لصبّ عليكم العذاب صبّاً، ترضّون به رضّاً»[٢].

وقد يختلج في الذهن أن الأنبياء والأوصياء معصومون من اقتراف الذنوب والآثام، فكيف يؤاخذون بها، ويعانون صنوف المحن والأرزاء؟.

وتوجيه ذلك: أنّ الذنوب تختلف، وتتفاوت باختلاف الأشخاص، ومبلغ إيمانهم، وأبعاد طاعتهم وعبوديتهم لله عز وجل.

فربّ متعة بريئة، يتعاطاها فردان: يحسبها الأول طيبة مباحة، ويحسبها الثاني جريرة وذنباً، حيث ألهته عمّا يتعشقه من ذكر الله عز وجل وعبادته.

وحيث كان الأنبياء عليهم السلام هم المثل الأعلى في الإيمان بالله، والتفاني في طاعته، والتوله بعبادته، اعتُبر ترك الأولى منهم ذنباً وتقصيراً، كما قال: «حسنات الأبرار سيئات المقربين».

هذا إلى أنّ معاناة المحن لا تنجم عن اقتراف الآثام والذنوب فحسب، فقد تكون كذلك.

وقد تكون المحن والارزاء وسيلة لاستجلاء صبر الممتحن، وجَلَده على

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٧٣ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٦٨ عن الكافي.

طاعة الله، ونافذ قَدَرِه ومشيئته، وقد تكون وسيلة لمضاعفة أجر المبتلى، وجزيل ثوابه، بصبره على تلك المعاناة، وتفويض أمره إلى الله عز وجل.

التوبـــة

لقد عرفتَ في البحث السابق غوائل الذنوب، وأضرارها المادية والروحية، والتشابه بينها وبين الأمراض الجسمية في فداحتها، وسوء آثارها على الإنسان.

فكما تجدُر المسارعة إلى علاج الجسم من جراثيم الأمراض قبل استفحالها، وضعف الجسم عن مكافحتها، كذلك تجب المبادرة إلى تصفية النفس، وتطهيرها من أوضار الذنوب، ودنس الآثام، قبل تفاقم غوائلها، وعسر تداركها.

وكما تعالج الأمراض الصحية بتجرع العقاقير الكريهة، والاحتماء ع المطاعم الشهية الضارة، كذلك تعالج الذنوب بمعاناة التوبة والإنابة، والإقلاع عن الشهوات العارمة، والأهواء الجامحة، ليأمن التائب أخطارها ومآسيها الدنيوية والأخروية.

حقيقة التوبة

لا تتحقق التوبة الصادقة النصوح إلا بعد تبلورها، واجتيازها أطواراً ثلاثة:

فالطور الأول، هو: طور يَقظَة الضمير، وشعور المذنب بالأسى والندم على معصية الله تعالى، وتعرضه لسخطه وعقابه، فإذا امتلأت نفس المذنب بهذا الشعور الواعي انتقل إلى:

الطور الثاني، وهو: طور الإنابة إلى الله عز وجل، والعزم الصادق على طاعته، ونبذ عصيانه، فإذا ما أنس بذلك تحول إلى:

الطور الثالث، وهو: طور تصفية النفس من رواسب الذنوب، وتلافي سيئاتها بالأعمال الصالحة الباعثة على توفير رصيد الحسنات، وتلاشي السيئات، وبذلك تتحقق التوبة الصادقة النصوح.

وليست التوبة هزل عابث، ولقلقة يتشدق بها اللسان، وإنما هي: الإنابة الصادقة إلى الله تعالى، ومجافاة عصيانه بعزم وتصميم قويين، والمستغفر بلسانه وهو سادر في المعاصي مستهتر كذّاب، كما قال الإمام الرضا (ع):

«المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزىء بربه».

فضائل التوبة

للتوبة فضائل جمة، ومآثر جليلة، صورها القرآن الكريم، وأعربت عنها آثار أهل البيت عليهم السلام.

وناهيك في فضلها أنّها بلسم الذنوب، وسفينة النجاة، وصمام الأمن من سخط الله تعالى وعقابه.

وقد أبَتْ العناية الإلهية أن تُهمل العصاة يتخبطون في دياجير الذنوب، ومجاهل العصيان، دون أن يسعهم بعطفه السامي، وعفوه الكريم، فشوقهم إلى الأنابة، ومهد لهم التوبة، فقال سبحانه:

﴿وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة، ثم تاب من بعده وأصلح، فإنه غفور رحيم﴾ (الأنعام: ٥٤).

وقال تعالى: ﴿قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إن الله يغفر الذنوب جميعاً، إنه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر: ٥٣).

وقال تعالى حاكياً: ﴿فقلت: استغفروا ربكم إنه كان غفاراً، يُرسل السماء عليكم مدراراً، ويُمددكم بأموال وبنين، ويجعل لكم جنات، ويجعل لكم أنهاراً﴾ (نوح: ١٠ ـ ١٢).

وقال تعالى: ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾ (البقرة: ٢٢٢).

وقال الصادق (ع): «إذا تاب العبد توبة نصوحاً، أحبه الله تعالى فستر عليه في الدنيا والآخرة. قال الراوي: وكيف يستر الله عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذنوب، ثم يوحي الله إلى جوارحه اكتمي عليه ذنوبه، ويوحي

إلى بقاع الأرض اكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذنوب، فيلقى الله تعالى حين يلقاه، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذنوب»[١].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «التائب من الذنب كمن لا ذنب له».

وقال (ص) في حديث آخر: «ليس شيء أحب إلى الله من مؤمن تائب، أو مؤمنة تائبة»[٢].

وعن أبي عبدالله أو عن أبي جعفر عليهما السلام قال: «إن آدم قال: يا رب سلّطت عليّ الشيطان وأجريته مجرى الدم مني فاجعل لي شيئاً.

فقال: يا آدم جعلتُ لكَ أن من همّ من ذريتك بسيئة لم يكتب عليه شيء، فإن عملها كتبت عليه سيئة، ومن همّ منهم بحسنة فإن لم يعملها كتبت له حسنة، فإن هو عملها كتبت له عشراً.

قال: يا رب زدني. قال: جعلت لك أن من عمل منهم سيئة ثم استغفرني غفرت له.

قال: يا رب زدني. قال: جعلت لهم التوبة حتى يبلغ النفس هذه. قال: يا رب حسبي»[٣].

وقال الصادق (ع): «العبد المؤمن إذا أذنب ذنباً أجله الله سبع ساعات، فإن استغفر الله لم يكتب عليه، وإن مضت الساعات ولم يستغفر كتبت عليه سيئة، وإن المؤمن ليذكر ذنبه بعد عشرين سنة حتى يستغفر ربه فيغفر له، وإن الكافر لينساه من ساعته»[٤].

وقال (ع): «ما من مؤمن يقارف في يومه وليلته أربعين كبيرة فيقول وهو نادم: «أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الحي القيّوم بديع السماوات والأرض ذو

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٨٣ عن الكافي.
(٢) البحار م ٣ ص ٩٨ عن عيون أخبار الرضا (ع).
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٨٤ عن الكافي.
(٤) البحار م ٣ ص ١٠٣ عن الكافي.

الجلال والإكرام وأسأله أن يصلي على محمد وآل محمد وأن يتوب عليّ» إلا غفرها الله له، ولا خير فيمن يقارف في يومه أكثر من أربعين كبيرة»(١).

وجوب التوبة وفوريتها

لا ريب في وجوب التوبة، لدلالة العقل والنقل على وجوبها:

أما العقل: فمن بديهياته ضرورة التوقي والتحرز عن موجبات الأضرار والأخطار الموجبة لشقاء الإنسان وهلاكه. لذلك وجب التحصن بالتوبة، والتحرز بها من غوائل الذنوب وآثارها السيئة، في عاجل الحياة وآجلها.

وأما النقل: فقد فرضتها أوامر القرآن والسنة فرضاً محتّماً، وشوقت إليها بألوان التشويق والتيسير.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: «قال رسول الله (ص): من تاب قبل موته بسنة قبل الله توبته، ثم قال: إن السنة لكثير، من تاب قبل موته بشهر قبل الله توبته. ثم قال: إن الشهر لكثير، من تاب قبل موته بجمعة قبل الله توبته. ثم قال: إن الجمعة لكثير، من تاب قبل موته بيوم قبل الله توبته. ثم قال: إن يوماً لكثير، من تاب قبل أن يعاين قبل الله توبته»(٢).

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «إنّ لله عز وجل فضولاً من رزقه يُنحله من يشاء من خلقه، والله باسط يديه عند كل فجر لمذنب الليل هل يتوب فيغفر له، ويبسط يديه عند مغيب الشمس لمذنب النهار هل يتوب فيغفر له»(٣).

تجديد التوبة

من الناس من يهتدي بعد ضلال، ويستقيم بعد انحراف، فيتدارك آثامه بالتوبة والإنابة، ملبياً داعي الإيمان، ونداء الضمير الحُر.

(١) الوافي ج ٣ ص ١٨٢ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٨٤ عن الكافي.
(٣) البحار م ٣ ص ١٠٠ عن ثواب الأعمال للصدوق (ره).

بيد أنّ الإنسان كثيراً ما تخدعه مباهج الحياة، وتسترقه بأهوائها ومغرياتها، فيقارف المعاصي من جديد، منجرفاً بتيارها العَرِم، وهكذا يعيش صراعاً عنيفاً بين العقل والشهوات، ينتصر عليها تارة، وتنتصر عليه أخرى، وهكذا دواليك.

وهذا ما يعيق الكثيرين عن تجديد التوبة، ومواصلة الإنابة خشية النكول عنها، فيظلّون سادرين في المعاصي والآثام.

فعلى هؤلاء أن يعلموا أن الإنسان عرضة لأغواء الشيطان، وتسويلاته الآثمة، ولا ينجو منها إلا المعصومون من الأنبياء والأوصياء عليهم السلام، وإنّ الأجدر بهم إذا ما استزلهم بخدعه ومغرياته، أن يجددوا عهد التوبة والإنابة بنيّة صادقة، وتصميم جازم، فإن زاغوا وانحرفوا فلا يُقنطهم ذلك عن تجديدها كذلك، مستشعرين قول الله عز وجل:

﴿قل يا عباديَ الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله، إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً، إنّه هو الغفور الرحيم﴾ (الزمر: ٥٣).

وهكذا شجّعت أحاديث أهل البيت عليهم السلام على تجديد التوبة، ومواصلة الإنابة، إنقاذاً لصرعى الآثام من الانغماس فيها، والانجراف بها. وتشويقاً لهم على استئناف حياة نزيهة مستقيمة.

فعن محمد بن مسلم قال: قال الباقر (ع): «يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب عنها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما والله إنها ليست إلا لأهل الإيمان.

قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار في الذنوب، وعاد في التوبة. فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر الله تعالى منه ويتوب ثم لا يقبل الله توبته!! قلت: فإنه فعل ذلك مراراً، يذنب ثم يتوب ويستغفر. فقال: كلّما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة، عاد الله عليه بالمغفرة وإنّ الله غفور رحيم، يقبل التوبة، ويعفو عن السيئات، فإيّاك أنْ تُقنّط المؤمنين من رحمة الله تعالى»[1].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٨٣ عن الكافي.

وعن أبي بصير قال: «قلت لأبي عبدالله (ع): ﴿يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً﴾ (التحريم:٨)؟ قال: هو الذنب الذي لا يعود إليه أبداً. قلت: وأيّنا لم يعد. فقال: يا أبا محمد، إن الله يحب من عباده المفتن التوّاب»[1].

المراد بالمفتن التوّاب: هو من كان كثير الذنبُ كثير التوبة.

ولا بدع أن يحب الله تعالى المفتن التواب، فإن الإصرار على مقارفة الذنوب، وعدم ملافاتها بالتوبة، دليل صارخ على موت الضمير وتلاشي الإيمان، والاستهتار بطاعة الله عز وجل، وذلك من دواعي سخطه وعقابه.

منهاج التوبة

ولا بد للتائب أن يعرف أساليب التوبة، وكيفية التخلص من تبعات الذنوب، ومسؤولياتها الخطيرة، ليكفّر عن كل جريرة بما يلائمها من الطاعة والإنابة.

فللذنوب صور وجوانب مختلفة:

منها ما يكون بين العبد وخالقه العظيم، وهي قسمان: ترك الواجبات، وفعل المحرمات.

فترك الواجبات: كترك الصلاة والصيام والحج والزكاة ونحوها من الواجبات. وطريق التوبة منها بالاجتهاد في قضائها وتلافيها جُهد المستطاع.

وأما فعل المحرمات: كالزنا وشرب الخمر والقمار وأمثالها من المحرمات، وسبيل التوبة منها بالندم على اقترافها، والعزم الصادق على تركها.

ومن الذنوب: ما تكون جرائرها بين المرء والناس، وهي أشدّها تبعة ومسؤولية، وأعسرها تلافياً، كغصب الأموال، وقتل النفوس البريئة المحرمة، وهتك المؤمنين بالسب والضرب والنمّ والاغتياب.

والتوبة منها بإرضاء الخصوم، وأداء الظُلامات إلى أهلها، ما استطاع إلى

(١) الوافي ج ٣ ص ١٨٣ عن الكافي.

ذلك سبيلا، فإن عجز عن ذلك فعليه بالاستغفار، وتوفير رصيد حسناته، والتضرع إلى الله عز وجل أن يرضيهم عنه يوم الحساب.

قبول التوبة

لا ريب أن التوبة الصادقة الجامعة الشرائط مقبولة بالإجماع، لدلالة القرآن والسنّة عليها:

قال تعالى: ﴿وهو الذي يقبل التوبة عن عباده﴾ (الشورى: ٢٥).

وقال تعالى: ﴿غافر الذنب، وقابل التوب﴾ (غافر: ٣).

وقد عرضنا في فضائل التوبة طرفاً من الآيات والأخبار الناطقة بقبول التوبة، وفوز التائبين بشرف رضوان الله تعالى، وكريم عفوه، وجزيل آلائه.

وأصدق شاهد على ذلك ما جاء في معرض حديث للنبي (ص) حيث قال: «لولا أنكم تذنبون فتستغفرون الله لخلق الله خلقاً حتى يذنبوا ثم يستغفروا الله فيغفر لهم، إن المؤمن مفتن تواب، أما سمعت قول الله ﴿إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين﴾» (البقرة: ٢٢٢)[١].

أشواق التوبة

تتلخص النصائح الباعثة على التوبة والمشوقة إليها فيما يلي:

١ - أن يتذكر المذنب ما صوّرته الآيات الكريمة، والأحاديث الشريفة، من غوائل الذنوب، ومآسيها المادية والروحية، في عاجل الحياة وآجلها، وما توعد الله عليها من صنوف التأديب وألوان العقاب.

٢ - أن يستعرض فضائل التوبة ومآثر التائبين، وما حباهم الله به من كريم العفو، وجزيل الأجر، وسمو العناية واللطف، وقد مرّ ذلك في بداية هذا البحث.

وكفى بهاتين النصيحتين تشويقاً إلى التوبة، وتحريضاً عليها، ولا يرغب عنها إلا أحمق بليد، أو ضعيف الإيمان والبصيرة.

(١) البحار م ٣ ص ١٠٣ عن الكافي.

محاسبة النفس ومراقبتها

المحاسبة هي: محاسبة النفس كل يوم عمّا عملته من الطاعات والمبرات، أو اقترفته من المعاصي والآثام، فإن رجحت كفة الطاعات على المعاصي، والحسنات على السيئات، فعلى المحاسِب أن يشكر الله تعالى على ما وفقه إليه وشرّفه به من جميل طاعته وشرف رضاه.

وإن رجحت المعاصي، فعليه أن يؤدّب نفسه بالتأنيب والتقريع على شذوذها وانحرافها عن طاعة الله تعالى.

وأما المراقبة: فهي ضبط النفس وصيانتها عن الإخلال بالواجبات ومقارفة المحرمات.

وجدير بالعاقل المستنير بالإيمان واليقين، أن يرّوض نفسه على المحاسبة والمراقبة فإنّها (أمّارة بالسوء): متى أهملت زاغت عن الحق، وانجرفت في الآثام والشهوات، وأودت بصاحبها في مهاوي الشقاء والهلاك، ومتى أُخذت بالتوجيه والتهذيب، أشرقت بالفضائل، وازدهرت بالمكارم، وسمت بصاحبها نحو السعادة والهناء، ﴿ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾ (الشمس: ٧ - ١٠).

هذا إلى أن للمحاسبة والمراقبة أهمية كبرى في تأهب المؤمن، واستعداده لمواجهة حساب الآخرة، وأهواله الرهيبة، ومن ثم اهتمامه بالتزوّد من أعمال البر والخير الباعثة على نجاته وسعادة مآبه.

لذلك طفقت النصوص تشوّق، وتحرّض على المحاسبة والمراقبة بأساليبها الحكيمة البليغة:

قال الإمام الصادق (ع): «إذا أراد أحدكم أن لا يسأل ربه شيئاً إلا أعطاه، فلييأس من الناس كلهم، ولا يكون له رجاء إلا من عند الله تعالى، فإذا علم الله تعالى ذلك من قلبه لم يسأل شيئاً إلا أعطاه، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها، فإن للقيامة خمسين موقفاً كل موقف مقام ألف سنة. ثم تلا

﴿في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة﴾ (المعارج: ٤)[١].

وقال الإمام موسى بن جعفر (ع): «ليس منّا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله تعالى منها وتاب إليه»[٢].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: «إن رجلاً أتى النبي (ص) فقال له: يا رسول الله أوصني.

فقال له رسول الله (ص): فهل أنت مستوصٍ إنْ أنا أوصيتك؟ حتى قال له ذلك ثلاثاً، وفي كلها يقول له الرجل: نعم يا رسول الله.

فقال له رسول الله (ص): فإني أوصيك، إذا أنت هممت بأمر فتدبّر عاقبته، فإن يك رشداً فأمضه، وإن يك غيّاً فانته عنه»[٣].

وقال الصادق (ع) لرجل. «إنّك قد جُعلتَ طبيب نفسك، وبُيّن لك الداء، وعُرّفت آية الصحة، ودُلِلت على الدواء، فانظر كيف قياسك على نفسك»[٤].

وعن موسى بن جعفر (ع) عن آبائه عليهم السلام قال: «قال أمير المؤمنين (ع): إن رسول الله (ص) بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر، وبقي عليهم الجهاد الأكبر.

قيل: يا رسول الله، وما الجهاد الأكبر؟ قال: جهاد النفس. ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[٥]

دستور المحاسبة

لقد ذكر المعنيون بدراسة الأخلاق دستور المحاسبة والمراقبة بأسلوب

---

(١) الوافي الجزء الثالث ص ٦٢ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٦٢ عن الكافي.
(٣)، (٤) الوافي ج ٣ ص ٦٢ عن الكافي.
(٥) البحار م ١٥ ج ٢ ص ٤٠ عن معاني الأخبار وأمالي الصدوق.

مفصّل ربما يشق على البعض تنفيذه، بيد أني أعرضه مجملاً وميسراً في أمرين هامين:

١ ـ أول ما يجدر محاسبة النفس عليه أداء الفرائض التي أوجبها الله تعالى على الناس، كالصلاة والصيام والحج والزكاة ونحوها من الفرائض، فإن أداها المرء على الوجه المطلوب، شكر الله تعالى على ذلك ورجّى نفسه فيما أعد الله للمطيعين من كرم الثواب وجزيل الأجر.

وإن أغفلها وفرّط في أدائها خوّف نفسه بما توعد الله العصاة والمتمردين من عباده بالعقاب الأليم، وجد في قضائها وتلافيها.

٢ ـ محاسبة النفس على اقتراف الآثام واجتراح المنكرات، وذلك: بزجرها زجراً قاسياً، وتأنيبها على ما فرط من سيئاتها، ثم الاجتهاد بملافاة ذلك بالندم عليه والتوبة الصادقة منه.

ولقد ضرب النبي (ص) أرفع مثل لمحاسبة النفس، والتحذير من صغائر الذنوب ومحقراتها:

قال الصادق (ع): «إن رسول الله نزل بأرض قرعاء، فقال لأصحابه: إئتونا بحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن بأرض قرعاء ما بها من حطب. قال: فليأت كل إنسان بما قدر عليه، فجاؤوا به حتى رموا بين يديه بعضه على بعض، فقال رسول الله (ص): هكذا تجتمع الذنوب.

ثم قال: إياكم والمحقرات من الذنوب، فإن لكل شيء طالباً، ألا وأنّ طالبها يكتب:

﴿ما قدموا آثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين﴾ (ياسين: ١٢)[1].

وكان بعض الأولياء يحاسب نفسه بأسلوب يستثير الدهشة والإكبار.

من ذلك ما نقل عن توبة بن الصمة، وكان محاسباً لنفسه في أكثر أوقات ليله ونهاره، فحسب يوماً ما مضى من عمره، فإذا هو ستون سنة، فحسب

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٦٨ عن الكافي.

أيامها فكانت إحدى وعشرين ألف يوم وخمسمائة يوم، فقال: يا ويلتاه!!، ألقى مالكاً بإحدى وعشرين ألف ذنب، ثم صعق صعقة كانت فيها نفسه[١].

وما أحلى هذا البيت:

إذا المرء أعطى نفسه كل شهوة ولم ينهها تاقت إلى كل باطل

اغتنام فرصة العمر

لو وازن الإنسان بين جميع مُتع الحياة ومباهجها، وبين عمره وحياته لوجد أنّ العمر أغلى وأنفس منها جميعاً، وأنه لا يعدله شيء من نفائس الحياة وأشواقها الكثر، إذ من الممكن اكتسابها أو استرجاع ما نفر منها.

أما العمر فإنه الوقت المحدد الذي لا يستطيع الإنسان إطالة أمده، وتمديد أجله المقدر المحتوم ﴿ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ (الأعراف: ٣٤).

كما يستحيل استرداد ما تصرم من العمر، ولو بذل المرء في سبيل ذلك جميع مقتنيات الحياة.

وحيث كان الإنسان غفولاً عن قيم العمر وجلالة قدره، فهو يسرف عابثاً في تضييعه وإبادته، غير آبه لما تصرم منه، ولا مغتنم فرصته السانحة.

من أجل ذلك جاءت توجيهات آل البيت عليهم السلام موضحة نفاسة العمر، وضرورة استغلاله وصرفه فيما يوجب سعادة الإنسان ورخائه في حياته العاجلة والآجلة.

قال سيد المرسلين (ص) في وصيته لأبي ذر: «يا أبا ذر، كُن على عمرك أشحّ منك على درهمك ودينارك»[٢].

وقال أمير المؤمنين (ع): «إنما الدنيا ثلاثة أيام: يوم مضى بما فيه فليس بعائد، ويوم أنت فيه فحقّ عليك اغتنامه، ويوم لا تدري أنت من أهله،

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٤٨٨.

(٢) الوافي قسم المواعظ في وصية النبي (ص) لأبي ذر.

ولعلك راحل فيه.

أما اليوم الماضي فحكيم مُؤدّب، وأما اليوم الذي أنت فيه فصديق مودّع، وأما غد فإنما في يديك منه الأمل».

وقال (ع): «ما من يوم يمر على ابن آدم، إلا قال له ذلك اليوم: أنا يوم جديد، وأنا عليك شهيد، فقل فيّ خيراً، واعمل فيّ خيراً، أشهد لك به يوم القيامة، فإنك لن تراني بعد هذا أبداً»(١).

وروي أنه جاء رجل إلى علي بن الحسين عليهما السلام يشكو إليه حاله، فقال: «مسكين ابن آدم، له في كل يوم ثلاث مصائب لا يعتبر بواحدة منهن، ولو اعتبر لهانت عليه المصائب وأمر الدنيا:

فأما المصيبة الأولى: فاليوم الذي ينقص من عمره. قال: وإن ناله نقصان في ماله اغتم به، والدهر يخلف عنه والعمر لا يردّه شيء.

والثانية: أنه يستوفي رزقه، فإن كان حلالاً حُوسِبَ عليه، وإن كان حراماً عوقب.

قال: والثالثة أعظم من ذلك. قيل: وما هي؟ قال: ما من يوم يمسي إلا وقد دنا من الآخرة مرحلة، لا يدري على جنة أم على نار.

وقال: أكبر ما يكون ابن آدم اليوم الذي يولد من أمّه.

«قالت الحكماء ما سبقه إلى هذا أحد»(٢).

وقال الصادق (ع): «إصبروا على طاعة الله، وتصبروا عن معصية الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فلست تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت فلست تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها فكأنّك قد اغتبطت»(٣).

وقال الباقر (ع): «لا يغرّنك الناس من نفسك، فإن الأمر يصل إليك دونهم، ولا تقطع نهارك بكذا وكذا، فإنّ معك من يحفظ عليك عملك،

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٣ عن الفقيه.
(٢) عن كتاب الاختصاص المنسوب للشيخ المفيد.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٦٣ عن الكافي.

فأحسن فإنّي لم أرَ شيئاً أحسن دركاً، ولا أسرع طلباً، من حسنة محدثة لذنب قديم»[١].

وعن جعفر بن محمد عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «بادر بأربع قبل أربع، بشبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وحياتك قبل موتك»[٢].

وعن الباقر (ع) عن النبي (ص) قال: لا يزولُ قدم [قدما] عبد يوم القيامة من بين يدي الله، حتى يسأله عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين اكتسبته وأين وضعته، وعن حبنا أهل البيت؟»[٣].

وقال بعض الحكماء: إنّ الإنسان مسافر، ومنازله ستة. وقد قطع منها ثلاثة وبقي ثلاثة:

فالتي قطعها: -

١ - من كتم العدم إلى صلب الأب وترائب الأم.

٢ - رحم الأم.

٣ - من الرحم إلى فضاء الدنيا.

وأما التي لم يقطعها: -

فأولها القبر، وثانيها فضاء المحشر. وثالثها الجنة أو النار.

ونحن الآن في قطع مرحلة المنزل الثالث، ومدة قطعها مدة عمرنا، فأيامنا فراسخ، وساعاتنا أميال، وأنفاسنا خطوات.

فكم من شخص بقي له فراسخ، وآخر بقي له أميال، وآخر بقي له خطوات.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٢ عن الكافي.

(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٦٥ عن كتاب كمال الدين للصدوق.

(٣) البحار م ٧ ص ٣٨٩ عن مجالس الشيخ المفيد.

وما أروع قول الشاعر:

دقات قلب المرء قائلة له إن الحياة دقائق وثواني

العمل الصالح

لقد عرفت في البحث السالف نفاسة الوقت، وجلالة العمر، وأنه أعز ذخائر الحياة وأنفسها.

وحيث كان الوقت كذلك، وجب على العاقل أن يستغله فيما يليق به، ويكافئه عزةً ونفاسةً، من الأعمال الصالحة، والغايات السامية، الموجبة لسعادته ورخائه المادي والروحي، الدنيوي والأخروي، كما قال سيد المرسلين (ص): «ليس ينبغي للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث: مرمّة لمعاش، أو تزوّد لمعاد، أو لذّة في غير محرم»[1].

فهذه هي الأهداف السامية، والغايات الكريمة التي يجدر صرف العمر النفيس في طلبها وتحقيقها.

وحيث كان الإنسان مدفوعاً بغرائزه وأهوائه إلى كسب المعاش، ونيل المتع واللذائذ المادية، والتهالك عليها، مما يصرفه ويلهيه عن الأعمال الصالحة، والتأهب للحياة الآخرة، وتوفير موجبات السعادة والهناء فيها. لذلك جاءت الآيات والأخبار مشوقة إلى الاهتمام بالآخرة، والتزود لها من العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾ (الزلزلة: ٧ ـ ٨).

وقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى، وهو مؤمن، فلنحيينه حياة طيبة، ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

وقال تعالى: ﴿ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن، فأولئك يدخلون الجنة، يُرزقون فيها بغير حساب﴾ (غافر: ٤٠).

وقال تعالى: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه، ومن أساء فعليها، ثم إلى ربكم

(١) الوافي قسم المواعظ في وصية النبي (ص) لعلي (ع).

ترجعون﴾ (الجاثية: ١٥).

وقال رسول الله (ص): «يا أبا ذر، إنّك في ممر الليل والنهار، في آجال منقوصة، وأعمال محفوظة، والموت يأتي بغتة، ومن يزرع خيراً يوشك أن يحصد خيراً، ومن يزرع شراً يوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع»(١).

وقال قيس بن عاصم: وفدت مع جماعة من بني تميم إلى النبي (ص)، فقلت. يا نبي الله عظنا موعظة ننتفع بها، فإنا قوم نعمّر في البرّية.

فقال رسول الله (ص): «يا قيس إنّ مع العز ذُلاً، وإنّ مع الحياة موتاً، وإنّ مع الدنيا آخرة، وإنّ لكل شيء حسيباً، وعلى كل شيء رقيباً، وإن لكل حسنة ثواباً، ولكل سيئة عقاباً، ولكل أجل كتاباً. وإنه لا بد لك يا قيس من قرين يُدفن معك وهو حيّ، وتدفن معه وأنت ميت، فإن كان كريماً أكرمك، وإن كان لئيماً أسلمك، ثم لا يحشر إلا معك، ولا تبعث إلا معه، ولا تسأل إلا عنه، فلا تجعله إلا صالحاً، فإنه إن صلح أنست به، وإن فسد لم تستوحش إلا منه، وهو فعلك»(٢).

وقال أمير المؤمنين (ع): «إن العبد إذا كان في آخر يوم من أيام الدنيا، وأول يوم من أيام الآخرة، مُثّل له، ماله، وولده، وعمله، فيلتفت إلى ماله، فيقول: والله إني كنت عليك حريصاً شحيحاً فمالي عندك؟ فيقول: خذ مني كفنك.

قال: فيلتفت إلى ولده فيقول: والله إني كنت لكم محباً، وإني كنت عليكم محامياً، فمالي عندكم؟ فيقولون: نؤديك إلى حفرتك فنواريك فيها.

قال: فيلتفت إلى عمله فيقول: والله إني كنت فيك لزاهداً، وإنك كنت عليّ لثقيلاً، فمالي عندك؟ فيقول: أنا قرينك في قبرك، ويوم نشرك، حتى أعرض أنا وأنت على ربك»(٣).

---

(١) الوافي في موعظة رسول الله (ص) لأبي ذر.

(٢) البحار م ١٥ ج ٢ ص ١٦٣ عن معاني الأخبار والخصال وآمالي الصدوق.

(٣) الوافي ج ١٣ ص ٩٢ عن الفقيه.

قال: «فإن كان لله ولياً، أتاه أطيب الناس ريحاً، وأحسنهم منظراً وأحسنهم رياشاً، فقال: أبشر بروح وريحان، وجنة نعيم، ومقدمك خير مقدم، فيقول له: من أنت؟ فيقول: أنا عملك الصالح، ارتحل من الدنيا إلى الجنة...»[١].

وقال الصادق (ع): «إذا وضع الميت في قبره، مُثّل له شخص، فقال له: يا هذا، كنّا ثلاثة: كان رزقك فانقطع بانقطاع أجلك، وكان أهلك فخلّوك وانصرفوا عنك، وكنت عملك فبقيت معك أما إني كنت أهون الثلاثة عليك»[٢].

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «قال رسول الله (ص): من أحسن فيما بقي من عمره، لم يُؤاخَذ بما مضى من ذنبه، ومن أساء فيما بقي من عمره أخذ بالأول والآخر».

وقد أحسن الشاعر بقوله:

والناس همهم الحياة ولا أرى ... طول الحياة يزيد غير خيال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ... ذخراً يدوم كصالح الأعمال

طاعة الله وتقواه

الإنسان عنصر أصيل من عناصر هذا الكون، ونمط مثالي رفيع بين أنماطه الكثر، بل هو أجلّها قدراً، وأرفعها شأناً، وذلك بما حباه الله عز وجل، وشرّفه بصنوف الخصائص والهبات التي ميزته على سائر الخلق ﴿ولقد كرّمنا بني آدم، وحملناهم في البر والبحر، ورزقناهم من الطيبات وفضلّناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾ (الإسراء: ٧٠).

وكان من أبرز مظاهر العناية الإلهية بالإنسان، ودلائل تكريمه له: أن استخلفه في الأرض، واصطفى من عيون نوعه وخاصتهم رسلاً وأنبياء بعثهم إلى العباد بالشرائع والمبادىء الموجبة لتنظيم حياتهم، وإسعادهم في عاجل الدنيا وآجل الآخرة.

(١) الوافي ج ١٣ ص ٩٢ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٣ ص ٩٤ عن الكافي.

ولكنّ أغلب البشر، وأسفاه! تستعبدهم الأهواء والشهوات، وتطغى عليهم نوازع التنكر والتمرد على النظم الإلهية، وتشريعها الهادف البناء، فيتيهون في مجاهل العصيان، ويتعسفون طرق الغواية والضلال، ومن ثم يعانون ضروب الحيرة والقلق والشقاء، ولو أنهم استجابوا لطاعة الله تعالى، وساروا على هدي نظمه ودساتيره، لسعدوا وفازوا فوزاً عظيماً، ﴿ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا، لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون﴾.

أرأيت كيف انتظم الكون، واتّسقت عناصره، واستتب نظامه ملايين الأجيال والأحقاب؟! بخضوعه لله عز وجل، وسيره على مقتضيات دساتيره وقوانينه؟!

أرأيت كيف ازدهرت حياة الأحياء، واستقامت بجريها على وفق مشيئة الله تعالى، وحكمة نظامه وتدبيره؟!!

أرأيت كيف يطبق الناس وصايا وتعاليم مخترعي الأجهزة الميكانيكية ليضمنوا صيانتها واستغلالها على أفضل وجه؟!

أرأيت كيف يخضع الناس لنصائح الأطباء، ويعانون مشقة العلاج ومرارة الحمية، توخياً للبرء والشفاء؟!

فلِمَ لا يطيع الإنسان خالقه العظيم، ومدبره الحكيم، الخبير بدخائله وأسراره، ومنافعه ومضاره؟!.

إنه يستحيل على الإنسان أن ينال ما يصبو إليه من سعادة وسلام، وطمأنينة ورخاء، إلا بطاعة الله تعالى، وانتهاج شريعته وقوانينه.

انظر كيف يشوّق الله عز وجل، عباده إلى طاعته، وتقواه، ويحذّرهم مغبة التمرد والعصيان، وهو الغنيّ المطلق عنهم.

قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٦١).

وقال سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها

الأنهار، ومن يتوّل يعذّبه عذاباً أليماً﴾ (الفتح: ١٧).

وأما التقوى، فقد علق الله خير الدنيا والآخرة، وأناط بها أعز الأماني والآمال، وإليك بعضها:

١ ـ المحبة من الله تعالى، فقال سبحانه: ﴿إن الله يحب المتقين﴾ (التوبة: ٤).

٢ ـ النجاة من الشدائد وتهيئة أسباب الارتزاق، فقال: ﴿ومن يتق الله يجعل له مخرجاً، ويرزقه من حيث لا يحتسب﴾ (الطلاق: ٢ ـ ٣).

٣ ـ النصر والتأييد، قال تعالى: ﴿إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾ (النحل: ١٢٨).

٤ ـ صلاح الأعمال وقبولها، فقال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله، وقولوا قولاً سديداً، يصلح لكم أعمالكم﴾ (الأحزاب: ٧٠ ـ ٧١).

وقال: ﴿إنما يتقبل الله من المتقين﴾.

٥ ـ البشارة عند الموت، قال تعالى: ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (يونس: ٦٣ ـ ٦٤).

٦ ـ النجاة من النار، قال تعالى: ﴿ثم ننجّي الذين اتقوا﴾ (مريم: ٧٢).

٧ ـ الخلود في الجنة، قال تعالى: ﴿أعدت للمتقين﴾ (آل عمران: ١٣٣).

فتجلى من هذا العرض، أن التقوى هي الكنز العظيم، الحاوي لصنوف الأماني والآمال المادية والروحية، الدينية والدنيوية.

حقيقة الطاعة والتقوى

والطاعة: هي الخضوع لله عز وجل، وامتثال أوامره ونواهيه.

والتقوى: من الوقاية، وهي صيانة النفس عما يضرها في الآخرة، وقصرها على ما ينفعها فيها.

وهكذا تواترت أحاديث أهل البيت عليهم السلام حاثة ومرغبةً على طاعة

الله تعالى وتقواه، ومحذّرة من عصيانه ومخالفته.

قال الإمام الحسن الزكي (ع) في موعظته الشهيرة لجنادة: «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً، وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فأخرج من ذلّ معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل».

وقال الصادق (ع): «إصبروا على طاعة الله، وتصبّروا عن معصية الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فلست تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت فلست تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها، فكأنك قد اغتبطت»[١].

وقال (ع): «إذا كان يوم القيامة يقوم عنق من الناس، فيأتون باب الجنة فيضربونه، فيقال لهم: من أنتم؟ فيقولون: نحن أهل الصبر. فيقال لهم: على ما صبرتم؟ فيقولون: كنّا نصبر على طاعة الله ونصبر عن معاصي الله. فيقول الله عز وجل: صدقوا، أدخلوهم الجنة، وهو قول الله عز وجل: ﴿إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾ (الزمر: ١٠)[٢].

وقال الباقر (ع): «إذا أردت أن تعلم أن فيك خيراً، فانظر إلى قلبك، فإن كان يحب أهل طاعة الله عز وجل ويبغض أهل معصيته ففيك خير، والله يحبك.

وإن كان يبغض أهل طاعة الله، ويحبّ أهل معصيته فليس فيك خير، والله يبغضك، والمرء مع من أحب»[٣].

وقال (ع): ما عرف الله من عصاه، وأنشد:

تعصي الإله وأنت تظهر حبّه ... هذا لعمرك في الفعال بديع
لو كان حبك صادقاً لأطعته ... إنّ المحب لمن أحبّ مطيع

وعن الحسن بن موسى الوّشا البغدادي قال: كنت بخراسان مع علي بن

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٣ عن الكافي.
(٢) البحار م ٥ ج ٢ ص ٤٩ عن الكافي.
(٣) البحار م ١٥ ج ١ ص ٢٨٣ عن علل الشرائع والمحاسن للبرقي والكافي.

موسى الرضا (ع) في مجلسه، وزيد بن موسى حاضر، وقد أقبل على جماعة في المجلس يفتخر عليهم ويقول نحن ونحن، وأبو الحسن مقبل على قوم يحدّثهم، فسمع مقالة زيد، فالتفت إليه. فقال: يا زيد، أغرّك قول بقالي الكوفة إنّ فاطمة أحصنت فرجها، فحرّم الله ذريتها على النار، والله ما ذلك إلا للحسن والحسين، وولد بطنها خاصة، فأمّا أن يكون موسى بن جعفر يطيع الله، ويصوم نهاره، ويقوم ليله، وتعصيه أنت، ثم تجيئان يوم القيامة سواء، لأنت أعزّ على الله منه! إنّ علي بن الحسين كان يقول: «لمحسننا كفلان من الأجر، ولمسيئنا ضعفان من العذاب».

قال الحسن بن الوشا: ثم التفت إليّ وقال: يا حسن، كيف تقرأون هذه الآية؟ ﴿وقال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ (هود: ٤٦).

فقلت: من الناس من يقرأ (عَمِل غير صالح) ومنهم من يقرأ (عَمَلٌ غير صالح) نفاه عن أبيه.

فقال (ع): «كلا لقد كان ابنه، ولكن لمّا عصى الله عز وجل، نفاه الله عن أبيه، كذا من كان منّا ولم يطع الله فليس منا، وأنت إذا أطعت الله فأنت منّا أهل البيت»[1].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قام رسول الله (ص) على الصفا، فقال: «يا بني هاشم، يا بني عبدالمطلب، إني رسول الله إليكم، وإنّي شفيق عليكم، وإن لي عملي، ولكل رجل منكم عمله، لا تقولوا إن محمداً منا وسندخل مدخله، فلا والله ما أوليائي منكم ولا من غيركم، يا بني عبدالمطلب إلا المتقون، إلا فلا أعرفكم يوم القيامة تأتون تحملون الدنيا على ظهوركم، ويأتي الناس يحملون الآخرة، ألا إنّي قد أعذرت إليكم فيما بيني وبينكم، وفيما بيني وبين الله تعالى فيكم»[2].

وعن جابر قال: قال الباقر (ع): «يا جابر أيكتفي من انتحل التشيع، أن

(١) البحار عن معاني الأخبار وعيون أخبار الرضا (ع).

(٢) الوافي ج ٣ ص ٦٠ عن الكافي.

يقول بحبنا أهل البيت؟! فوالله ما شيعتنا إلا من اتقى الله وأطاعه - إلى أن قال: فاتقوا الله واعملوا لما عند الله، ليس بين الله وبين أحد قرابة، أحبّ العباد إلى الله تعالى وأكرمهم عليه أتقاهم، وأعملهم بطاعته.

يا جابر، والله ما يتقرب إلى الله إلّا بالطاعة، ما معنى براءة من النار، ولا على الله لأحد من حجة، من كان لله مطيعاً فهو لنا وليّ، ومن كان لله عاصياً فهو لنا عدو، وما تنال ولايتنا إلّا بالعمل والورع»[1].

وعن المفضل بن عمر قال: كنت عند أبي عبدالله (ع) فذكرنا الأعمال، فقلت أنا: ما أضعف عملي. فقال: «مه؟! إستغفر الله. ثم قال: إن قليل العمل مع التقوى خير من كثير بلا تقوى. قلت: كيف يكون كثير بلا تقوى؟ قال: نعم، مثل الرجل يطعم طعامه، ويرفق جيرانه، ويوطيء رحله، فإذا ارتفع له الباب من الحرام دخل فيه، فهذا العمل بلا تقوى. ويكون الأخر ليس عنده شيء، فإذا ارتفع له الباب من الحرام لم يدخل فيه»[2].

قال الشاعر:

ليس من يقطع طريقاً بطلاً إنما من يتق الله البطل
فاتق الله فتقوى الله ما جاورت قلب امريء إلا وصل

الثبات على المبدأ

للنظم والمبادىء أهمية كبرى، وأثر بالغ في حياة الأمم والشعوب، فهي مصدر الإشعاع والتوجيه في الأمة، ومظهر رقيها أو تخلفها، وكلما سمت مبادىء الأمة، ونظمها الإصلاحية، كان ذلك برهاناً على تحضّرها وازدهارها.

وكلما هزلت وسخفت المبادىء، كان دليلاً على جهل ذويها وتخلفهم.

وخير المبادىء وأشرفها هو: ما ينظم حياة الإنسان فرداً ومجتمعاً، ويصون حريته وكرامته، ويحقق أمنه ورخاءه، ويوفر له وسائل السعادة والسلام في مجالي الدين والدنيا.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٠ عن الكافي. (٢) الوافي ج ٣ ص ٦١ عن الكافي.

وبديهي أن المبادىء مهما سمت، وزخرت بجلائل المزايا والخلال، فإنها لا تحقق أماني الأمة وآمالها، ولا تفيء عليها بالخير المأمول، إلا إذا أعتنقتها وحرصت على حمايتها وتنفيذها في مختلف مجالاة الحياة، وإلا كانت عديمة الجدوى والنفع.

لذلك كان الثبات على المبدأ الحق من أقدس واجبات الأمة وفروضها الحتمية، فهو الذي يرفع معنوياتها، ويعزز قيمتها، ويحقق أهدافها وأمانيها.

ولم تعرف البشرية في تاريخها المديد، أكمل وأفضل من المبادىء الإسلامية الحائزة على جميع الخصائص والفضائل التي أهلتها للخلود، وبوأتها قمة الشرائع والمبادىء.

فهي المبادىء الوحيدة التي تلائم الفِطَر السليمة، وتؤلف بين القيم المادية والروحية، وتكفل لمعتنقيها سعادة الدين والدنيا.

ناهيك في جلالتها أنّها استطاعت أن تحقق في أقل من ربع قرن من فتوحات الإيمان، ومعاجز الإصلاح، ما عجزت عن تحقيقه سائر الشرائع والمبادىء.

وأنشأت من الأمة العربية المتخلفة في جاهليتها خير أمّة أخرجت للناس، حضارة ومجداً وعلماً وأخلاقاً.

وما ساد المسلمون الأولون وانفردوا بحضارتهم وزعامتهم العلمية، إلا بثباتهم على مبادئهم الخالدة، وتفانيهم في حمايتها ونصرتها.

وما فجع المسلمون اليوم، وانتابتهم النكسات المتتالية، إلا بإغفال مبادئهم، وانحرافهم عنها.

انظر كيف يمجّد القرآن الكريم المسلمين الثابتين على مبادئهم الرفيعة، المستمسكين بقيم الإيمان ومثله العليا: ﴿إن الذين قالوا: ربنا الله، ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا والآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون، نزلاً من غفور رحيم﴾ (فصلت: ٣١ ـ ٣٢).

ولقد كان الرسول الأعظم وأهل بيته الطاهرون، المثل الأعلى في الثبات على المبدأ وحمايته والتضحية في سبيله، بأعزّ النفوس والأرواح.

كان (ص) كلّما اكفهرت في وجهه أعاصير المحن، وتألبت عليه قوى الكفر والطغيان ازداد صموداً ومُضيّاً على نشر رسالته، ضارباً في سبيل الله أرفع الأمثال «لو وضعت الشمس في يميني، والقمر في يساري ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله، أو أهلك في طلبه».

وبهذا الصمود والشموخ انهارت قوى الشرك، واستسلمت صاغرة للنبي (ص).

وكان أمير المؤمنين (ع) على سر رسول الله (ص)، ومثاليته في الثبات على المبدأ والاعتصام به، عُرضت عليه الخلافة مشروطةً بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين، فأبى معتداً بمبدئه السامي، ورأيه الأصيل قائلاً: «بل على كتاب الله، وسنة رسوله، واجتهاد رأي».

وألحّ عليه نفر من خاصته ومواليه أن يستميل من أغوتهم زخارف الأطماع فسئموا عدل الإمام ومساواته، واستهواهم إغراء معاوية ونواله الرخيص «يا أمير المؤمنين، إعط هذه الأموال، وفضّل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم، ومن تخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية».

فقال (ع) لهم وهو يعرب عن ثباته، وتمسكه بدستور الإسلام، وترفعه عن الوسائل الاستغلالية الآثمة: «أتأمروني أن أطلب النصر بالجور؟! لا والله ما أفعل ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، وكيف وإنما هي أموالهم».

وهكذا سرت مثالية الإمام (ع) إلى الصفوة المختارة من أصحابه وحواريه، فكانوا نماذج فذّة، وأنماطاً فريدة في الثبات على المبدأ والتمسك بالحق، والذود عنه، رغم معاناتها ضروب الإرهاب والتنكيل.

وقد ازدانت أسفار السير بطرائف أمجادهم، وطيب ذكراهم، مما خلّدت مآثرهم عبر القرون والأجيال، وإليك طرفاً منها:

قال الحجاج بن يوسف الثقفي ذات يوم: أحب أن أصيب رجلاً من أصحاب أبي تراب فأتقرب إلى الله بدمه. فقيل له: ما نعلم أحداً كان أطول صحبة لأبي تراب من قنبر مولاه. فبعث في طلبه فأتي به، فقال له: أنت قنبر؟ قال: نعم. قال: أبو همدان. قال: نعم. قال: مولى علي بن أبي طالب. قال: الله مولاي وأمير المؤمنين علي وليّ نعمتي.

قال: إبرأ من دينه، قال: فإذا برئت من دينه تدلني على دين غيره أفضل منه. قال: إني قاتلك، فاختر أيّ قتلة أحبّ إليك. قال: صيّرت ذلك إليك. قال: ولم؟ قال: لأنّك لا تقتلني قتلة إلا قتلتك مثلها، وقد أخبرني أمير المؤمنين أنّ منيتي تكون ذبحاً، ظلماً بغير حق. قال: فأمر به فذبح[1].

وروي أنّ معاوية أرسل إلى أبي الأسود الدُئلي هدية منها حلواء. يريد بذلك استمالته وصرفه عن حب علي بن أبي طالب، فدخلت ابنة صغيرة له فأخذت لقمة من تلك الحلواء وجعلتها في فمها، فقال لها أبو الأسود: يا بنيتي ألقيه فإنّه سمّ، هذه حلواء أرسلها إلينا معاوية ليخدعنا عن أمير المؤمنين (ع)، ويردّنا عن محبة أهل البيت. فقالت الصبية: قبّحه الله، يخدعنا عن السيد المطهر بالشهد المزعفر! تبّاً لمرسله وآكله، فعالجت نفسها حتى قاءت ما أكلتها، ثم قالت:

أبا لشهد المزعفر يابن هند نبيع عليك أحساباً (اسلاماً ـ خ ل) ودينا

معاذ الله كيف يكون هذا ومولانا أمير المؤمنينا[2]

وكان رشيد الهَجَري من خواص أصحاب أمير المؤمنين، أتي به إلى زياد لعنه الله.

فقال زياد: ما قال لك خليلك أنّا فاعلون بك؟ قال: تقطعون يدي ورجلي وتصلبونني.

فقال زياد: أما والله لأكذبّن حديثه، خلّوا سبيله. فلما أراد أن يخرج

---

(١) البحار م ٩ ص ٦٣٠.

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٦٦٩.

قال: ردّوه لا نجد لك شيئاً أصلح مما قال صاحبك، إنك لن تزال تبغي سوءاً إنْ بقيتَ، اقطعوا يديه ورجليه وهو يتكلم، وقال: إصلبوه خنقاً في عنقه[١].

ولنستمع إلى كلمات أصحاب الإمام الخالدة، والمعربة عن شدة حبهم للإمام (ع)، وثباتهم على موالاته، وتفانيهم في سبيله:

فهذا عمرو بن الحمق يخاطب أمير المؤمنين (ع) فيقول: «والله يا أمير المؤمنين، إنّي ما أجبتك ولا بايعتك على قرابة بيني وبينك، ولا إرادة مال تؤتينه، ولا إرادة سلطان ترفع به ذكري، ولكنّي أجبتك بخصال خمس:

إنك ابن عم رسول الله، وأول من آمن به، وزوج سيدة نساء الأمة فاطمة بنت محمد، ووصيه، وأبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأسبق الناس إلى الإسلام، وأعظم المهاجرين سهماً في الجهاد.

فلو أني كلفت نقل الجبال الرواسي، ونزح البحور الطوامي، حتى يؤتى عليّ في أمر أقوي به وليّك، وأهين به عدوك، ما رأيت أني قد أديّت فيه كل الذي يحق عليّ من حقك.

فقال علي (ع): «اللهم نوّر قلبه بالتقى، واهده إلى صراطك المستقيم، ليت أن في جندي مائة مثلك، فقال حجر: إذاً والله يا أمير المؤمنين صحّ جندك، وقلّ فيهم من يغشك»[٢].

وروي أنّ أمير المؤمنين قال لحجر بن عُدي الطائي: كيف بك إذا دُعيت إلى البراءة مني، فما عساك أن تقول؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين لو قطّعت بالسيف إرباً إرباً، وأضرمت لي النار وألقيت فيها لآثرت ذلك على البراءة منك. فقال: «وُفّقت لكل خير يا حجر، جزاك الله خيراً عن أهل بيت نبيك»[٣].

وقال هاشم المرقال وكان على ميسرة أمير المؤمنين بصفين: والله ما أحبّ أنّ لي ما على الأرض مما أقلت، وما تحت السماء مما أظلّت، وإني واليت عدواً

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٥٢٢.
(٢) البحار م ٨ ص ٤٧٥.
(٣) سفينة البحار ج ١ ص ٢٢٦.

لك أو عاديت ولياً لك.

فقال له أمير المؤمنين: «اللهم ارزقنه الشهادة في سبيلك والمرافقة لنبيك»[١].

وروي أنّ أسوداً دخل على علي (ع) فقال: يا أمير المؤمنين إني سرقت فطّهرني.

فقال: لعلّك سرقت من غير حرز ونحّى رأسه عنه. فقال: يا أمير المؤمنين، سرقت من حرز فطهرني. فقال (ع): لعلّك سرقت غير نصاب، ونحّى رأسه عنه. فقال: يا أمير المؤمنين سرقت نصاباً، فلما أقر ثلاث مرات قطعه أمير المؤمنين، فذهب وجعل يقول في الطريق: قطعني أمير المؤمنين، وإمام المتقين، وقائد الغر المحجلين، ويعسوب الدين، وسيد الوصيين، وجعل يمدحه، فسمع ذلك منه الحسن والحسين وقد استقبلا فدخلا على أمير المؤمنين (ع) وقالا: رأينا أسوداً يمدحك في الطريق، فبعث أمير المؤمنين (ع) من أعاده إلى عنده، فقال (ع): قطعتك وأنت تمدحني. فقال: يا أمير المؤمنين إنك طهرتني، وإنّ حبّك قد خالط لحمي وعظمي، فلو قطعتني إرباً إرباً لما ذهب حبّك من قلبي. فدعا له أمير المؤمنين (ع)، ووضع المقطوع إلى موضعه فصح وصلح كما كان»[٢].

ولقد سما الحسين (ع) وأهل بيته الطاهرون وأصحابه الأكرمون إلى أوج رفيع، تنحطّ دونه الهمم والآمال في الثبات على المبدأ والتمسك بالحق، رغم حراجة الموقف، ومعاناة أفدح الخطوب والأهوال.

وقف الحسين (ع) يوم عاشوراء، وقد أحاط به ثلاثون ألف مقاتل، يبغون إذلاله وقتله، فصرخ في وجوههم صرختـه المدوّية، وأعلن عن إبائه وشموخه بكلماته الخالدة المجلجلة في مسمع الدهر، والتي لا تزال دستوراً حيّاً يقدسه الأباة والأحرار:

---

(١) سفينة البحار ج ٢ ص ٧١٦.

(٢) البحار م ٩ ص ٥٥٧.

«ألا وإنّ الدعيّ ابن الدعيّ، قد ركز بين اثنتين، بين السِلّة والذلّة، وهيهات منّا الذلة، يأبى الله ذلك لنا ورسوله والمؤمنون، وحجور طابت وطهرت، وأنوف حميّة، ونفوس أبيّة، من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام».

ويؤكد الحسين (ع) ثباته على المبدأ مؤثراً في سبيله القتل والفداء على الحياة الخانعة الذليلة «والله لا أعطيكم بيدي إعطاء الذليل، ولا أقر لكم إقرار العبيد».

«إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً».

وهكذا اقتفى أصحاب الحسين عليهم السلام نهجه ومثاليته في الصمود والثبات على المبدأ، ومفاداته بأعزّ النفوس والأرواح. خطبهم الحسين (ع) خطبة ملؤها الحبّ والإعجاب والإشفاق:

«أما بعد فإني لا أعلم أصحاباً أوفى ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل ولا أفضل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً، الا وإني لأظن يوماً لنا من هؤلاء الأعداء، ألا وإني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حلّ ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً ثم ليأخذ كل رجل منكم يد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم حتى يفرّج الله، فإن القوم إنما يطلبوني، ولو قد أصابوني للهوا عن طلب غيري».

فقام إليه مسلم بن عوسجة فقال: أنحن نخّلي عنك!! ولمّا نعذر إلى الله في أداء حقك، أما والله حتى أطعن في صدورهم برمحي، وأضربهم بسيفي، ما ثبت قائمة في يدي، ولو لم يكن معي سلاح أقاتلهم به، لقذفتهم بالحجارة، والله لانخليك حتى يعلم الله أنّا قد حفظنا عيبة رسول الله (ص) فيك. والله لو علمت أني أقتل، ثم أحيى، ثم أقتل، ثم أحرق، ثم أذرى، ثم يُفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك، حتى ألقى حمامي دونك، وكيف لا أفعل ذلك وإنما هي قتلة واحدة، ثم هي الكرامة العظمى التي لا انقضاء لها أبداً.

وقام إليه زهير بن القين فقال: والله لوددت أني قُتلت، ثم انشرت، ثم

قتلت، حتى أقتل هكذا ألف مرة، وأنّ الله جلّ وعز يدفع بذلك القتل عن نفسك ونفوس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك.

وتكلم جماعة أصحابه بكلام يشبه بعضه بعضاً، فقالوا: والله لا نفارقك، ولكن أنفسنا لك الفداء، نقيك بنحورنا وجباهنا وأيدينا، فإذا نحن قُتلنا، كنّا وفّينا وقضينا ما علينا(١).

وهكذا طفق أصحاب الحسين (ع) يعربون عن ثباتهم وتفانيهم في ولائه ونصرته والذّب عنه، بأروع مفاهيم البطولة والفداء.

وما أحوج المسلمين اليوم أن يستلهموا جهاد أولئك العظماء الأفذاذ، ويقتفوا آثارهم، في التمسك بالدين، والثبات على المبدأ، والتفاني في نصرة الحق، ليستردوا مجدهم الضائع، وعزهم السليب، وينقذوا أنفسهم من هوان الهزائم الفاضحة والنكسات المتتالية، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

---

(١) عن نفس المهموم للمرحوم الحجة الشيخ عباس القمي ص ١٢١ بتصرف بسيط.

القسم الثاني

في الحقوق والواجبات

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع):

«الحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحدٍ إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجرى عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه. ولكن جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليها مضاعفة الثواب تفضلاً منه، وتوسعاً بما هو من المزيد أهله. ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها، ويوجب بعضها بعضاً، ولا يستوجب بعضها إلا ببعض».

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

وبعد:

فإن الإنسان مدني بالطبع، لا يستغني عن أبناء جنسه، ولا يستطيع اعتزالهم والتخلف عن مسايرة ركبهم، فإنه متى انفرد عنهم أحس بالوحشة والغربة، واستشعر الوهن والخذلان، إزاء طوارىء الأقدار وملمات الحياة، وعجز عن تحقيق ما يصبو إليه من أماني وآمال، لا يتسنى له تحقيقها إلا بالتضامن والتآزر الاجتماعيين.

فهو فرع من دوحة أسرية وشجت على الآباء، وتفرعت عن الأبناء، فالأعمام والأخوال، وامتدت أغصانها حتى انتضمت سائر الأقرباء والأرحام.

وهو عنصر من عناصر المجتمع، ولبنة في كيانه، تتجاذبه أواصر شتى وصلات مختلفة: من العقيدة، والصداقة، والثقافة، والمهنة، وغيرها من الصلاة الكثر.

وهذا الترابط الاجتماعي، أو المجتمع المترابط، لا بد له من دستور ينظم حياته، ويوثق أواصره، ويحقق العدل الاجتماعي في ظلاله، بما يرسمه من حقوق

وواجبات، فردية واجتماعية، تضمن صالح المجتمع، وتصون حقوقه وحرماته المقدسة.

وبذلك يغدو المجتمع زاهراً، سعيداً بالوئام والسلام، والخير والجمال. وبإغفال ذلك يغدو المجتمع بائساً شقياً، تسوده الفوضى، ويشيع فيه التسيب، وتنخر في كيانه عوامل التخلف والانهيار.

وقد حوت الشريعة الإسلامية ـ فيما حوته من ضروب المعجزات الإصلاحية ـ انها جاءت بدستور أخلاقي هادف بناء، ينظم حياة الفرد وحياة المجتمع أفضل وأكمل تنظيم، بما يرسم له من حقوق وآداب اجتماعية في مختلف الحقول والمجالات، ما يحقق للمسلمين مفاهيم السلام والرخاء، ويكفل إسعادهم أدبياً ومادياً.

من أجل ذلك كان لزاماً على المسلم أن يستلهم ذلك الدستور، ويعرف ماله وعليه من الواجبات والحقوق، ويعني بتطبيقه والسير على هداه، ليكون مثلاً رفيعاً في جمال السيرة وحسن السلوك، ورعاية حقوق من ينتسب إليهم، ويرتبط بهم من صنوف الروابط والصلات الاجتماعية، وليحقق بذلك ما يهفو إليه من توقير وحب وثناء.

وهذا ما حداني إلى وضع هذا الكتاب، الذي خططته ورسمت مفاهيمه على ضوء القرآن الكريم، وأخلاق أهل البيت عليهم السلام ووصاياهم الحكيمة الجليلة، وعرضت فيه طائفة من أهم الحقوق، وأبلغها أثراً في حياة الفرد والمجتمع، مبتدئاً فيه بحقوق الله على العباد، فحقوق رسوله الأعظم (ص)، فحقوق الأئمة المعصومين من آله عليهم السلام. ثم استعرضت الحقوق واحداً إثر آخر، متدرجاً من حقوق العلماء إلى حقوق الأساتذة والطلاب، فالوالدين والأولاد، والزوجية والرحمية، إلى الحقوق الاجتماعية الأخرى التي يجدها المطالع في حقول الكتاب.

وأملي أن يجد فيه المؤمنون رائد خير، وداعية صلاح، ومنار هداية. وأن يحظى بشرف قبول الله تعالى، وجميل رضوانه، وواسع لطفه ورحمته إنه قريب مجيب.

الحقوق الإلهية

تتفاوت الحقوق بتفاوت أربابها، وقيم عطفهم وفضلهم على المحسنين إليهم.

فللصديق حق معلوم، ولكنه دون حق الشقيق البار العطوف، الذي جمع بين آصرة القربى وجمال اللطف والحنان.

وحق الشقيق دون حق ا والدين، لجلالة فضلهما على الولد وتفوقه على كل فضل.

وبهذا التقييم ندرك عظمة الحقوق الإلهية، وتفوقها على سائر الحقوق، فهو المنعم الأعظم الذي خلق الإنسان، وحباه من صنوف النعم والمواهب ما يعجز عن وصفه وتعداده، ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض، وأسبغ عليكم نعمه ظاهرةً وباطنة﴾ (لقمان: ٢٠).

﴿وأن تعدوا نعمة الله لا تحصوها﴾ (ابراهيم: ٣٤).

فكيف يستطيع الإنسان حد تلك الحقوق وعرضها، والاضطلاع بواجب شكرها، إلا بعون الله تعالى وتوفيقه.

فلا مناص من الإشارة إلى بعضها والتلويح عن واجباتها، وهي بعد إحراز الإيمان بالله، والاعتقاد بوحدانيته، واتصافه بجميع صفات الكمال وتنزيهه عما لا يليق بجلال ألوهيته.

١ ـ العبادة

قال علي بن الحسين (ع): «فأما حق الله الأكبر فإنك تعبده، لا تشرك به شيئاً، فإذا فعلت ذلك بإخلاص، جعل لك على نفسه أن يكفيك أمر الدنيا والآخرة، ويحفظ لك ما تحب منها»[1].

والعبادة لغةً، هي غاية التذلل والخضوع، لذلك لا يستحقها إلا المنعم

(١) رسالة الحقوق للإمام علي بن الحسين (ع).

الأعظم الذي له غاية الافضال والانعام، وهو الله عز وجل.

واصطلاحاً هي: المواظبة على فعل المأمور به.

وناهيك في عظمة العبادة وجليل آثارها وخصائصها في حياة البشر: إن الله عز وجل جعلها الغاية الكبرى من خلقهم وإيجادهم، حيث قال: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون، إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين﴾ (الذاريات: ٥٦ ـ ٥٨).

وبديهي أن الله تعالى غني عن العالمين، لا تنفعه طاعة المطيعين وعبادتهم، ولا تضره معصية العصاة وتمردهم، وإنما فرض عبادته على الناس لينتفعوا بخصائصها وآثارها العظيمة، الموجبة لتكاملهم وإسعادهم.

فمن خصائص العبادة: أنها من أقوى الأسباب والبواعث على تركيز العقيدة ورسوخ الإيمان في المؤمن، لتذكيرها بالله عز وجل ورجاء ثوابه، والخوف من عقابه، وتذكيرها بالرسول الأعظم، فلا ينساه ولا ينحرف عنه.

فإذا ما أغفل المؤمن عبادة ربه نساه، وتلاشت في نفسه قيم الإيمان ومفاهيمه، وغدا عرضة للإغواء والضلال. فالعقيدة هي الدوحة الباسقة التي يستظل المسلمون في ظلالها الوارفة الندية، والعبادة هي التي تصونها وتمدها بعوامل النمو والازدهار.

والعبادة بعد هذا من أكبر العوامل على التعديل والموازنة، بين القوى المادية والروحية، التي تتجاذب الإنسان وتصطرع في نفسه، ولا تتسنى له السعادة والهناء إلا بتعادلها. ذلك، أن طغيان القوى المادية واستفحالها يسترق الإنسان بزخارفها وسلطانها الخادع، وتجعله ميالاً إلى الأثرة والأنانية، واقتراف الشرور والآثام، في تحقيق أطماعه المادية.

فلا مناص ـ والحالة هذه ـ من تخفيف جماح المادة والحد من ضراوتها، وذلك عن طريق تعزيز الجانب الروحي في الإنسان، وإمداده بطاقة روحية، تعصمه من الشرور وتوجهه وجهة الخير والصلاح. وهذا ما تحققه العبادة

بإشعاعاتها الروحية، وتذكيرها المتواصل بالله تعالى، والدأب على طاعته وطلب رضاه.

والعبادة بعد هذا وذاك: اختبار للمؤمن واستجلاء لأبعاد إيمانه. فالإيمان سر قلبي مكنون، لا يتبين إلا بما يتعاطاه المؤمن من ضروب الشعائر والعبادات، الكاشفة عن مبلغ إيمانه وطاعته لله تعالى.

وحيث كانت العبادة تتطلب عناءاً وجهداً، كان أداؤها والحفاظ عليها دليلاً على قوة الإيمان ورسوخه، وإغفالها دليلاً على ضعفه وتسيبه.

فالصلاة... كبيرة إلا على الخاشعين. والصيام.. كف النفس عن لذائذ الطعام والشراب والجنس. والحج.. يتطلب البذل والمعاناة في أداء مناسكه. والزكاة.. منح المال الذي تعتز به النفس وتحرص عليه. والجهاد: هو الإقدام على التضحية والفداء في سبيل الواجب، وكلها أمور شاقة على النفس.

من أجل ذلك كان أداء العبادة والقيام بها برهاناً ساطعاً على إيمان صاحبها وطاعته لله عز وجل.

٢ ـ الطاعة:

وهي الخضوع لله عز وجل وامتثال جميع أوامره ونواهيه.

ولا ريب أنها من أشرف المزايا، وأجل الخلال الباعثة على سعادة المطيع وفوزه بشرف الدنيا والآخرة، كما نوهت بها الآيات الكريمة والأخبار الشريفة:

قال تعالى: ﴿ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً﴾ (الأحزاب: ٧١).

وقال سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتول يعذبه عذاباً أليماً﴾ (الفتح: ١٧).

وقال الإمام الحسن الزكي (ع): «وإذا أردت عزاً بلا عشيرة، وهيبة بلا سلطان، فاخرج من ذل معصية الله إلى عز طاعة الله عز وجل».

وقال الصادق (ع): «اصبروا على طاعة الله، وتصبروا عن معصية الله، فإنما الدنيا ساعة، فما مضى فلست تجد له سروراً ولا حزناً، وما لم يأت فلست

تعرفه، فاصبر على تلك الساعة التي أنت فيها فكأنك قد اغتبطت»[1].

٣ ـ الشكر:

وهو: عرفان نعمة المنعم، وشكره عليها، واستعمالها في مرضاته.

والشكر خلة مثالية يقدسها العقل والشرع، ويحتمها الضمير والوجدان، إزاء المحسنين من الناس. فكيف بالمنعم الأعظم الذي لا تحصى نعماؤه، ولا تعد آلاؤه؟

من أجل ذلك حثت الشريعة على التحلي به، في نصوص عديدة من الآيات والروايات.

قال تعالى: ﴿وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم، ولئن كفرتم إن عذابي لشديد﴾ (ابراهيم: ٧).

وقال الصادق (ع): «من أعطي الشكر أعطي الزيادة، يقول الله عز وجل ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾[2].

وقال رسول الله (ص): «الطاعم الشاكر، له من الأجر كأجر الصائم المحتسب. والمعافى الشاكر، له من الأجر كأجر المبتلى الصابر. والمعطي الشاكر، له من الأجر كأجر المحروم القانع»[3].

٤ ـ التوكل:

وهو: الاعتماد على الله عز وجل في جميع الأمور، وتفويضها إليه، والإعراض عما سواه.

والتوكل، هو من أجل خصائص المؤمنين ومزاياهم المشرفة، الموجبة لعزتهم وسمو كرامتهم وارتياح ضمائرهم، بترفعهم عن الاتكال والاستعانة

---

(١) الوافي، ج ٢ ص ٦٣، عن الكافي.
(٢) الوافي، ج ٢ ص ٦٧، عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٦٧ عن الكافي.

بالمخلوقين، ولجوئهم وتوكلهم على الخلاق العظيم القدير في كسب المنافع ودرء المضار.

لذلك تواترت الآيات والآثار في تمجيد هذا الخالق، والتشويق إليه.

قال تعالى: ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكل المؤمنون﴾ (آل عمران: ١٦).

وقال تعالى: ﴿ومن يتوكل على الله فهو حسبه﴾ (الطلاق: ٣).

وقال الصادق (ع): «إن الغنى والعز يجولان، فإذا ظفرا بموضع التوكل أوطنا»[١].

وقال أمير المؤمنين (ع) في وصيته للحسن (ع): «والجىء نفسك في الأمور كلها إلى إلهك، فإنك تلجئها إلى كهف حريز، ومانع عزيز»[٢].

حقوق النبي (ص)

كان نبينا الأعظم محمد (ص)، المثل الأعلى في سائر نواحي الكمال، اصطفاه الله من الخلق واختاره من العباد، وحباه بأرفع الخصائص والمواهب التي حبا بها الأنبياء عليهم السلام، وجمع فيه ما تفرق فيهم من صنوف العظمات والأمجاد ما جعله سيدهم وخاتمهم.

وناهيك في عظمته أنه استطاع بجهوده الجبارة ومبادئه الخالدة، أن يحقق في أقل من ربع قرن من الانتصارات الروحية والمكاسب الدينية، ما لم يستطع تحقيقه سائر الأنبياء والشرائع في أكثر من قرون.

جاء بأكمل الشرائع الإلهية، وأشدها ملائمة لأطوار الحياة، وأكثرها تكفلاً بإسعاد الإنسان مادياً وروحياً، ديناً ودنياً، فأخرج الناس من ظلمة الكفر إلى نور الإسلام، ومن شقاء الجاهلية إلى السعادة الأبدية. وجعل أمته أكمل الأمم ديناً،

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٥٦ عن الكافي.

(٢) نهج البلاغة (ومن شاء التوسع في الأبحاث الثلاثة، الطاعة والشكر والتوكل، فليرجع إلى القسم الأول من هذا الكتاب).

وأوفرهم علماً، وأسماهم أدباً وأخلاقاً، وأرفعهم حضارة ومجداً.

وقد عانى في سبيل ذلك من ضروب الشدائد والأهوال، ما لم يعانه أي نبي.

من أجل ذلك، فإن القلم عاجز عن تعداد أياديه، وحصر حقوقه على المسلمين، سيما في هذه الرسالة الوجيزة، فلا بد من الإشارة إليها والتلويح عنها.

وهي، بعد الإيمان بنبوته، وتصديقه فيما جاء به من عند الله عز وجل، والاعتقاد بأنه سيد الرسل، وخاتم الأنبياء:

١ ـ طاعته:

وطاعة النبي فرض محتم على الناس، كطاعة الله تعالى، إذ هو سفيره إلى العباد، وأمينه على الوحي، ومنار هدايته الوضاء.

وواقع الطاعة هو: اتباع شرعته، وتطبيق مبادئه الخالدة، التي ما سعد المسلمون ونالوا آمالهم وأمانيهم، إلا بالتمسك بها والحفاظ عليها. وما تخلفوا واستكانوا إلا بإغفالها والانحراف عنها.

انظر كيف يحرض القرآن الكريم على طاعة النبي (ص)، ويحذر مغبة عصيانه ومخالفته، حيث قال:

﴿وما آتاكم الرسول فخذوه، وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ (الحشر: ٧).

وقال تعالى: ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً، أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً﴾ (الأحزاب: ٣٦).

وقال سبحانه: ﴿ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله، ويتعد حدوده يدخله ناراً خالداً فيها، وله عذاب مهين﴾ (النساء: ١٣ ـ ١٤).

وقال عز وجل: ﴿ إن الذين يحادون الله ورسوله، أولئك في الأذلين. كتب الله لأغلبن أنا ورسلي، إن الله قوي عزيز﴾ (المجادلة: ٢٠ ـ ٢١).

٢ ـ محبته:

تختلف دواعي الحب والإعجاب باختلاف نزعات المحبين وميولهم، فمن الناس من يحب الجمال ويقدسه، ومنهم من يحب البطولة والأبطال ويمجدهم، ومنهم من يحب الأريحية ويشيد بأربابها.

وقد اجتمع في النبي الأعظم (ص) كل ما يفرض المحبة ويدعو إلى الإعجاب، حيث كان نموذجاً فذاً، ونمطاً فريداً بين الناس. لخص الله فيه آيات الجمال والكمال، وأودع فيه أسرار الجاذبية، فلا يملك المرء أزاءه إلا الحب والإجلال، وهذا ما تشهد به شخصيته المثالية، وتأريخه المجيد.

قال أمير المؤمنين (ع) وهو يصف شمائل رسول الله (ص):

«كان نبي الله أبيض اللون، مشرباً حمرة، أدعج العين، سبط الشعر، كث اللحية، ذا وفرة، دقيق المسربة، كأنما عنقه إبريق فضة يجري في تراقيه الذهب، له شعر من لبته إلى سرته كقضيب خيط، وليس في بطنه ولا صدره شعر غيره، شثن الكفين والقدمين، إذا مشى كأنه ينقلع من صخر، إذا أقبل كأنما ينحدر من صبب، إذا التفت التفت جميعاً بأجمعه، ليس بالقصير ولا بالطويل، كأنما عرقه في وجهه اللؤلؤ، عرقه أطيب من المسك»[(١)].

وقال (ع) وهو يصف أخلاق الرسول (ص):

«كان أجود الناس كفاً، وأجرأ الناس صدراً، وأصدق الناس لهجة، وأوفاهم ذمة، وألينهم عريكة، وأكرمهم عشرة، من رآه بديهة هابه، ومن خالطه فعرفه أحبه، لم أر مثله قبله ولا بعده»[(٢)].

ولأجل تلك الشمائل والمآثر، أحبه الناس على اختلاف ميولهم في الحب:

---

(١) البحار م ٦ في أوصاف خلقه وشمائله.

(٢) سفينة البحار م ٢ ص ٤١٤.

أحبه الأبطال لبطولته الفذة التي لا يجاريه فيها بطل مغوار، وأحبه الكرام إذ كان المثل الأعلى في الأريحية والسخاء، وأحبه العباد لتولهه في العبادة وفنائه في ذات الله، وأحبه أصحابه المخلصون لمثاليته الفذة في الخَلق والخُلق.

قال أمير المؤمنين (ع): «جاء رجل من الأنصار إلى النبي (ص)، فقال: يا رسول الله ما أستطيع فراقك، وإني لأدخل منزلي فأذكرك، فأترك ضيعتي وأقبل حتى أنظر إليك حباً لك، فذكرت إذا كان يوم القيامة، وأدخلتَ الجنة، فرفعت في أعلى عليين، فكيف لي بك يا نبي الله؟، فنزل: ﴿ومن يطع الله والرسول، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا﴾ (النساء: ٦٩) فدعا النبي (ص) الرجلَ فقرأها عليه وبشره بذلك»[١].

وقال أنس: جاء رجل من أهل البادية، وكان يعجبنا أن يأتي الرجل من أهل البادية يسأل النبي (ص)، فقال: يا رسول الله متى قيام الساعة؟

فحضرت الصلاة، فلما قضى صلاته، قال: أين السائل عن الساعة؟

قال: أنا يا رسول الله. قال: فما أعددتَ لها؟

قال: والله ما أعددت لها من كثير عمل صلاة ولا صوم، إلا أني أحب الله ورسوله.

فقال له النبي (ص): المرء مع من أحب.

قال أنس: فما رأيت المسلمين فرحوا بعد الإسلام بشيء أشد من فرحهم بهذا[٢].

وعن أبي عبدالله (ع)، قال: كان رجل يبيع الزيت، وكان يحب رسول الله (ص) حباً شديداً، كان إذا أراد أن يذهب في حاجة لم يمض حتى ينظر إلى رسول الله (ص)، قد عرف ذلك منه، فإذا جاء تطاول له حتى ينظر إليه. حتى

---

(١) البحار م ٦ في باب وجوب طاعته وحبه.

(٢) البحار م ٦، باب وجوب طاعته وحبه، عن علل الشرائع.

إذا كان ذات يوم، دخل فتطاول لـه رسول الله (ص) حتى نـظر إليه ثم مضى في حـاجتـه، فلم يكن بـأسرع من أن رجـع، فلما رآه رسـول الله (ص) قـد فعـل ذلك، أشار إليه بيده أجلس، فجلس بين يديه، فقال: مالك فعلت اليـوم شيئاً لم تكن تفعله قبل؟

فقـال: يا رسـول الله، والـذي بعثـك بـالحق نبيـاً، لغشي قلبي شيء من ذكرك حتى ما استطعت أن أمضي في حاجتي، ولذا رجعت إليك. فدعا له وقال له خيراً.

ثم مكث رسول الله (ص) أياماً لا يراه، فلما فقده سأل عنه، فقيل له: يا رسول الله ما رأيناه منذ أيـام. فانتعـل رسول الله (ص) وانتعـل معه أصحـابه، فـانطلق حتى أتى سـوق الزيت، فـإذا دكان الـرجل ليس فيـه أحد، فسـأل عنه جيرته، فقالوا: يا رسول الله، مات. . ولقد كان عندنا أميناً صدوقاً، إلا أنه قد كان فيه خصلة، قال: وما هي؟ قالوا: كان يزهق (يعنون، يتبع النسـاء). فقال رسول الله (ص): لقد كان يحبني حباً، لو كان بخاساً لغفر الله له[1].

٣ ـ الصلاة عليه:

قـال تعالى: ﴿إن الله ومـلائكته يصلون عـلى النبي، يا أيهـا الذين آمنـوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ (الأحزاب: ٥٦).

درج الناس على إجلال العظماء وتوقيرهم بما يستحقونه من صور الإجـلال والتوقير، تكريماً لهم وتقديراً لجهودهم ومساعيهم في سبيل أممهم.

ومن هنا كان السلام الجمهوري والتحيـة العسكريـة فرضـاً على الجنـود، تبجيلاً لقادتهم وإظهاراً لإخلاصهم لهم.

فلا غرابـة أن يكون من حقـوق النبي (ص) على أمتـه ـ وهو سيـد الخلق وأشرفهم جميعـاً ـ تعظيمـه والصلاة عليـه، عند ذكـر اسمه المبـارك أو سمـاعـه،

---

(١) الـوافي ج ٣، ص ١٤٣ ـ ١٤٤. الـزهق: غشيـان المحارم. والبخس: النقص في المكيـال والميزان.

وغيرهما من مواطن الدعاء.

وقد أعربت الآية الكريمة عن بالغ تكريم الله تعالى وملائكته للنبي (ص) ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾، ثم وجهت الخطاب إلى المؤمنين بضرورة تعظيمه والصلاة والسلام عليه ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾.

وجاءت نصوص أهل البيت عليهم السلام توضح خصائص ورغبات الصلاة عليه، بأسلوب شيق جذاب.

فمن ذلك ما جاء عن ابن أبي حمزة عن أبيه، قال: سألت أبا عبدالله (ع) عن قول الله عز وجل: ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما﴾. فقال: الصلاة من الله عز وجل رحمة، ومن الملائكة تزكية، ومن الناس دعاء. وأما قوله عز وجل: ﴿وسلموا تسليما﴾، فإنه يعني بالتسليم له فيما ورد عنه. قال: فقلت له: فكيف نصلي على محمد وآله؟

قال: تقولون: «صلوات الله وصلوات ملائكته وأنبيائه ورسله وجميع خلقه على محمد وآل محمد، والسلام عليه وعليهم ورحمة الله وبركاته».

قال: فقلت فما ثواب من صلى على النبي وآله بهذه الصلاة؟

قال: الخروج من الذنوب، والله كهيئة يوم ولدته أمه[1].

وقال الصادق (ع): «من صلى على محمد وآل محمد عشراً صلى الله عليه وملائكته مائة مرة، ومن صلى على محمد وآل محمد مائة صلى الله عليه وملائكته ألفاً، أما تسمع قول الله تعالى: ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته، ليخرجكم من الظلمات إلى النور، وكان بالمؤمنين رحيماً﴾[2] (الأحزاب: ٤٣).

وقال الصادق (ع): كل دعاء يدعى الله تعالى به، محجوب عن السماء حتى يصلى على محمد وآل محمد[3].

---

(١) البحار م ١٩، ص ٧٨، عن معاني الأخبار للصدوق (ره).

(٢) الوافي ج ٥، ص ٢٢٨، عن الكافي.

(٣) الوافي ج ٥، ص ٢٢٧، عن الكافي.

وعن أحدهما عليهما السلام قال: ما في الميزان شيء أثقل من الصلاة على محمد وآل محمد، وإن الرجل ليوضع أعماله في الميزان فيميل به، فيخرج (ص) «الصلاة عليه» فيضعها في ميزانه، فيرجح به[1].

وقال الرضا (ع): من لم يقدر على ما يكفّر به ذنوبه، فليكثر من الصلاة على محمد وآله، فإنها تهدم الذنوب هدماً[2].

وجاء في الصواعق (ص ٨٧)، قال: ويروى «لا تصلوا عليَّ الصلاة البتراء. فقالوا: وما الصلاة البتراء؟ قال: تقولون «اللهم صل على محمد» وتمسكون. بل قولوا: اللهم صل على محمد وآل محمد»[3].

٤ ـ مودة أهل بيته الطاهرين:

الذين فرض الله مودتهم في كتابه، وجعلها أجر الرسالة، وحقاً مفروضاً من حقوق النبي (ص)، فقال تعالى: ﴿قل لا أسئلكم عليه أجراً إلا المودة في القربى، ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً، إن الله غفور شكور﴾ (الشورى: ٢٣).

وقد اتصف أهل البيت عليهم السلام بجميع دواعي الإعجاب والإكبار، وبواعث الحب والولاء، كما وصفهم الشاعر:

من معشر حبهم دين وبغضهم ... كفر وقربهم منجى ومعتصم
إن عدّ أهل التقى كانوا أئمتهم ... أو قيل من خير أهل الأرض قيل هم

نعم هم صفوة الخلق، وحجج العباد، وسفن النجاة، وخير من أقلته الأرض وأضلته السماء ـ بعد جدهم الأعظم (ص) ـ حسباً ونسباً وفضائل وأمجاداً.

وكيف يرتضي الوجدان السليم محبة النبي (ص) دون أهل بيته

---

(١) الوافي ج ٥، ص ٢٢٨، عن الكافي.
(٢) البحار م ١٩، ص ٧٦، عن عيون أخبار الرضا وأمالي الشيخ الصدوق (ره).
(٣) فضائل الخمسة، من الصحاح الستة.

الطاهرين، الجديرين بأصدق مفاهيم الحب والود، إنها ولا ريب محبة زائفة تنمّ عن نفاق ولؤم، كما جاء عن عبدالله بن مسعود قال: كنا مع النبي (ص) في بعض أسفاره، إذ هتف بنا أعرابي بصوت جهوري، فقال: يا محمد. فقال له النبي (ص): ما تشاء؟ فقال: المرء يحب القوم ولا يعمل بأعمالهم، فقال النبي (ص): المرء مع من أحب. فقال: يا محمد، اعرض عليَّ الإسلام. فقال: إشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم شهر رمضان، وتحج البيت.

فقال: يا محمد، تأخذ على هذا أجراً؟ فقال: لا، إلا المودة في القربى. قال: قرباي أو قرباك؟ فقال: بل قرباي. قال: هلمّ يدك حتى أبايعك، لا خير فيمن يودّك ولا يودّ قرباك[١].

وقد أجمع الإمامية أنّ المراد بالقربى في الآية الكريمة، هم الأئمة الطاهرون من أهل البيت عليهم السلام، ووافقهم على ذلك ثلة من أعلام غيرهم من المفسرين والمحدثين، كأحمد بن حنبل، والطبراني، والحاكم عن ابن عباس. كما نص عليه ابن حجر، في الفصل الأول من الباب الحادي عشر من صواعقه، قال: لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال (ص): علي وفاطمة وابناهما[٢].

انظر، كيف يحرض النبي (ص) أمته على مودة قرباه وأهل بيته، كما يحدثنا به رواة الفريقين:

فمما ورد من طرقنا:

عن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): من أحبنا أهل البيت فليحمد الله على أول النعم. قيل: وما أول النعم؟ قال: طيب الولادة، ولا يحبنا إلا من طابت ولادته[٣].

---

(١) البحار م ٧، ص ٣٨٩، عن مجالس الشيخ المفيد (ره).
(٢) انظر الكلمة الغراء في تفضيل الزهراء، للإمام شرف الدين (ره) ص ١٨.
(٣) البحار م ٧، ص ٣٨٩، عن علل الشرائع ومعاني الأخبار وأمالي الصدوق (ره).

وعن أبي جعفر الباقر عن أبيه عن جده عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): حبي وحب أهل بيتي نافع في سبعة مواطن، أهوالهن عظيمة: عند الوفاة، وفي القبر، وعند النشور، وعند الكتاب، وعند الحساب، وعند الميزان، وعند الصراط[١].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): لو أن عبداً عبد الله ألف عام، ثم ذبح كما يذبح الكبش، ثم أتى الله ببغضنا أهل البيت، لرد الله عليه عمله[٢].

وعن الباقر (ع) عن النبي (ص) قال: لا تزول قدم (قدما خ ل) عبد يوم القيامة من بين يدي الله، حتى يسأل عن أربع خصال: عمرك فيما أفنيته، وجسدك فيما أبليته، ومالك من أين اكتسبته وأين وضعته، وعن حبنا أهل البيت»[٣].

وعن الحَكم بن عتيبة، قال: بينا أنا مع أبي جعفر (ع)، والبيت غاص بأهله، إذ أقبل شيخ يتوكأ على عنزة له، حتى وقف على باب البيت فقال: السلام عليك يابن رسول الله ورحمة الله وبركاته، ثم سكت. فقال أبو جعفر: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. ثم أقبل الشيخ بوجهه على أهل البيت وقال: السلام عليكم، ثم سكت، حتى أجابه القوم جميعاً وردّوا عليه السلام. ثم أقبل بوجهه على أبي جعفر (ع)، ثم قال: يا بن رسول الله أدنني منك، جعلني الله فداك، فوالله إني لأحبكم وأحب من يحبكم، ووالله ما أحبكم وما أحب من يحبكم لطمع في دنيا. وإني لأبغض عدوكم وأبرأ منه، ووالله ما أبغضه وأبرأ منه لوترٍ كان بيني وبينه. والله إني لأحلّ حلالكم، وأحرم حرامكم، وأنتظر أمركم. فهل ترجو لي، جعلني الله فداك؟!

فقال أبو جعفر (ع): «إليّ... إليّ، حتى أقعده إلى جنبه. ثم قال: أيها

(١) البحار م٧، ص ٣٩١، عن الخصال.

(٢) البحار م ٧، ص ٣٩٧، عن محاسن البرقي.

(٣) البحار م ٧، ص ٣٨٩، عن مجالس الشيخ المفيد.

الشيخ، إن أبي علي بن الحسين (ع)، أتاه رجل فسأله عن مثل الذي سألتني عنه، ففال له أبي: إن تمت ترد على رسول الله (ص) وعلي والحسن والحسين وعلي بن الحسين عليهم السلام، ويثلج قلبك، ويبرد فؤادك، وتقر عينيك، وتستقبل بالرَّوح والريحان مع الكرام الكاتبين لو قد بلغت نفسك هاهنا ـ وأهوى بيده إلى حلقه ـ وان تعش تر ما يقر الله به عينك، وتكون معنا في السنام الأعلى ـ الخ[1].

ومما جاء من طرق إخواننا:

وأخرج ابن حنبل والترمذي، كما في الصواعق ص ٩١: انه (ص) أخذ بيد الحسنين وقال: من أحبني وأحب هذين وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة[2].

وأخرج الثعلبي في تفسيره الكبير، قال: قال رسول الله (ص): ألا من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مغفوراً له، ألا ومن مات على حب آل محمد مات تائباً، ألا ومن مات على حب آل محمد مات مؤمناً مستكمل الإيمان، ألا ومن مات على حب آل محمد بشره ملك الموت بالجنة ثم منكر ونكير، ألا ومن مات على حب آل محمد يزف إلى الجنة كما تزف العروس إلى بيت زوجها، ألا ومن مات على حب آل محمد فتح له في قبره بابان إلى الجنة، ألا ومن مات على حب آل محمد. جعل الله قبره مزار ملائكة الرحمة، ألا ومن مات على حب آل محمد مات على السنة والجماعة. ألا ومن مات على بغض آل محمد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمة الله ـ الحديث[3].

وأورد ابن حجر ص ١٠٣ من صواعقه حديثاً، هذا نصه:

إن النبي خرج على أصحابه ذات يوم، ووجهه مشرق كدائرة القمر.

(١) الوافي ج ٣، ص ١٣٩، عن الكافي.

(٢) الفصول المهمة للإمام شرف الدين، ص ٤١.

(٣) الفصول المهمة للإمام شرف الدين، ص ٤٢.

فسأله عبدالرحمن بن عوف عن ذلك، فقال (ص): بشارة اتتني من ربي في أخي وابن عمي وابنتي، بأن زوّج علياً من فاطمة، وأمر رضوان خازن الجنان فهزّ شجرة طوبى، فحملت رقاقاً (يعني صكاكاً) بعدد محبي أهل بيتي، وأنشأ تحتها ملائكة من نور، دفع إلى كل ملك صكاً، فإذا استوت القيامة بأهلها نادت الملائكة في الخلائق، فلا يبقى محب لأهل البيت إلا دفعت إليه صكاً فيه فكاكه من النار، فصار أخي وابن عمي وابنتي فكاك رقاب رجال ونساء من أمتي من النار[١].

وجاء في مستدرك الصحيحين ج ٣، ص ١٢٧، عن ابن عباس قال: نظر النبي (ص) إلى علي (ع) فقال: يا علي، أنت سيد في الدنيا وسيد في الآخرة، حبيبك حبيبي، وحبيبي حبيب الله، وعدوك عدوي، وعدوي عدو الله، والويل لمن أبغضك بعدي[٢].

وأخرج الحافظ الطبري، في كتاب الولاية، بإسناده عن علي (ع) أنه قال: لا يحبني ثلاثة: ولد زنا، ومنافق، ورجل حملت به أمه في بعض حيضها[٣].

وأخرج الطبراني في الأوسط، والسيوطي في إحياء الميت، وابن حجر في صواعقه في باب الحث على حبهم:

قال رسول الله (ص): إلزموا مودتنا أهل البيت، فإنه من لقي الله وهو يودّنا دخل الجنة بشفاعتنا، والذي نفسي بيده لا ينفع عبداً عمله إلا بمعرفة حقنا[٤] إلى كثير من النصوص التي يطول عرضها في هذا المختصر.

ولا ريب أن المراد بأهل البيت عليهم السلام، هم الأئمة الاثنا عشر المعصومون صلوات الله عليهم، دون سواهم، لأن هذه الخصائص الجليلة،

---

(١) الفصول المهمة، للإمام شرف الدين، ص ٤٣.
(٢) فضائل الخمسة، من الصحاح الستة ج ١، ص ٢٠٠.
(٣) الغدير ج ٤، ص ٣٢٢.
(٤) المراجعات، للإمام شرف الدين، ص ٢٢.

والمزايا الفذة، لا يستحقها إلا حجج الله تعالى على العباد، وخلفاء رسوله الميامين.

حقوق الأئمة الطاهرين عليهم السلام

فضلهم

لقد حاز الأئمة الطاهرون من أهل البيت عليهم السلام السبق في ميادين الفضل والكمال، ونالوا الشرف الأرفع في الأحساب والأنساب. فهم آل رسول الله وأبناؤه، نشأوا في ربوع الوصي، وترعرعوا في كنف الرسالة، واستلهموا حقائق الإسلام ومبادئه عن جدهم الأعظم، فكانوا ورثة علمه، وخزان حكمته، وحماة شريعته الغراء، وخلفاءه الميامين.

وقد جاهدوا في نصرة الدين وحماية المسلمين، جهاداً منقطع النظير، وفدوا أنفسهم في سبيل الله تعالى، حتى استشهدوا في سبيل العقيدة والمبدأ، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تخدعهم زخارف الحياة.

وكم لهم من أياد وحقوق على المسلمين، ينوء القلم بشرحها وتعدادها. بيد أني أشير إليها إشارة خاطفة، وهي:

١ ـ معرفتهم:

كما جاء في الحديث المتواتر بين الفريقين، وفي الصحاح المعتبرة، قوله (ص):

«من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتةً جاهلية»[١].

الإمام هو خليفة النبي (ص)، وممثله في أمته، يبلغها عنه أحكام الشريعة، ويسعى جاهداً في تنظيم حياتها، وتوفير سعادتها، وإعلاء مجدها. وحيث كان الإمام كذلك، وجب على كل مسلم معرفته، كما صرح بذلك

---

(١) انظر مصادر الحديث ورواته في الغدير، للحجة الأميني ج ١٠ ص ٣٥٩ ـ ٣٦٠.

الحديث الشريف، ليكون على بصيرة من عقيدته وشريعته، وليسير على ضوء توجيهه وهداه.

فإذا أغفل المسلم معرفة إمامه، ولم يستهد به، وهو الدليل المخلص، والرائد الأمين، ضل عن نهج الإسلام وواقعه، ومات كافراً منافقاً.

وقد أشعر الحديث بضرورة وجود الإمام ووجوب معرفته مدى الحياة، لأن إضافة الإمام إلى الزمان تستلزم استمرارية الإمامة، وتجددها عبر الأزمنة والعصور.

وهكذا توالت الأحاديث النبوية المتواترة بين الفريقين، والمؤكدة على ضرورة معرفة الأئمة الطاهرين، والاهتداء بهم، كقوله (ص): «في كل خلف من أمتي عدول من أهل بيتي، ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين. ألا وإن أئمتكم وفدكم إلى الله، فانظروا من توفدون»[1].

وقال (ص) (كما جاء في صحيح مسلم):

«لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة، ويكون عليهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش».

وهذا الحديث شاهد على وجود الإمامة حتى قيام الساعة، وقصرها على الأئمة الاثني عشر من أهل البيت عليهم السلام، دون غيرهم من ملوك الأمويين والعباسيين لزيادتهم عن هذا العدد.

٢ ـ موالاتهم:

معرفة الإمام لا تجدي نفعاً، ولا تحقق الأماني والآمال المعقودة عليه، إلّا إذا اقترنت بولائه، والسير على هداه، ومتى تجردت المعرفة من ذلك غدت هزيلة جوفاء.

---

(١) المراجعات، ص ٢١.

ذلك أن الإمام هو خليفة رسول الله (ص)، وحامل لواء الإسلام، ورائد المسلمين نحو المثل الإسلامية العليا، يبين لهم حقائق الشريعة، ويجلو أحكامها، ويصونها من كيد الملحدين ودسهم، ويعمل جاهداً في حماية المسلمين، ونصرهم، وإسعادهم مادياً وروحياً، ديناً ودنياً.

من أجل ذلك كان التخلف عن موالاة الإمام والاهتداء به، مدعاة للزيغ والضلال، والانحراف عن خط الإسلام ونهجه المرسوم. كما نوه النبي (ص) عن ذلك، وأوضح للمسلمين أنّ الهدى والفوز في ولاء الأئمة الطاهرين من أهل البيت عليهم السلام، وأن الضلال والشقاء في مجافاتهم ومخالفتهم.

قال (ص): «إنما مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينة نوح، من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[1].

وقال (ص): «إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، ولن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[2].

وقد أوضح أمير المؤمنين (ع) معنى العترة:

فعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: سئل أمير المؤمنين (ع) عن معنى قول رسول الله (ص): «إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» من العترة؟

فقال: أنا والحسن والحسين والأئمة التسعة من ولد الحسين، تاسعهم مهديهم وقائمهم، لا يفارقون كتاب الله ولا يفارقهم، حتى يردا على رسول الله (ص) حوضه[3].

وهذا الحديث يدل بوضوح أن القرآن الكريم والعترة النبوية الطاهرة،

---

(١) المراجعات، ص ١٧.
(٢) المراجعات ص ١٤.
(٣) سفينة البحار، عن معاني الأخبار وعيون أخبار الرضا (ع).

صنوان مقترنان مدى الدهر، لا ينفك أحدهما عن قرينه، وأنه كما يجب أن يكون القرآن دستوراً للمسلمين وحجة عليهم، كذلك وجب أن يكون في كل عصر إمام من أهل البيت عليهم السلام يتولى إمامة المسلمين، ويوجههم وجهة الخير والصلاح.

وقال (ص): «من أحب أن يحيا حياتي، ويموت ميتتي، ويدخل الجنة التي وعدني ربي وهي جنة الخلد، فليتول علياً وذريته من بعده، فإنهم لن يخرجوكم من باب هدى، ولن يدخلوكم باب ضلالة»[١].

إلى كثير من الأحاديث النبوية المحرضة على موالاة أهل البيت عليهم السلام والاقتداء بهم.

٣ ـ طاعتهم:

قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله وإلى الرسول، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلاً﴾ (النساء: ٥٩).

لقد أوجب الله تعالى على المسلمين في الآية الكريمة طاعة الأئمة من آل محمد بصفتهم خلفاء رسول الله (ص)، وأمراء المسلمين، وقادة الفكر الإسلامي، ليستضيئوا بهداهم، وينتفعوا بتوجيههم الهادف البناء، ولا ينحرفوا عن واقع الإسلام، ونهجه الأصيل.

فرض طاعتهم، كما فرض طاعته وطاعة رسوله، سواء بسواء، وهذا ما يشعر بخلافتهم الحقة عن رسول الله (ص)، وعصمتهم من الآثام لأن الطاعة المطلقة لا يستحقها إلا الإمام المعصوم، الذي فرض الله طاعته على العباد.

فمن الخطأ الكبير تأويل «أولي الأمر» وحملها على سائر أمراء المسلمين، لمخالفة الكثيرين منهم لله تعالى ورسوله، وانحرافهم عن خط الإسلام.

يحدثنا زرارة، وهو من أجل المحدثين والرواة، عن فضل موالاة الأئمة

---

(١) المراجعات ص ١٥٦.

من أهل البيت عليهم السلام، وضرورة طاعتهم، عن أبي جعفر (ع)، قال: «بني الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، والولاية». قال زرارة: فقلت وأي شيء من ذلك أفضل؟ قال: الولاية، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن..

إلى أن قال: ثم قال (ع): ذروة الأمر، وسنامه، ومفتاحه، وباب الأشياء، ورضا الرحمن... الطاعة للإمام، بعد معرفته. إن الله عز وجل يقول:

﴿ومن يطع الرسول فقد أطاع الله، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً﴾ (النساء: ٨٠).

أما لو أن رجلاً قام ليله، وصام نهاره، وتصدق بجميع ماله، وحج دهره، ولم يعرف ولاية ولي الله فيواليه، وتكون جميع أعماله بدلالته إليه، ما كان له على الله حق في ثواب، ولا كان من أهل الإيمان» الخبر[1].

وقال الصادق (ع): وصل الله طاعة ولي أمره... بطاعة رسوله، وطاعة رسوله... بطاعته، فمن ترك طاعة ولاة الأمر لم يطع الله ولا رسوله[2].

٤ ـ أداء حقهم من الخمس:

قال تعالى: ﴿واعلموا إنما غنمتم من شيء فإن لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل﴾ (الأنفال: ٤١).

وهذا الحق فرض محتم على المسلمين، شرعه الله عز وجل لأهل البيت عليهم السلام ومن يمتّ إليهم بشرف القربى والنسب.

وهو حق طبيعي يفرضه العقل والوجدان، كما يفرضه الشرع. فقد درجت الدول على تكريم موظفيها والعاملين في حقولها، فتمنحهم راتباً تقاعدياً

---

(١) سفينة البحار ج ٢، ص ٦٩١ نقل بتصرف.
(٢) سفينة البحار ج ٢، ص ٦٩١.

يتقاضوه عند كبر سنهم، ويورثونه لأبنائهم، وذلك تقديراً لجهودهم في صالح أممهم وشعوبهم.

وقد فرض الله الخمس لآل محمد وذراريهم، تكريماً للنبي (ص)، وتقديراً لجهاده الجبار، وتضحياته الغالية، في سبيل أمته، وتنزيهاً لآله عن الصدقة والزكاة.

وقد أوضح أمير المؤمنين (ع) مفهوم ذي القربى، فقال: نحن والله الذين عنى الله بذي القربى، الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه، فقال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى، فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين» (الحشر:٧) منّا خاصة، لأنه لم يجعل لنا سهماً في الصدقة، وأكرم الله نبيه، وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما في أيدي الناس[١].

وعن أبي بصير قال: قلت لأبي جعفر (ع): أصلحك الله، ما أيسر ما يدخل به العبد النار؟ قال: من أكل مال اليتيم درهماً، ونحن اليتيم[٢].

وقد دار الجدل والنقاش بين الإمامية وغيرهم، حول مفهوم الغنيمة، أهي مختصة بغنائم الحرب، أم عامة لجميع الفوائد والمنافع؟ وتحقيق ذلك يخرج هذا الكتاب عن موضوعه الأخلاقي، ولكن مرجع ذلك المصادر الفقهية.

٥ ـ الإحسان إلى ذريتهم:

من دلائل مودة الأئمة الطاهرين عليهم السلام، ومقتضيات ولائهم، والوفاء لهم... رعاية ذراريهم، والبرّ بهم، والإحسان إليهم. وهم جديرون بذلك، لشرف انتمائهم إلى رسول الله (ص)، وانحدارهم من سلالة أبنائه المعصومين عليهم السلام.

وقد أعرب النبي (ص) عن اغتباطه وحبه لمبجليهم ومكرميهم، كما أوضح استنكاره وسخطه على مؤذيهم والمسيئين إليهم.

---

(١) الوافي ج ٦، ص ٣٨، عن الكافي.

(٢) البحار م ٢٠، ص ٤٨، عن كمال الدين للصدوق، وتفسير العياشي.

فعن الرضا عن آبائه عن علي (ع)، قال: قال رسول الله (ص): أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذريتي من بعدي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أمورهم عند اضطرارهم، والمحب لهم بقلبه ولسانه[١].

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): إذا قمتُ المقام المحمود، تشفعت في أصحاب الكبائر من أمتي، فيشفعني الله فيهم. والله لا تشفعت فيمن آذى ذريتي[٢].

٦ ـ مدحهم ونشر فضائلهم:

طبع النبلاء على تقدير العظماء والمجلّين في ميادين الفضائل والمكرمات، فيطرونهم بما يستحقونه من المدح والثناء، تكريماً لهم وتخليداً لمآثرهم.

وحيث كان الأئمة الطاهرون أرفع الناس حسباً ونسباً، وأجمعهم للفضائل، وأسبقهم في ميادين المآثر والأمجاد، استحقوا من مواليهم ومحبيهم أن يعربوا عما ينطوون عليه من عواطف الحب والولاء، وبواعث الإعجاب والإكبار، وذلك بمدحهم، ونشر فضائلهم، والإشادة بمآثرهم الخالدة، تكريماً لهم، وتقديراً لجهادهم الجبّار، وتضحياتهم الغالية في خدمة الإسلام والمسلمين.

وناهيك في فضلهم أنهم كانوا غياث المسلمين، وملاذهم في كل خطب، لا يألون جهداً في إنقاذهم، وتحريرهم من سطوة الطغاة والجائرين، وإمدادهم بأسمى مفاهيم العزة والكرامة، ما وسعهم ذلك حتى استشهدوا في سبيل تلك الغاية السامية.

والناس إزاء أهل البيت، فريقان:

فريق حاقد مبغض، ينكر فضائلهم ومثلهم الرفيعة، ويتعامى عنها، رغم جمالها وإشراقها، فهو كما قال الشاعر:

ومن يك ذا فم مرّ مريض يجد مراً به الماء الزلالا

(١) البحار م ٢٠، ص ٥٧، عن عيون أخبار الرضا (ع).
(٢) البحار م ٢٠، ص ٥٧، عن أمالي الصدوق.

وفريق واله بحبهم وولائهم، شغوف بمناقبهم، طروب لسماعها، ويلهج بترديدها والتنويه عنها، وإن عانى في سبيل ذلك ضروب الشدائد والأهوال. وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين (ع) بقوله:

«لو ضربتُ خيشوم المؤمن بسيفي هذا على أن يبغضني ما أبغضني، ولو صببت الدنيا بجماتها على المنافق على أن يحبني ما أحبني، وذلك أنه قضى فانقضى على لسان النبي الأمي (ص)، أنه قال: يا علي لا يبغضك مؤمن، ولا يحبك منافق».

من أجل ذلك كان العارفون بفضائلهم، والمتمسكون بولائهم، يتبارون في مدحهم، ونشر مناقبهم، معربين عن حبهم الصادق وولائهم الأصيل، دونما طلب جزاء ونوال.

وكان الأئمة عليهم السلام، يستقبلون مادحيهم بكل حفاوة وترحاب، شاكرين لهم عواطفهم الفياضة، وأناشيدهم العذبة، ويكافؤنهم عليها بما وسعت أيديهم من البر والنوال، والدعاء لهم بالغفران، وجزيل الأجر والثواب.

فقد جاء في (خزانة الأدب): حكى «صاعد» مولى الكميت، قال: دخلت مع الكميت على علي بن الحسين (ع) فقال: إني قد مدحتك بما أرجو أن يكون لي وسيلة عند رسول الله (ص)، ثم أنشده قصيدته التي أولها:

من لقلب متيم مستهام غير ما صبوة ولا أحلام

فلما أتى على آخرها، قال له: ثوابك نعجز عنه، ولكن ما عجزنا عنه فإن الله لا يعجز عن مكافأتك، اللهم اغفر للكميت. ثم قسط له على نفسه وعلى أهله أربعمائة ألف درهم، وقال له: خذ يا أبا المستهل. فقال له: لو وصلتني بدانق لكان شرفاً لي، ولكن إن أحببت أن تحسن إليّ فادفع إليّ بعض ثيابك أتبرك بها، فقام فنزع ثيابه ودفعها إليه كلها، ثم قال: اللهم إن الكميت جاد في آل رسولك وذرية نبيك بنفسه حين ضنّ الناس، وأظهر ما كتمه غيره من الحق، فأحيه سعيداً، وأمته شهيداً، وأره الجزاء عاجلاً، وأجزل له المثوبة آجلاً، فإنا

قد عجزنا عن مكافأته. قال الكميت: ما زلت أعرف بركة دعائه[١].

وقال دعبل: دخلت على علي بن موسى الرضا (ع) ـ بخراسان ـ فقال لي: أنشدني شيئاً مما أحدثت، فأنشدته:

مدارس آيات خلت من تلاوة   ومنزل وحي مقفر العرصات

حتى انتهيت إلى قولي:

إذا وتروا مدّوا إلى واتريهم   أكفاً عن الأوتار منقبضات

فبكى حتى اغمي عليه، وأومأ إليّ خادم كان على رأسه: أن أسكت، فسكتُ فمكث ساعة ثم قال لي: أعد. فأعدتُ حتى انتهيت إلى هذا البيت أيضاً، فأصابه مثل الذي أصابه في المرة الأولى، وأومأ الخادم إليّ أن أسكت، فسكت. فمكث ساعة أخرى، ثم قال لي: أعد. فأعدت حتى انتهيت إلى آخرها، فقال لي: أحسنت، ثلاث مرّات. ثم أمر لي بعشرة آلاف درهم، مما ضرب باسمه، ولم تكن دفعت إلى أحد بعد. وأمر لي من في منزله، بحليّ كثير أخرجه إليّ الخادم، فقدمت العراق، فبعت كل درهم منها بعشرة دراهم، اشتراها مني الشيعة، فحصل لي مائة ألف درهم، فكان أول مالٍ اعتقدته.

قال ابن مهرويه: وحدثني حذيفة بن محمد، أن دعبلاً قال له: إنه استوهب من الرضا (ع) ثوباً قد لبسه، ليجعله في أكفانه. فخلع جبّة كانت عليه، فأعطاه إياها. فبلغ أهل قم خبرها، فسألوه أن يبيعهم إياها بثلاثين ألف درهم، فلم يفعل، فخرجوا عليه في طريقه، فأخذوها منه غصباً، وقالوا له: إن شئت أن تأخذ المال فافعل، وإلاّ فأنت أعلم. فقال لهم: إني والله لا أعطيكم إياها طوعاً، ولا تنفعكم غصباً، وأشكوكم إلى الرضا (ع). فصالحوه، على أن يعطوه الثلاثين ألف درهم وفردكم من بطانتها، فرضي بذلك. فأعطوه فردكم فكان في أكفانه[٢].

---

(١) الغدير ج ٢، ص ١٨٩.

(٢) الغدير ج ٢، ص ٣٥٠ ـ ٣٥١.

وكم لهذه القصص من أشباه ونظائر، يطول عرضها وتعدادها في هذا المجال المحدود.

٧ ـ زيارة مشاهدهم

ومن حقوقهم على مواليهم وشيعتهم، زيارة مشاهدهم المشرفة، والتسليم عليهم. فإنها من مظاهر الحب والولاء، ومصاديق الوفاء والإخلاص فهم سيّان، أحياءاً وأمواتاً.

قال الشيخ المفيد أعلى الله مقامه:

«إن رسول الله (ص) والأئمة من عترته خاصة، لا يخفى عليهم بعد الوفاة أحوال شيعتهم في دار الدنيا، بإعلام الله تعالى لهم ذلك حالاً بعد حال، ويسمعون كلام المناجي لهم في مشاهدهم المكرمة العظام، بلطيفة من لطائف الله تعالى، بيّنهم بها من جمهور العباد، وتبلغهم المناجاة من بُعد، كما جاءت به الرواية، وهذا مذهب فقهاء الإمامية كافة. . .

وقد قال الله تعالى فيما يدل على جملته: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم، ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠).

وقال في قصة مؤمن آل فرعون: ﴿قيل أدخل الجنة، قال يا ليت قومي يعلمون، بما غفر لي ربي، وجعلني من المكرمين﴾ (ياسين: ٢٦ ـ ٢٧).

وقال رسول الله (ص): من سلّم عليّ عند قبري سمعته ومن سلّم عليّ من بعيد بلغته، سلام الله عليهم ورحمته وبركاته.

ثم الأخبار في تفصيل ما ذكرناه، من الجمل عن أئمة آل محمد، بما وصفناه نصاً ولفظاً، أكثر»[1].

وقد تواترت نصوص أهل البيت عليهم السلام، في فضل زيارة

(١) أوائل المقالات للشيخ المفيد (ره).

مشاهدهم، وما تشتمل عليه من الخصائص الجليلة، والثواب الجم.

فعن الوشا، قال: سمعت الرضا (ع) يقول: إن لكل إمام عهداً في عنق أوليائه وشيعته، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه، كان أئمتهم شفعاؤهم يوم القيامة»[١].

وعن زيد الشحام قال: قلت لأبي عبدالله (ع): ما لمن زار واحداً منكم؟ قال: كمن زار رسول الله (ص)[٢].

وعن أبي الحسن موسى (ع) قال: إذا كان يوم القيامة، كان على عرش الرحمن أربعة من الأولين، وأربعة من الآخرين. فأما الأربعة الذين هم من الأولين: فنوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وأما الأربعة من الآخرين: محمد وعلي والحسن والحسين عليهم السلام. ثم يمد الطعام فيقعد معنا من زار قبور الأئمة، ألا إن أعلاهم درجة وأقربهم حبوة زوار قبر ولدي[٣].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال أمير المؤمنين (ع): زارنا رسول الله، وقد أهدت لنا أم أيمن لبناً وزبداً وتمراً، قدمنا منه، فأكل، ثم قام إلى زاوية البيت فصلى ركعات، فلما كان في آخر سجوده بكى بكاءاً شديداً، فلم يسأله أحد منّا إجلالاً وإعظاماً، فقام الحسين في الحجرة وقال له: يا أبه لقد دخلت بيتنا، فما سررنا بشيء كسرورنا بدخولك، ثم بكيت بكاءاً غمّنا، فما أبكاك؟ فقال: يا بني، أتاني جبرئيل آنفاً، فأخبرني أنكم قتلى، وأن مصارعكم شتى. فقال: يا أبه، فما لمن يزور قبورنا على تشتتها؟ فقال: يا بني، أولئك طوائف من أمتي، يزورونكم، فيلتمسون بذلك البركة، وحقيق عليّ أن آتيهم يوم القيامة حتى أخلصهم من أهوال الساعة من ذنوبهم، ويسكنهم الله الجنة[٤].

---

(١) البحار م ٢٢، ص ٦ عن عيون أخبار الرضا، وعلل الشرائع وكامل الزيارة لابن قولوية.
(٢) البحار م ٢٢ ص ٦، عن عيون أخبار الرضا، وعلل الشرائع وكامل الزيارة لابن قولويه.
(٣) البحار م ٢٢، ص ٨، عن الكافي.
(٤) البحار م ٢٢، ص ٧ عن كامل الزيارة، وأمالي ابن الشيخ الطوسي (ره).

حقوق العلماء

فضل العلم والعلماء

العلم... أجل الفضائل، وأشرف المزايا، وأعز ما يتحلى به الإنسان. فهو أساس الحضارة، ومصدر أمجاد الأمم، وعنوان سموها وتفوقها في الحياة، ورائدها إلى السعادة الأبدية، وشرف الدارين.

والعلماء... هم ورثة الأنبياء، وخزّان العلم، ودعاة الحق، وأنصار الدين، يهدون الناس إلى معرفة الله وطاعته، ويوجهونهم وجهة الخير والصلاح.

من أجل ذلك تظافرت الآيات والأخبار على تكريم العلم والعلماء، والإشادة بمقامهما الرفيع.

قال تعالى: ﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر: ٩).

وقال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة: ١١).

وقال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماءُ﴾ (فاطر: ٢٨).

وقال تعالى: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون﴾ (العنكبوت: ٤٣).

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وانه يستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض، حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر. وإن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً، ولكن ورثوا العلم، فمن أخذ منه أخذ بحظ وافر[1].

(١) الوافي ج ١، ص ٤٢، عن الكافي.

وقال الباقر (ع): عالم ينتفع بعلمه أفضل من سبعين ألف عابد[١].

وقال الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة، جمع الله عز وجل الناس في صعيد واحد، ووضعت الموازين، فتوزن دماء الشهداء مع مداد العلماء، فيرجح مداد العلماء على دماء الشهداء[٢].

وقال الصادق (ع): إذا كان يوم القيامة، بعث الله عز وجل العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عز وجل، قيل للعابد إنطلق إلى الجنة، وقيل للعالم قف تشفع للناس بحسن تأديبك لهم[٣].

وقال أمير المؤمنين (ع): يا كميل، هلك خزان الأموال وهم أحياء، والعلماء باقون ما بقي الدهر، أعيانهم مفقودة، وأمثالهم في القلوب موجودة[٤].

وعن أبي عبدالله (ع)، قال: قال رسول الله (ص): يجيء الرجل يوم القيامة، وله من الحسنات كالسحاب الركام، أو كالجبال الرواسي، فيقول: يا رب أنّى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علّمته الناس، يُعمل به من بعدك[٥].

ولا غرابة أن يحظى العلماء بتلك الخصائص الجليلة، والمزايا الغر. فهم حماة الدين، وأعلام الإسلام، وحفظة آثاره الخالدة، وتراثه المدخور. يحملون للناس عبر القرون، مبادىء الشريعة وأحكامها وآدابها، فتستهدي الأجيال بأنوار علومهم، ويستنيرون بتوجيههم الهادف البناء.

وبديهي أنّ تلك المنازل الرفيعة، لا ينالها إلاّ العلماء المخلصون، المجاهدون في سبيل العقيدة والشريعة، والسائرون على الخط الإسلامي، والمتحلون بآداب الإسلام وأخلاقه الكريمة.

---

(١) الوافي ج ١، ص ٤٠ عن الكافي.

(٢) الوافي ج ١، ص ٤٠، عن الفقيه.

(٣) البحار م ١، ص ٧٤، عن علل الشرائع، وبصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار.

(٤) نهج البلاغة.

(٥) البحار م ١، ص ٧٥ عن بصائر الدرجات.

ولهؤلاء فضل كبير، وحقوق مرعية في أعناق المسلمين، جديرة بكل عناية واهتمام، وهي:

١ - توقيرهم:

وهو في طليعة حقوقهم المشروعة، لتحليهم بالعلم والفضل، وجهادهم في صيانة الشريعة الإسلامية وتعزيزها، ودأبهم على إصلاح المجتمع الإسلامي وإرشاده.

وقد أعرب أهل البيت عليهم السلام عن جلالة العلماء، وضرورة تبجيلهم وتوقيرهم، قولاً وعملاً، حتى قرروا أن النظر إليهم عبادة، وأن بغضهم مدعاة للهلاك، كما شهد بذلك الحديث الشريف:

فعن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال: قال (ص): النظر في وجه العالم حباً له عبادة[١].

وعن أبي عبدالله (ع) قال، قال رسول الله (ص): أغد عالماً أو متعلماً، أو أحِبَّ العلماء، ولا تكون رابعاً فتهلك ببغضهم[٢].

وهكذا كانوا عليهم السلام يبجّلون العلماء، ويرعونهم بالحفاوة والتكريم، يحدثنا الشيخ المفيد (ره)، عن توقير الإمام الصادق (ع) لهشام بن الحكم، وكان من ألمع أصحابه وأسماهم مكانة عنده «أنه دخل عليه بمنى، وهو غلام أول ما اختط عارضاه، وفي مجلسه شيوخ الشيعة، كحمران بن أعين وقيس الماصر ويونس بن يعقوب وأبي جعفر الأحول وغيرهم، فرفعه على جماعتهم، وليس فيهم إلا من هو أكبر سناً منه.

فلما رأى أبو عبدالله (ع) أن ذلك الفعل كبر على أصحابه، قال: هذا ناصرنا بقلبه ولسانه ويده»[٣].

---

(١) البحار م ١، ص ٦٤، عن نوادر الراوندي.
(٢) البحار م ١، ص ٥٩، عن خصال الصدوق (ره).
(٣) سفينة البحار ج ٢، ص ٧١٩.

وجاء عن أحمد البزنطي، قال: «بعث إليّ الرضا (ع) بحمار له، فجئت إلى صريا، فمكثت عامّة الليل معه، ثم أتيت بعشاء، ثم قال: أفرشوا له. ثم أتيت بوسادة طبرية ومرادع وكساء قياصري وملحفة مروي، فلما أصبت من العشاء، قال لي: ما تريد أن تنام؟ قلت: بلى، جعلت فداك. فطرح عليّ الملحفة والكساء، ثم قال: بيتك الله في عافية. وكنا على سطح، فلما نزل من عندي، قلت في نفسي: قد نلت من هذا الرجل كرامةً ما نالها أحد قط»[1].

٢ - برهم:

همة العلماء، وهدفهم الأسمى، خدمة الدين، وبث التوعية الإسلامية، وتوجيه المسلمين نحو الخلق الكريم والسلوك الأمثل، وهذا ما يقتضيهم وقتاً واسعاً، وجهداً ضخماً، يعوقهم عن اكتساب الرزق وطلب المعاش كسائر الناس.

فلا بد والحالة هذه، للمؤمنين المعنيين بشؤون الدين، والحريصين على كيانه... أن يوفروا للعلماء وسائل الحياة الكريمة، والعيش اللائق، وذلك بأداء الحقوق الشرعية إليهم، التي أمر الله بها، وندب إليها، من الزكاة والخمس، ووجوه الخيرات والمبرّات. فهم أحق الناس بها، وأهم مصاديقها، ليستطيعوا تحقيق أهدافهم، والاضطلاع بمهامهم الدينية، دون أن يعوقهم عنها طلب المعاش.

وقد كان الغيارى من المسلمين الأولين، يتطوعون بأريحية وسخاء، في رصد الأموال، وإيجاد الأوقاف، واستغلالها لصالح العلماء، وتوفير معاشهم.

وكلما تجاهل الناس أقدار العلماء، وغمطوا حقوقهم، أدى ذلك إلى قلة العلماء، وهبوط الطاقات الروحية، وضعف النشاط الديني. مما يعرض المجتمع الإسلامي لغزو المبادىء الهدامة، وخطر الزيغ والانحراف.

---

(١) سفينة البحار ج١، ص ٨١.

٣ ـ الاهتداء بهم:

لا يستغني كل واع مستنير، عن الرجوع إلى الاخصائيين في مختلف العلوم والفنون، للإفادة من معارفهم وتجاربهم، كالأطباء والكيمياويين والمهندسين ونحوهم من ذوي الاختصاص.

وحيث كان العلماء الروحانيون متخصصين بالعلوم الدينية، والمعارف الإسلامية، قد أوقفوا أنفسهم على خدمة الشريعة الإسلامية، ونشر مبادئها وأحكامها، وهداية الناس وتوجيههم وجهة الخير والصلاح... فجدير بالمسلمين أن يستهدوا بهم ويجتنوا ثمرات علومهم، ليكونوا على بصيرة من عقيدتهم وشريعتهم، ويتفادوا دعايات الغاوين والمضللين من أعداء الإسلام.

فإذا ما تنكروا للعلماء المخلصين، واستهانوا بتوجيههم وإرشادهم.. جهلوا واقع دينهم ومبادئه وأحكامه، وغدوا عرضة للزيغ والانحراف.

انظر كيف يحرض أهل البيت عليهم السلام على مجالسة العلماء، والتزود من علومهم وآدابهم، في نصوص عديدة:

فعن الصادق، عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «مجالسة أهل الدين شرف الدنيا والآخرة»[1] والمراد بأهل الدين، علماء الدين العارفون بمبادئه، العاملون بأحكامه.

وجاء في حديث الرضا عن آبائه عليهم السلام، قال: قال رسول الله (ص): «مجالسة العلماء عبادة»[2].

وقال لقمان لابنه: يا بني، جالس العلماء وزاحمهم بركبتيك، فإن الله عز وجل يحيي القلوب بنور الحكمة، كما يحيي الأرض بوابل السماء[3].

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): العلم

---

(١) البحار م ١ ص ٦٢، عن ثواب الأعمال، وأمالي الصدوق.

(٢) البحار م ١ ص ٦٤، عن كشف الغمة.

(٣) البحار م ١ ص ٦٤، عن روضة الواعظين.

خزائن، ومفتاحه (مفتاحها خ ل) السؤال، فاسألوا يرحمكم الله، فإنه يؤجر فيه أربعة: السائل، والمعلم، والمستمع، والمحب لهم[١].

وقال الصادق (ع): إنما يهلك الناس لأنهم لا يسألون[٢].

حقوق الأساتذة والطلاب

الأساتذة المخلصون، المتحلون بالإيمان والخلق الكريم، لهم مكانة سامية، وفضل كبير على المجتمع، بما يسدون إليه من جهود مشكورة في تربية أبنائهم، وتثقيفهم بالعلوم والآداب. فهم رواد الثقافة، ودعاة العلم، وبناة الحضارة، وموجهو الجيل الجديد.

لذلك كان للأساتذة على طلابهم حقوق جديرة بالرعاية والاهتمام. وأول حقوقهم على الطلاب، أن يوقروهم ويحترموهم احترام الآباء، مكافأة لهم على تأديبهم، وتنويرهم بالعلم، وتوجيههم وجهة الخير والصلاح. كما قيل للإسكندر: إنك تعظّم معلمك أكثر من تعظيمك لأبيك!!! فقال: لأن أبي سبب حياتي الفانية، ومؤدبي سبب الحياة الباقية.

قم للمعلم وفّه التبجيلا ... كاد المعلم أن يكون رسولا
أرأيت أكرم أو أجل من الذي ... يبني وينشيء أنفساً وعقولا

وحسبك في فضل المعلم المخلص وأجره الجزيل، ما أعربت عنه نصوص أهل البيت عليهم السلام:

فعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): يجيء الرجل يوم القيامة، وله من الحسنات كالسحاب الركام، أو كالجبال الرواسي. فيقول: يا رب أنّى لي هذا ولم أعملها؟ فيقول: هذا علمك الذي علمته الناس، يعمل به من بعدك[٣].

---

(١) البحار م ١ ص ٦٢، عن صحيفة الرضا (ع) وعيون أخبار الرضا.
(٢) الوافي ج ١ ص ٤٦، عن الكافي.
(٣) البحار م ١ ص ٧٥، عن بصائر الدرجات للشيخ محمد بن الحسن الصفار.

وعن أبي جعفر (ع)، قال: من علّم باب هدى فله مثل أجر من عمل به ولا ينقص أولئك من أجورهم شيئاً، ومن علّم باب ضلال كان عليه مثل أوزار من عمل به ولا ينقص من أوزارهم شيئاً[١].

ومن حقوق الأساتذة على الطلاب: تقدير جهودهم ومكافأتهم عليها بالشكر الجزيل، وجميل الحفاوة والتكريم، واتباع نصائحهم العلمية، كاستيعاب الدروس وإنجاز الواجبات المدرسية.

ومن حقوقهم كذلك: التسامح والإغضاء عما يبدر منهم من صرامة أو غلظة تأديبية، تهدف إلى تثقيف الطالب وتهذيب أخلاقه.

وأبلغ وأجمع ما أثر في حقوق الأساتذة المربين، قول الإمام علي بن الحسين زين العابدين (ع): «وحق سايسك بالعلم: التعظيم له، والتوقير لمجلسه، وحسن الاستماع إليه، والإقبال عليه، وان لا ترفع عليه صوتك، ولا تجيب أحداً يسأله عن شيء حتى يكون هو الذي يجيب، ولا تحدّث في مجلسه أحداً، ولا تغتاب عنده أحداً، وأن تدفع عنه إذا ذكر عندك بسوء، وأن تستر عيوبه، وتظهر مناقبه. ولا تجالس له عدواً، ولا تعاد له ولياً. فإذا فعلت ذلك، شهد لك ملائكة الله بأنك قصدته، وتعلّمت علمه لله جل اسمه، لا للناس»[٢].

حقوق الطلاب

لطلاب العلم فضلهم وكرامتهم، باجتهادهم في تحصيل العلم، وحفظ تراثه، ونقله للأجيال الصاعدة، ليبقى الرصيد العلمي زاخراً نامياً مدى القرون والأجيال.

من أجل ذلك، نوهت أحاديث أهل البيت عليهم السلام بفضل طلاب العلم، وشرف أقدارهم وجزيل أجرهم.

فعن أبي عبدالله (ع) عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله

(١) الوافي ج ١ ص ٤٢، عن الكافي.
(٢) رسالة الحقوق للإمام السجاد (ع).

(ص): «طالب العلم بين الجهال كالحي بين الأموات»[١].

وعن أبي عبدالله، قال: قال رسول الله (ص): «من سلك طريقاً يطلب فيه علماً، سلك الله به طريقاً إلى الجنة. وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً به، وانه ليستغفر لطالب العلم من في السماء ومن في الأرض حتى الحوت في البحر. وفضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر النجوم ليلة البدر»[٢].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «طلب العلم فريضة على كل مسلم، ألا إن الله يحب بغاة العلم»[٣].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «العالم والمتعلم شريكان في الأجر، للعالم أجران وللمتعلم أجر، ولا خير في سوى ذلك»[٤].

ومن الواضح أن تلك الخصائص الرفيعة، والمزايا المشرفة، لا ينالها إلا طلاب العلم المخلصون، المتذرعون بطلبه إلى تزكية نفوسهم وتهذيب أخلاقهم، وكسب معرفة الله عز وجل وشرف طاعته ورضاه، فإذا ما تجردوا من تلك الخصائص والغايات، حرموا تلك المآثر الخالدة، ولم يجنوا إلا المآرب المادية الزائلة.

وإليك مجملاً من حقوق الطلاب:

١ ـ يجدر بأولياء الطلاب والمعنيون بتربيتهم وتعليمهم، أن يختاروا لهم أساتذة أكفاء، متحلين بالإيمان وحسن الخلق، ليكونوا قدوة صالحة ونموذجاً حسناً لتلامذتهم.

فالطالب شديد التأثر والمحاكاة لأساتذته ومربيه، سرعان ما تنعكس في

---

(١) البحار م ١ ص ٥٨، عن أمالي الشيخ ابي علي بن الشيخ الطوسي.
(٢) الوافي ج ١ ص ٤٢، عن الكافي.
(٣) الوافي ج ١ ص ٣٦، عن الكافي.
(٤) البحار م ١ ص ٥٦، عن بصائر الدرجات.

نفسه صفاتهم وأخلاقهم، ومن هنا وجب اختيار المدرسين المتصفين بالاستقامة والصلاح.

٢ ـ ومن حقوق الطلاب: أن يستشعروا من أساتذتهم اللطف والإشفاق، فيعاملوهم معاملة الأبناء، ويتفادون جهدهم عن احتقارهم واضطهادهم، لأن ذلك يحدث ردّ فعل سيء فيهم، يوشك أن ينفرهم من تحصيل العلم. لذلك كان من الحكمة في تهذيب الطلاب وتشجيعهم على الدرس، مكافأة المحسن منهم بالمدح والثناء، وزجر المقصر منهم بالتأنيب والتقريع، الذي لا يجرح العاطفة ويهدر الكرامة ويحدث ردّ فعل في الطالب.

انظر كيف يوصي الإمام زين العابدين بالمتعلمين، في رسالته الحقوقية، فيقول (ع): «وأما حق رعيتك بالعلم، فان تعلم أن الله عز وجل إنما جعلك قيّماً لهم فيما أتاك من العلم، وفتح لك من خزائنه، فإن أحسنت في تعليم الناس ولم تخرق بهم، ولم تضجر منهم، زادك الله من فضله، وإن أنت منعت الناس علمك أو خرقت بهم عند طلبهم العلم منك، كان حقاً على الله عز وجل أن يسلبك العلم وبهاءه، ويسقط من القلوب محلك».

٣ ـ وهكذا يجدر بالأساتذة أن يراعوا استعداد الطالب ومستواه الفكري، فيتدرجوا به في مراقي العلم حسب طاقته ومؤهلاته الفكرية، فلا يطلعونهم على ما يسمو على أفهامهم، وتقصر عنه مداركهم. مراعين إلى ذلك اتجاه الطالب ورغبته فيما يختار من العلوم، حيث لا يحسن قسره على علم لا يرغب فيه، ولا يميل إليه.

٤ ـ ويحق للطلاب على أساتذتهم أن يتعاهدوهم بالتوجيه والإرشاد، في المجالات العلمية وغيرها من آداب السيرة والسلوك، لينشأ الطلاب نشأة مثالية، ويكونوا نموذجاً رائعاً في الاستقامة والصلاح.

وألزم النصائح وأجدرها بالاتباع، أن يعلم الطالب اللبيب أنه يجب أن تكون الغاية من طلب العلم هي ـ كما أشرنا إليه ـ تزكية النفس، وتهذيب الضمير، والتوصل إلى شرف طاعة الله تعالى ورضاه، وكسب السعادة الأبدية الخالدة.

فإن لم يستهدف الطالب تلك الغايات السامية، كان مادياً هزيل الغاية والمأرب، لم يستثمر العلم استثماراً واعياً.

وأصدق شاهد على ذلك، الأمم المتحضرة اليوم، فإنها رغم سبقها وتفوقها في ميادين العلم والاكتشاف، تعيش حياة مزرية من تفسخ الأخلاق، وتسيب القيم الروحية، وطغيان الشرور فيها لنزعتها المادية، وتجردها من الدين والأخلاق، وغدت من جراء ذلك تتبارى بأفتك الأسلحة للقضاء على خصومها ومنافسيها، مما صيّر العالم بركاناً ينذر البشرية بالدمار والهلاك.

هذه لمحات خاطفة من حقوق الأساتذة والطلاب، ومن شاء التوسع فيها فليرجع إلى ما كتبه علماء الأخلاق في آداب المعلمين والمتعلمين، وحقوق كل منهما على الآخر.

حقوق الوالدين والأولاد

حقوق الوالدين

كيف يستطيع هذا القلم أن يصور جلالة الأبوين، وفضلهما على الأولاد، فهما سبب وجودهم، وعماد حياتهم، وقوام فضلهم، ونجاحهم في الحياة.

وقد جهد الوالدان ما استطاعا في رعاية أبنائهما مادياً ومعنوياً، وتحملا في سبيلهم أشد المتاعب والمشاق. فاضطلعت الأم بأعباء الحمل، وعناء الوضع، ومشقة الإرضاع، وجهد التربية والمداراة.

واضطلع الأب بأعباء الجهاد، والسعي في توفير وسائل العيش لأبنائه، وتثقيفهم وتأديبهم، وإعدادهم للحياة السعيدة الهانئة.

تحمل الأبوان تلك الجهود الضخمة، فرحين مغتبطين، لا يريدان من أولادهما ثناءاً ولا أجراً.

وناهيك في رأفة الوالدين وحنانهما الجم، أنهما يؤثران تفوق أولادهم عليهم في مجالات الفضل والكمال، ليكونوا مثاراً للإعجاب ومدعاة للفخر والاعتزاز،

خلافاً لما طبع عليه الإنسان من حب الظهور والتفوق على غيره.

من أجل ذلك كان فضل الوالدين على الولد عظيماً وحقهما جسيماً، سما على كل فضل وحق بعد فضل الله عز وجل وحقه.

برّ الوالدين:

وهذا ما يحتم على الأبناء النبلاء أن يقدروا فضل آبائهم وعظيم إحسانهم، فيجازونهم بما يستحقونه من حسن الوفاء، وجميل التوقير والإجلال، ولطف البر والإحسان، وسمو الرعاية والتكريم، أدبياً ومادياً.

أنظر كيف يعظم القرآن الكريم شأن الأبوين، ويحض على إجلالهما ومصاحبتهما بالبر والمعروف، حيث قال: ﴿ووصينا الإنسان بوالديه، حملته أمه وهناً على وهن، وفصاله في عامي، أن أشكر لي ولوالديك. إليّ المصير، وان جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم، فلا تطعهما، وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ (لقمان: ١٤ ـ ١٥).

وقال تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلاّ إياه وبالوالدين إحساناً، إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أف، ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾ (الإسراء: ٢٣ ـ ٢٤).

فقد أعربت هاتان الآيتان عن فضل الوالدين ومقامهما الرفيع، وضرورة مكافأتهما بالشكر الجزيل، والبر والإحسان اللائقين بهما، فأمرت الآية الأولى بشكرهما بعد شكر الله تعالى، وقرنت الثانية الإحسان إليهما بعبادته عز وجل. وهذا غاية التعزيز والتكريم.

وعلى هدي القرآن وضوئه تواترت أحاديث أهل البيت عليهم السلام:

قال الباقر (ع): «ثلاث لم يجعل الله تعالى فيهن رخصة: أداء الأمانة إلى البر والفاجر، والوفاء بالعهد للبر والفاجر، وبرّ الوالدين برّين كانا أو فاجرين»[1].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٣، عن الكافي.

وقال الصادق (ع): «إن رجلاً أتى النبي (ص)، فقال: يا رسول الله أوصني. فقال: لا تشرك بالله شيئاً، وإن حرقت بالنار وعذبت إلا وقلبك مطمئن بالإيمان. ووالديك، فأطعهما وبرّهما حيين كانا أو ميتين، وإن أمراك أن تخرج من أهلك ومالك فافعل، فإن ذلك من الإيمان»[(١)].

وعن أبي الحسن (ع) قال: قال رسول الله (ص): «كن باراً، واقتصر على الجنة، وان كنت عاقاً فاقتصر على النار»[(٢)].

وعنه (ع)، عن آبائه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «نظر الولد إلى والديه حباً لهما عبادة»[(٣)].

وقال الصادق (ع): «من أحب أن يخفف الله عز وجل عنه سكرات الموت، فليكن لقرابته وصولاً، وبوالديه باراً، فإذا كان كذلك هوّن الله عليه سكرات الموت، ولم يصبه في حياته فقر أبداً»[(٤)].

وعن أبي عبدالله (ع): «إن رسول الله (ص) أتته أخت له من الرضاعة، فلما نظر إليها سرّ بها وبسط ملحفته لها، فأجلسها عليها، ثم أقبل يحدثها ويضحك في وجهها. ثم قامت فذهبت، وجاء أخوها فلم يصنع به ما صنع بها، فقيل له: يا رسول الله صنعت بأخته ما لم تصنع به، وهو رجل! فقال: لأنها كانت أبرّ بوالديها منه»[(٥)].

* * *

وفي الوقت الذي أوصت الشريعة الإسلامية ببرّ الوالدين والإحسان إليهما، فقد آثرت الأم بالقسط الأوفر من الرعاية والبر، نظراً لما انفرد به من جهود جبّارة وأتعاب مضنية في سبيل أبنائها، كالحمل والرضاع، ونحوهما من وظائف الأمومة وواجباتها المرهقة.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٩١ - ٩٢، عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٥٥، عن الكافي.
(٣) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٤، عن كشف الغمة للأربلي.
(٤) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢١، عن أمالي الشيخ الصدوق، وأمالي ابن الشيخ الطوسي.
(٥) الوافي ج ٣ ص ٩٢، عن الكافي.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: جاء رجل إلى النبي (ص) فقال: يا رسول الله، من أبرّ؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أمك. قال: ثم من؟ قال: أباك[١].

وعن إبراهيم بن مهزم قال: خرجت من عند أبي عبدالله (ع) ليلة ممسياً، فأتيت منزلي في المدينة، وكانت أمي معي. فوقع بيني وبينها كلام، فأغلظت لها. فلما كان من الغد، صليت الغداة، وأتيت أبا عبدالله (ع)، فلما دخلت عليه، قال لي مبتدئاً: يا أبا مهزم، مالك وللخالدة؟ أغلظت في كلامها البارحة، أما علمت أن بطنها منزل قد سكنته، وأنّ حجرها مهد قد غمزته، وثديها وعاء قد شربته؟ قال قلت: بلى. قال: فلا تغلظ لها[٢].

واستمع إلى الإمام السجاد (ع)، وهو يوصي بالأم، معدداً جهودها وفضلها على الأبناء، بأسلوب عاطفي أخاذ، فيقول (ع):

«وأما حق أمك: أن تعلم أنها حملتك حيث لا يحتمل أحدٌ أحداً، وأعطتك من ثمرة قلبها ما لا يعطي أحدٌ أحداً، ووقتك بجميع جوارحها، ولم تبال أن تجوع وتطعمك، وتعطش وتسقيك، وتعرى وتكسوك، وتضحى وتظلك، وتهجر النوم لأجلك، ووقتك الحرّ والبرد لتكون لها، فإنك لا تطيق شكرها إلاّ بعون الله وتوفيقه»[٣].

* * *

وبرّ الوالدين، وإن كان له طيبته ووقعه الجميل في نفس الوالدين، بيد أنه يزداد طيبة ووقعاً حسناً عند عجزهما وشدة احتياجهما إلى الرعاية والبر، كحالات المرض والشيخوخة، وإلى هذا أشار القرآن الكريم ﴿إمّا يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما، فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما، وقل لهما قولاً كريما. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة، وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا﴾.

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٢، عن الكافي.
(٢) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٣، عن بصائر الدرجات لمحمد بن الحسن الصفار.
(٣) رسالة الحقوق للإمام السجاد (ع).

وقد ورد أن رجلاً جاء إلى النبي (ص)، فقال: يـا رسول الله، إن أبـويّ بلغا من الكبر أني ألي منهما ما وليانى في الصغر، فهل قضيتهما حقهـما؟ قال: لا، فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبّان بقاءك، وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما[1].

وعن إبراهيم بن شعيب قال: قلت لأبي عبدالله (ع): إن أبي قد كبر جداً وضعف، فنحن نحمله إذا أراد الحاجة. فقال: «إن استطعت أن تـلي ذلك منـه فافعل، ولقّمه بيدك، فإنه جنّة لك غداً»[2].

* * *

وليس الـبر مقصوراً عـلى حيـاة الـوالـدين فحسب، بـل هـو ضروري في حياتهما وبعد وفاتهما، لانقطاعهما عن الدنيا وشدة احتياجهما إلى البر والإحسان.

فعن الصادق (ع) قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجـر إلّا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته وهي تجري بعـد موتـه، وسنة هـدى سنّها فهي يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له»[3].

من أجـل ذلك فقـد حرضت وصـايا أهـل البيت عليهم السلام عـلى برّ الـوالدين بعـد وفاتهـما، وأكدت عليـه وذلك بقضـاء ديونهما المـالية أو العبادية، وإسـداء الخيرات والمـبرات إليهما، والاستغفـار لهما، والـترحم عليهما. واعتـبرت إهمال ذلك ضرباً من العقوق.

قال الباقر (ع): «إن العبد ليكون باراً بوالديـه في حياتهـما، ثم يموتـان فلا يقضي عنهـما دينهما ولا يستغفـر لهما، فيكتبـه الله عاقـاً. وانه ليكـون عاقـاً لهما في حيـاتهما غـير بار بهـما، فإذا مـاتـا قضى دينهـما واستغفـر لهـما، فيكتبـه الله تعـالى باراً»[4].

وعن الصـادق عن أبيه عن آبـائـه عليهم الـسـلام قـال: قـال رسـول الله

(١) عن شرح الصحيفة السجادية للسيد علي خان.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٩٢، عن الكافي.
(٣) الوافي ج ١٣ ص ٩٠ عن الكافي والتهذيب.
(١) الوافي ج ٣ ص ٩٣، عن الكافي.

(ص): «سيد الأبرار يوم القيامة، رجل برّ والديه بعد موتهما»[١].

عقوق الوالدين:

من الواضح أن نكران الجميل ومكافأة الإحسان بالإساءة، أمران يستنكرهما العقل والشرع، ويستهجنهما الضمير والوجدان. وكلما عظم الجميل والإحسان كان جحودها أشد نكراً وأفضع جريرةً وإثماً. وبهذا المقياس ندرك بشاعة عقوق الوالدين وفضاعة جرمه، حتى عدّ من الكبائر الموجبة لدخول النار. ولا غرابة فالعقوق ـ فضلاً عن مخالفته المبادىء الإنسانية، وقوانين العقل والشرع ـ دال على موت الضمير، وضعف الإيمان، وتلاشي القيم الإنسانية في العاق.

فقد بذل الأبوان طاقات ضخمة وجهوداً جبّارة، في تربية الأبناء وتوفير ما يبعث على إسعادهم وازدهار حياتهم مادياً وأدبياً، ما يعجز الأولاد عن تثمينه وتقديره.

فكيف يسوغ للأبناء تناسي تلك العواطف والألطاف ومكافأتها بالإساءة والعقوق؟

من أجل ذلك حذّرت الشريعة الإسلامية من عقوق الوالدين أشدّ التحذير، وأوعدت عليه بالعقاب العاجل والآجل.

فعن أبي الحسن (ع) قال: قال رسول الله (ص): «كن باراً، واقتصر على الجنة. وإن كنت عاقاً، فاقتصر على النار»[٢].

وقال الصادق (ع): «لو علم الله شيئاً هو أدنى من أف، لنهى عنه، وهو من أدنى العقوق. ومن العقوق أن ينظر الرجل إلى والديه، فيحدّ النظر إليهما»[٣].

---

(١) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٦، عن كتاب الإمامة والتبصرة لعلي بن بابويه.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٥٥، عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٥٥، عن الكافي.

وقال الباقر (ع): «إن أبي نظر إلى رجل ومعه ابنه يمشي، والابن متكىء على ذراع الأب، قال: فما كلّمه أبي (ع) مقتاً له حتى فارق الدنيا»[1].

وعن أمير المؤمنين (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ثلاثة من الذنوب، تعجل عقوبتها ولا تؤخر إلى الآخرة: عقوق الوالدين، والبغي على الناس، وكفر الإحسان»[2].

مساويء العقوق:

وللعقوق مساويء خطيرة، وآثار سيئة تنذر العاق وتتوعده بالشقاء الدنيوي والأخروي.

فمن آثاره أن العاقّ يعقّه ابنه... جزاءاً وفاقاً على عقوقه لأبيه. وقد شهد الناس صوراً وأدواراً من هذه المكافأة على مسرح الحياة.

من ذلك ما حكاه الأصمعي قال: حدثني رجل من الأعراب قال: خرجت من الحي أطلب أعق الناس وأبرّ الناس. فكنت أطوف بالاحياء، حتى انتهيت إلى شيخ في عنقه حبل، يستقي بدلو لا تطيقه الإبل في الهاجرة والحرّ الشديد، وخلفه شاب في يده رشاء من قدّ ملوي، يضربه به، قد شق ظهره بذلك الحبل.

فقلت له: أما تتقي الله في هذا الشيخ الضعيف، أما يكفيه ما هو فيه من هذا الحبل حتى تضربه؟

قال: أنه مع هذا أبي.

قلت: فلا جزاك الله خيراً.

قال: اسكت، فهكذا كان يصنع هو بأبيه، وكذا كان يصنع أبوه بجده.

فقلت: هذا أعق الناس.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٥٥، عن الكافي.

(٢) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٣، عن أمالي أبي علي بن الشيخ الطوسي.

ثم جلت أيضاً حتى انتهيت إلى شاب في عنقه زبيل، فيه شيخ كأنه فرخ، فيضعه بين يديه في كل ساعة، فيزقه كما يزق الفرخ.

فقلت له: ما هذا؟

فقال: أبي، وقد خرف، فأنا أكفله.

قلت: فهذا أبرّ العرب. فرجعت وقد رأيت أعقّهم وأبرهم[1].

ومن آثار العقوق:

أنه موجب لشقاء العاق، وعدم ارتياحه في الحياة، لسخط الوالدين ودعائهما عليه.

وقد جاء في الحديث النبوي: «إياكم ودعوة الوالد، فإنها أحدّ من السيف».

ومن آثار العقوق:

ان العاق يشاهد أهوالاً مريعة عند الوفاة، ويعاني شدائد النزع وسكرات الموت.

فعن أبي عبدالله (ع): «ان رسول الله (ص) حضر شاباً عند وفاته، فقال له: قل لا إله إلاّ الله. قال: فاعتقل لسانه مراراً.

فقال لامرأة عند رأسه: هل لهذا أم؟

قالت: نعم، أنا أمه.

قال: أفساخطة أنت عليه؟

قالت: نعم، ما كلمته منذ ست حجج.

قال لها: ارضي عنه. قالت: رضي الله عنه برضاك يا رسول الله.

فقال له رسول الله: قل لا إله إلا الله. قال: فقالها.

فقال النبي (ص): ما ترى؟

(١) المحاسن والمساوىء، للبيهقي ج ٢ ص ١٩٣.

فقال أرى رجلاً أسوداً قبيح المنظر، وسخ الثياب، منتن الريح، قد وليني الساعة فأخذ بكظمي.

فقال له النبي: قل «يا من يقبل اليسير ويعفو عن الكثير، إقبل مني اليسير واعف عني الكثير، إنك أنت الغفور الرحيم». فقالها الشاب.

فقال النبي (ص): انظر، ماذا ترى؟

قال: أرى رجلاً أبيض اللون، حسن الوجه، طيّب الريح، حسن الثياب قد وليني، وأرى الأسود قد تولى عني.

قال: أعد. فأعاد.

قال: ما ترى؟ قال: لست أرى الأسود، وأرى الأبيض قد وليني ثم طفى على تلك الحال»[١].

ومن آثار العقوق:

انه من الذنوب الكبائر التي توعد الله عليها بالنار، كما صرحت بذلك الأخبار.

والجدير بالذكر، أنه كما يجب على الأبناء طاعة آبائهم وبرهم والإحسان إليهم، كذلك يجدر بالآباء أن يسوسوا أبناءهم بالحكمة، ولطف المداراة، ولا يخرقوا بهم ويضطروهم إلى العقوق والعصيان.

فعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «يلزم الوالدين من العقوق لولدهما إذا كان الولد صالحاً ما يلزم الولد لهما»[٢].

وقال (ص): «لعن الله والدين حملا ولدهما على عقوقهما، ورحم الله والدين حملا ولدهما على برهما»[٣].

---

(١) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٣، عن أمالي أبي علي بن الشيخ الطوسي.
(٢) البحار م ١٦ ج ٤ ص ٢٢، عن خصال الصدوق.
(٣) الوافي ج ١٤ ص ٥٠، عن الفقيه.

حقوق الأولاد

الأولاد الصلحاء هم زينة الحياة، وربيع البيت، وأقمار الأسرة، وأعز آمالها وأمانيها، وأجل الذخائر وأنفسها. لذلك أثنى عليهم أهل البيت وغيرهم من الحكماء والأدباء.

عن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «الولد الصالح ريحانة من رياحين الجنة»[١].

وفي حديث آخر، قال (ص): «من سعادة الرجل الولد الصالح»[٢].

وقال أبو الحسن (ع): «إن الله تعالى إذا أراد بعبد خيراً لم يمته حتى يريه الخلف»[٣].

وقال حكيم في ميت: «إن كان له ولد فهو حي، وإن لم يكن له ولد فهو ميت».

وفضل الولد الصالح ونفعه لوالديه لا يقتصر على حياتهما فحسب، بل يسري حتى بعد وفاتهما وانقطاع أملهما من الحياة.

عن أبي عبدالله (ع) قال: «ليس يتبع الرجل بعد موته من الأجر إلا ثلاث خصال: صدقة أجراها في حياته وهي تجري بعد موته، وسنّة هدى سنّها فهي يعمل بها بعد موته، أو ولد صالح يدعو له»[٤].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «مرّ عيسى بن مريم بقبر يعذّب صاحبه، ثم مرّ به من قابل فإذا هو لا يعذّب. فقال: يا ربّ، مررت بهذا القبر عام أول وكان يعذب! فأوحى الله إليه: أنه أدرك له ولد صالح فأصلح طريقاً، وآوى يتيماً، فلهذا غفرت له بما فعل ابنه. ثم قال رسول الله (ص). ميراث الله من عبده المؤمن ولد يعبده من بعده. ثم تلا أبو عبدالله

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٩٦، عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١٩٦، عن الفقيه.
(٣) الوافي ج ١٢ ص ١٩٧، عن الفقيه.
(٤) الوافي ج ١٣ ص ٩٠، عن الكافي.

(ع) آية زكريا على نبينا وآله وعليه السلام: ﴿فهب لي من لدنك وليّاً يرثني ويرث من آل يعقوب، واجعله ربِّ رضيا﴾ (مريم: ٥ - ٦)[١].

ومن الواضح أن صلاح الأبناء واستقامتهم لا يتسنيان عفواً وجزافاً، وإنما يستلزمان رعاية فائقة واهتماماً بالغاً في إعدادهم وتوجيههم وجهة الخير والصلاح.

من أجل ذلك وجب على الآباء تأديب أولادهم وتنشئتهم على الاستقامة والصلاح، ليجدوا ما يأملون فيهم من قرة عين، وحسن هدى وسلوك.

قال الإمام السجاد (ع): «وأما حق ولدك: فأن تعلم أنه منك، ومضاف إليك في عاجل الدنيا بخيره وشره. وانك مسؤول عمّا وليته من حسن الأدب، والدلالة له على ربه عز وجل، والمعونة له على طاعته. فاعمل في أمره عمل من يعلم أنه مثاب على الإحسان إليه، معاقب على الإساءة إليه»[٢].

فالآباء مسؤولون عن تهذيب أبنائهم وإعدادهم إعداداً صالحاً، فإن أغفلوا ذلك أساؤوا إلى أولادهم، وعرضوهم لأخطار التخلف والتسيب الديني والاجتماعي.

ويحسن بالآباء أن يبادروا أبناءهم بالتهذيب والتوجيه، منذ حداثتهم ونعومة أظفارهم، لسرعة استجابتهم إلى ذلك قبل تقدمهم في السن، ورسوخ العادات السيئة والأخلاق الذميمة فيهم، فيغدون آنذاك أشد استعصاءاً على التأديب والإصلاح.

حكمة التأديب:

وهكذا يجدر بالآباء أن يتحروا القصد، والاعتدال في سلطتهم، وأساليب تأديب أبنائهم، فلا يسوسونهم بالقسوة والعنف مما يعقّدهم نفسياً، ويبعثهم على النفرة والعقوق. ولا يتهاونوا في مؤاخذتهم على الإساءة والتقصير، فيستخفون

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٩٧، عن الكافي.
(٢) رسالة الحقوق، للإمام علي بن الحسين (ع).

بهم ويتمردون عليهم، فإن «من أمن العقوبة أساء الأدب».

وخير الأساليب في ذلك هو التدرج في تأديب الأبناء وتقويمهم، وذلك بتشجيعهم على الإحسان، بالمدح والثناء وحسن المكافأة، وبنصحهم على الإساءة. فإن لم يجدهم ذلك، فبالتقريع والتأنيب، وإلا فبالعقوبة الرادعة، والتأنيب الزاجر.

المدرسة الأولى للطفل:

والبيت هو المدرسة الأولى للطفل، يترعرع في ظلاله، وتتكامل فيه شخصيته، وتنمو فيه سجاياه، متأثراً بأخلاق أبويه وسلوكهما. فعليهما أن يكونا قدوة حسنة، ومثلاً رفيعاً، لتنعكس في نفسه مزاياهم وفضائلهم.

منهاج التأديب:

١ ـ وأول ما يبدأ به في تهذيب الطفل، تعليمه آداب الأكل والشرب؛ كغسل اليدين قبل الطعام وبعده، والأكل بيمينه، وإجادة المضغ، وترك النظر في وجوه الآكلين، والرضا والقنوع بالمقسوم من الرزق. ونحو ذلك من الآداب.

٢ ـ ويراض الطفل على أدب الحديث، والكلام المهذب، والقول الحسن. ومنعه عن الفحش، والبذاء، والاغتياب، والثرثرة، وما إلى ذلك من مساوىء اللسان وأن يحسن الإصغاء، كما يحسن الحديث، فلا يقاطع متحدثاً حتى ينتهي من حديثه.

٣ ـ وأهم ما يعني به في توجيه الأولاد، غرس المفاهيم الدينية فيهم، وتنشئتهم على العقيدة والإيمان، بتعليمهم أصول الدين وفروعه بأسلوب يلائم مستواهم الفكري، ليكونوا على بصيرة من عقيدتهم وشريعتهم، محصنين ضدّ الشبه المضللة من أعداء الإسلام ﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة، عليها ملائكة غلاظ شداد، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم: ٦).

٤ ـ وعلى الآباء أن يروّضوا أبناءهم على التخلق بالأخلاق الكريمة والسجايا النبيلة: كالصدق، والأمانة، والصبر، والاعتماد على النفس.

وتحريضهم على حسن معاشرة الناس: كتوقير الكبير، والعطف على الصغير، وشكر المحسن، والتجاوز ما وسعهم عن المسيء، والتحنّن على البؤساء والمعوزين.

٥ ـ ومن المهم جداً منع الأبناء من معاشرة القرناء المنحرفين الأشرار، وتحبيذ مصاحبة الأخدان الصلحاء لهم، لسرعة تأثرهم بالأصدقاء، واكتسابهم من أخلاقهم وطباعهم، كما قال النبي (ص): «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل».

وقد شهد الناس كثيراً من مآسي الشباب الذين انحرفوا عن النهج السوي، وتدهوروا في مهاوي الرذيلة والفساد، لتأثرهم بقرناء السوء، وأخدان الشر.

٦ ـ وهكذا يحسن بالآباء أن يستطلعوا مواهب أبنائهم وكفاءاتهم، ليوجهوهم، في ميادين الحياة وطرائق المعاش، حسب استعدادهم ومؤهلاتهم الفكرية والجسمية: من طلب العلم، أو ممارسة الصناعة، أو التجارة، ليستطيعوا الاضطلاع بأعباء الحياة، ويعيشوا عيشاً كريماً.

الحقوق الزوجية

فضل الزواج

الزواج: هو الرابطة الشرعية المقدسة، وشركة الحياة بين الزوجين.

شرّعه الله عز وجل لحفظ النوع البشري وتكاثره، وعمران الأرض وازدهار الحياة فيها.

وقد رغبت فيه الشريعة الإسلامية وحرّضت عليه كتاباً وسنةً:

قال تعالى: ﴿وانكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم، أن

يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله، والله واسع عليم﴾ (النور: ٣٢).

وقال سبحانه: ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً، لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ (الروم: ٢١).

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ما بني بناءٌ في الإسلام أحب إلى الله من التزويج»[١].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر»[٢].

وقال (ص): «النكاح سنتي، فمن رغب عن سنتي، فليس مني»[٣].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «تزوجوا فإني مكاثر بكم الأمم غداً يوم القيامة، حتى أنّ السقط يجيء محبنطئاً على باب الجنة، فيقال له أدخل، فيقول: لا حتى يدخل أبواي قبلي»[٤].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: «ركعتان يصليهما المتزوج أفضل من سبعين ركعة يصليها أعزب»[٥].

وقال النبي (ص): «لركعتان يصليهما متزوج، أفضل من رجل عزب يقوم ليله ويصوم نهاره»[٦].

وقال (ص): «رذّال موتاكم العزاب»[٧].

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الفقيه.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الكافي.
(٣) البحار م ٢٣ ص ٥١، عن مكارم الأخلاق للطبرسي.
(٤) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الفقيه (المحبنطيء: المغتاظ).
(٥) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الفقيه والكافي.
(٦) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الفقيه.
(٧) الوافي ج ١٢ ص ١١، عن الفقيه.

١ ـ فوائد الزواج:

ولا عجب أن تؤكد هذه النصوص على الزواج تأكيدها الملّح، وتحرض عليه بالترغيب تارة والترهيب أخرى، لما ينطوي عليه من صنوف الخصائص والمنافع.

١ ـ فمن خصائصه: أنه الوسيلة الوحيدة لكسب للذرية الطيبة، والأبناء الصلحاء، وهم زينة الحياة الدنيا، وأعز ذخائرها، وألذ متعها وأشواقها، بهم يستشعر الآباء العزة والمنعة، وامتداد الحياة، وطيب الذكر، وحسن المكافأة، وجزيل الأجر عند الله عز وجل، كما أوضحته النصوص السالفة في فضل الولد الصالح.

٢ ـ ومن منافع الزواج:

انه باعث على عفة المتزوج وحصانته ضدّ الفجور والآثام الجنسية، وهذا ما عناه النبي (ص) بقوله: «من تزوج أحرز نصف دينه، فليتق الله في النصف الآخر».

من أجل ذلك كان عقاب الزاني المحصن رجماً بالحجارة حتى الموت، لتحصنّه بالزواج، واستهتاره بقدسية الأعراض وكرامتها المصونة.

٣ ـ ومن آثار الزواج:

أنه من دواعي رغد العيش، وسكينة النفس، وراحة الضمير والوجدان. ذلك أن الرجل كثيراً ما يعاني أزمات الحياة، ومتاعب الكفاح في سبيل العيش، فيجد في ظلاله زوجته الحبيبة المخلصة من حسن الرعاية ولطف المؤانسة، ورقة الحنان، ما يخفف عناءه ويسري عنه الكثير من المتاعب والهموم، ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها، وجعل بينكم مودة ورحمة﴾.

وعن أبي عبدالله عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «ما استفاد امرء مسلم فائدة بعد الإسلام أفضل من زوجة مسلمة، تسرّه إذا نظر

إليها، وتطيعه إذا أمرها، وتحفظه إذا غاب عنها في نفسها وماله»[١].

السعادة الزوجية:

ومن الثابت أن السعادة الزوجية لا تتحقق، ولا ينال الزوجان ما يصبوان إليه من رغد وهناء، إلا إذا أحسن كل منهما اختيار صاحبه، وشريك حياته، واصطفاه على ضوء القيم الأصيلة والمقاييس الثابتة، التي من شأنها أن توثق الروابط الزوجية، وتنشر السعادة والسلام في ربوع الحياة الزوجية. كما أن سوء الاختيار كثيراً ما يعرضها للفشل والإخفاق.

وقد عالج أهل البيت عليهم السلام هذا الجانب الموضوعي من حياة الناس، فأوضحوا محاسن ومساوىء كلٍ من الرجل والمرأة، ليكون كل منهما على بصيرة من اختيار زوجه وشريك حياته.

الزوج المثالي:

والزوج المثالي: هو الرجل الكفوء الذي تسعد المرأة في ضلاله، وتنعم بحياة زوجية هانئة.

فليست الكفاءة كما يتوهمها غالب الناس - منوطة بالزخارف المادية فحسب، كالقصر الفخم، أو السيارة الفارهة، أو الرصيد المالي الضخم.

وليس هي كذلك منوطة بالشهادة العالية، أو الوظيفة المرموقة، أو الحسب الرفيع.

فقد تتوفر هذه الخلال في الرجل، وهي رغم ذلك لا تحقق سعادة الزوجة وأمانيها في الحياة، كما أعربت عن ذلك زوجة معاوية، وقد سئمت في كنفه مظاهر الترف والبذخ والسلطان والثراء، وحنّت إلى فتى أحلامها، وإن كان خلواً من كل ذلك:

لبيت تخفق الأرواح فيه أحبّ إليّ من قصر منيف

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٦، عن الكافي والفقيه.

ولـبس عـبـاءة وتـقـر عـيـني أحـبّ إليّ من لـبس الـشـفـوف
وخـرق من بني عـمي نـجيـب أحب إليّ مـن عـلج عـنـيـف

فالكفاءة الحقة، هي مزيج من عناصر ثلاث: التمسك بالدين، والتحلي بحسن الخلق، والقدرة على إعالة الزوجة ورعايتها مادياً وأدبياً. وبذلك يغدو الرجل كفئاً وزوجاً مثالياً في عرف الإسلام.

فعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «إذا جاءكم من ترضون خلقه ودينه، فزوجوه، وإن لا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير»[1].

وقال الصادق (ع): «الكفوء أن يكون عفيفاً وعنده يسار»[2].

لذلك كان مكروهاً في الشريعة الإسلامية تزويج الفاسق، وشارب الخمر، والمخنث، وسيء الخلق، ونحوهم ممن لا يوثق بدينه وأخلاقه.

الزوجة المثالية:

والزوجة المثالية: هي المتحلية بالإيمان، والعفاف، وكرم الأصل، وجمال الخَلق والخُلق، وحسن العشرة مع زوجها.

وقد صورت نصوص أهل البيت عليهم السلام خصائص النساء، وصفاتهن الكريمة والذميمة، لتكون علامة فارقة بين الزوجة المثالية وغيرها.

عن جابر بن عبدالله قال: كنّا عند النبي (ص) فقال: «إن خير نسائكم الولود، الودود، العفيفة، العزيزة في أهلها، الذليلة مع بعلها، المتبرجة مع زوجها، الحصان على غيره، التي تسمع قوله وتطيع أمره، وإذا خلا بها بذلت له ما يريد منها، ولم تبذل كتبذل الرجل».

ثم قال: «ألا أخبركم بشرار نسائكم؟ الذليلة في أهلها، العزيزة مع بعلها، العقيم الحقود، التي لا تورع من قبيح، المتبرجة إذا غاب عنها بعلها،

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٧، عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١٨ عن الكافي والفقيه والتهذيب.

الحصان معه إذا حضر، لا تسمع قوله، ولا تطيع أمره، وإذا خلا بها بعلها تمنعت منه، كما تمنع الصعبة من ركوبها، لا تقبل له عذراً ولا تغفر له ذنباً»[١].

وعن أبي عبدالله (ع) عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): «أفضل نساء أمتي أصبحهن وجهاً وأقلهن مهراً»[٢].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من تزوج امرأة لا يتزوجها إلّا لجمالها لم ير فيها ما يحب، ومن تزوجها لمالها لا يتزوجها إلّا له وكله الله إليه، فعليكم بذات الدين»[٣].

وقام النبي (ص) خطيباً فقال: «أيها الناس، إياكم وخضراء الدمن». قيل يا رسول الله: وما خضراء الدمن؟ قال: «المرأة الحسناء في منبت السوء»[٤].

وقد نهى الحديث عن تزوّج المرأة الوضيئة الحسناء إذا كانت من أسرة مغموزة في عفتها ونجابتها.

رعاية الحقوق:

والزوجان بعد هذا لا يكسبان السعادة الزوجية والهناء العائلي، إلّا برعاية كل منهما حقوق الآخر وأداء واجباته، جرياً على قانون الأخذ والعطاء. وبذلك ينعمان بحياة سعيدة، آمنة من مثيرات النكد والتنغيص.

وقد أولت الشريعة الإسلامية الحياة الزوجية عناية بالغةً، بصفتها الخلية الأولى من خلايا المجتمع الكبير، ورعتها بالتنظيم والتوجيه، وقررت الحقوق المشتركة بين الزوجين، والحقوق الخاصة بكل منهما على انفراد.

فالحقوق المشتركة التي يجدر تبادلها بين الزوجين، هي: الإخلاص،

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٤، عن الكافي والتهذيب.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١٥، عن الكافي والفقيه.
(٣) الوافي ج ١٢ ص ١٣، عن التهذيب.
(٤) الوافي ج ١٢ ص ١٢، عن الكافي والفقيه.

الثقة، الأمانة، التعاطف، التآزر. وهذه هي عناصر الحياة الزوجية الناجحة، ومقوماتها الأصيلة.

وأما الحقوق الخاصة فسنعرضها في مطاوي هذا البحث:

حقوق الزوج:

للزوج حقوق على زوجه بحكم رعايته لها وقوامته عليها، وهي:

١ ـ الطاعة:

وهي أول متطلبات الزوج وحقوقه المفروضة على زوجه. فهي مسؤولة عن طاعته وتلبية رغباته المشروعة، ومفاداة كل ما يسيئه ويغيظه، كالخروج من الدار بغير رضاه، والتبذير في ماله، وإهمال وظائفها المنزلية، ونحو ذلك مما يعرض الحياة الزوجية لأخطار التباغظ والفرقة.

فعن أبي جعفر (ع) قال: جاءت امرأة إلى النبي (ص) فقالت: يا رسول الله، ما حق الزوج على المرأة؟ فقال لها: أن تطيعه ولا تعصيه، ولا تصدق من بيته إلّا بإذنه، ولا تصوم طوعاً إلّا بإذنه، ولا تمنعه نفسها وإن كانت على ظهر قتب، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه، وإن خرجت بغير إذنه لعنتها ملائكة السماء وملائكة الأرض، وملائكة الغضب وملائكة الرحمة حتى ترجع إلى بيتها.

فقالت: يا رسول الله مِن أعظم الناس حقاً على الرجل؟

قال: والده.

قالت: فمن أعظم الناس حقاً على المرأة؟

قال: زوجها....»[١].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: إن رجلاً من الأنصار على عهد رسول الله (ص)، خرج في بعض حوائجه. فعهد إلى امرأته عهداً أن لا تخرج من بيتها حتى يقدم.

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١١٤، عن الكافي والفقيه.

قال: وان أباها مرض، فبعثت المرأة إلى رسول الله (ص) فقالت: إن زوجي خرج وعهد إليّ أن لا أخرج من بيتي حتى يقدم، وأن أبي قد مرض، فتأمرني أن أعوده؟

فقال رسول الله (ص): لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك.

قال: فثقل، فأرسلت إليه ثانياً بذلك، فقالت: فتأمرني أن أعوده؟

فقال: اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك.

قال: فمات أبوها، فبعثت إليه إن أبي قد مات، فتأمرني أن أصلي عليه؟

فقال: لا، اجلسي في بيتك وأطيعي زوجك.

قال: فدفن الرجل، فبعث إليها رسول الله (ص): إن الله تعالى قد غفر لك ولأبيك بطاعتك لزوجك[1].

وقال أبو عبدالله (ع): أيّما امرأة باتت وزوجها عليها ساخط في حق، لم تقبل منها صلاة حتى يرضى عنها[2].

٢ ـ المداراة:

وعلى الزوجة أن تحيط زوجها بحسن العشرة، وجميل الرعاية، ولطف المداراة، وذلك بتفقد شؤونه، وتوفير وسائل راحته النفسية والجسمية، وحسن التدبير المنزلي، ورعاية عياله، ليستشعر منها العطف والولاء، وتغدو الزوجة بذلك حظية عند زوجها، أثيرة لديه، يبادلها الحب والإخلاص. وتكون إلى ذلك قدوة حسنة لأبنائها، يستلهمون منها كريم الأخلاق وحسن الأدب.

ومن أهم صور المداراة أن تتفادى المرأة جهدها، عن إرهاق زوجها بالتكاليف الباهضة، والمآرب التي تنوء بها إمكاناته الاقتصادية. فذلك مما يسبب إرباكه واغتمامه، ومن ثم يستثير سخطه ونفاره من زوجته.

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١١٥، عن الكافي.

(٢) الوافي ج ١٢ ص ١١٤، عن الكافي والفقيه.

فعن أبي إبراهيم (ع) قال: «جهاد المرأة حسن التبعل»[١].

ولا ريب أن حسن تبعل الزوجة وكرم أخلاقها، يشدّ أزر الزوج، ويرفع معنوياته، ويمده بطاقات جسمية ونفسية ضخمة، تضاعف من قدرته على مواصلة الكفاح والجهاد في سبيل العيش، ويزيده قوة وصلابة على معاناة الشدائد والأزمات، كما أن شراستها وتمردها يوهن كيانه، ويضعف طاقته، ويهرمه قبل أوان الهرم، وفي التاريخ دلائل وشواهد على ذلك.

منها: قصة الأخوة الثلاثة من بني غنّام، حينما جاءهم نفر يحكّمونهم في مشكلة أعياهم حلّها، فانتهوا إلى واحد منهم، فرأوا شيخاً كبيراً، فقال لهم: ادخلوا إلى أخي «فلان» فهو أكبر مني، فاسألوه.

فدخلوا عليه، فخرج شيخ كهل، فقال سلوا أخي الأكبر مني.

فدخلوا على الثالث، فإذا هو في المنظر أصغر. فسألوه أولاً عن حالهم، ثم أوضح مبيناً لهم، فقال:

أما أخي الذي رأيتموه أولاً، هو الأصغر، فإن له امرأة سوء تسوؤه وقد صبر عليها مخافة أن يبتلى ببلاء لا صبر له عليه، فهرمته.

وأما أخي الثاني فإن عنده زوجة تسوؤه وتسره، فهو متماسك الشباب.

وأما أنا، فزوجتي تسرني، ولا تسوؤني، لم يلزمني منها مكروه قط منذ صحبتني. فشبابي معها متماسك[٢].

وهذه وصية بليغة لأعرابية حكيمة، توصي بها ابنتها ليلة البناء بها: «أي بنية، إنك فارقت بيتك الذي منه خرجت، وعشك الذي فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه. فكوني له أمةً يكن لك عبداً، واحفظي له خصالاً عشراً:

أما الأولى والثانية: فاصحبيه بالقناعة، وعاشريه بحسن السمع والطاعة.

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١١٤، عن الكافي.

(٢) عن سفينة البحار ج ٢ ص ١٣٣ بتصرف واختصار.

وأما الثالثة والرابعة: فالتفقد لموضع عينه وأنفه، فلا تقع عينه منك على قبيح، ولا يشم منك إلاّ أطيب ريح.

وأما الخامسة والسادسة: فالتفقد لوقت منامه وطعامه، فإن تواتر الجوع ملهبة، وتنغيص النوم مغضبة.

وأما السابعة والثامنة: فالاحتراس بماله، والارعاء على حشمه وعياله. وملاك الأمر في المال حسن التقدير، وفي العيال حسن التدبير.

وأما التاسعة والعاشرة: فلا تعصين له أمراً، ولا تفشين له سرّاً. فإنك إن خالفتيه أغرت صدره، وإن أفشيت سرّه لم تأمني غدره.

ثم إياك والفرح بين يديه إذا كان مهتماً، والكآبة بين يديه إذا كان فرحاً، فإنّ الخصلة الأولى من التقصير، والثانية من التكدير.

وكوني أشدّ الناس له إعظاماً يكن أشدهم لك إكراماً، واعلمي أنك لا تصلين إلى ما تحبّين حتى تؤثري رضاه على رضاك، وهواه على هواك، فيما أحببت وكرهت. والله يخير لك»[1].

٣ ـ الصيانة:

وأهم واجبات الزوجة، صيانة شرف زوجها وسمعته، فتتفادى جهدها عمّا يسيئها ويخدشها، كالخلاعة والميوعة، وإفشاء أسرار الزوج، وكشف ما يحرص على إخفائه من صور الفاقة والعوز، فذلك مما يضعف ثقة الزوج بها ويهددها بالنفرة والفرقة.

حقوق الزوجة

وهكذا أولت الشريعة الإسلامية الزوجة عناية كبرى ومنحتها حقوقها المادية والأدبية، إزاء حقوق الزوج عليها. مشرعة ذلك على أساس الحكمة والعدل، ورعاية مصلحة الزوجين، وخيرهما معاً، وهي أمور:

---

(١) مختارات المنفلوطي ص ٢٤٠.

١ ـ النفقة:

وهي حق محتم على الزوج، يجب أداؤه إليها، وتوفير حاجاتها المعاشية، من الملبس والمطعم والمسكن، ونحو ذلك من مستلزمات الحياة حسب شأنها وعادتها.

والنفقة حق معلوم للزوجة، تتقاضاه من زوجها، وإن كانت ثرية موسرة، لا يسقط إلاّ بنشوزها وتمردها على الزوج. وليس له قسرها على الخدمات المنزلية، أو إرضاع طفله، إلاّ أن تتطوع بذلك عن رغبة وإيثار.

التوسعة على العيال

وقد يسترق البخل بعض النفوس فتنزع إلى الشح والتقتير على العيال، متغاضية عن أشواقهم ومآربهم. ومن هنا جاءت أحاديث أهل البيت عليهم السلام محذرة من ذلك الإمساك، ومرغِّبة في البر بهم، والتوسعة عليهم.

قال رسول الله (ص): «خيركم خيركم لنسائه، وأنا خيركم لنسائي»[١].

وقال (ص): «عيال الرجل إسراؤه، وأحب العباد إلى الله تعالى أحسنهم صنيعاً إلى أسرائه»[٢].

وقال أبو الحسن موسى بن جعفر عليهما السلام: «عيال الرجل اسراؤه، فمن أنعم الله عليه نعمة فليوسع على أسرائه، فإن لم يفعل أوشك أن تزول تلك النعمة»[٣].

وهكذا أثبتت أحاديثهم عليهم السلام وباركت جهود الكادحين، في طلب الرزق الحلال، لتموين أزواجهم وعوائلهم، وتوفير وسائل العيش لهم.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: «الكادّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله»[١].

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١١٧، عن الفقيه.

(٢) الوافي ج ١٢ ص ١١٧، عن الفقيه.

(٣) الوافي ج ١٢ ص ١١٧، عن الفقيه.

(١) الوافي ج ١٠ ص ١٨، عن الكافي والفقيه.

وعن أبي جعفر (ع) قال: «من طلب الرزق في الدنيا، استعفافاً عن الناس، وسعياً على أهله، وتعطفاً على جاره، لقي الله عز وجل يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر»[١].

٢ ـ حسن العشرة:

والزوجة أنيسة الرجل، وشريكة حياته، تشاطره السراء والضراء، وتواسيه في الأفراح والأحزان. وتنفرد بجهود شاقة مضنية من تدبير المنزل، ورعاية الأسرة، ووظائف الأمومة. فعلى الرجل أن يحسن عشرتها، ويسوسها بالرفق والمداراة، تلطيفاً لمشاعرها، ومكافأة لها على جهودها. وذلك مما يسليها، ويخفف متاعبها، ويضاعف حبّها وإخلاصها لزوجها.

وقد يستبد الصلف والغرور ببعض الأزواج، فيحسبون أن قوة الشخصية وسمات الرجولة لا تبرز فيهم إلاّ بالتحكم بالزوجة، والتجهّم لها، والتطاول عليها بالإهانة والتحقير. وتلك خلال مقيتة، تنم عن شخصية هزيلة معقّدة، تعكر صفو الحياة الزوجية، وتنغص الهناء العائلي.

والمرأة بحكم عواطفها ووظائفها، مرهفة الإحساس، سريعة التأثر، قد تسيء إلى زوجها بكلمة نابية، أو تقريع جارح، صادرين عن ثورة نفسية، وهياج عاطفي. فعلى الرجل أن يضبط أعصابه، ويقابل إساءتها بحسن التسامح والاغضاء، لتسير سفينة الأسرة آمنة مطمئنة، في محيط الحياة، لا تزعزعها عواصف النفرة والخلاف.

فعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «إنما مثل المرأة مثل الضلع المعوج، إن تركته انتفعت به، وإن أقمته كسرته»[٢].

فإذا تمادت المرأة في عصيان زوجها وتمردها عليه، فعليه أن يتدرج في علاجها وتأديبها، بالنصح والإرشاد، فإن لم يجدها ذلك أعرض عنها، واعتزل

---

(١) الوافي ج ١٠ ص ١٨، عن الكافي والتهذيب.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١٢٠، عن الكافي.

مضاجعتها، فإن لم يجدها ذلك ضربها ضرباً تأديبياً، مبرءاً من القسوة، والتشفي الحاقد ﴿واللاتي تخافون نشوزهن فعظوهن، واهجروهن في المضاجع، واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا﴾.

٣ ـ الحماية:

والزوج بحكم قوامته على الزوجة، ورعايته لها، مسؤول عن حمايتها وصيانتها عمّا يسيئها ويضرها أدبياً وماديّاً، وعليه أن يكون غيوراً عليها، صائناً لها مما يشوه سمعتها، ويثلب كرامتها من التخلع والاختلاط المريب، ومعاشرة المريبات من النساء.

وما أسوأ أولئك الذين يزجون أزواجهم في الندوات الخليطة، والحفلات الداعرة، يخالطن ويراقصن من شئن من الرجال، متعامين عن أضرار ذلك الاختلاط، وأخطاره الدينية والأخلاقية والاجتماعية، التي تهدد كيان الأسرة، وتنذرها بالتبعثر والانحلال.

وعلى المرء أن يحمي زوجه وأسرته من دسائس الغزو الفكري، ودعاياته المضللة، التي انخدع بها أغرار المسلمين، نساءاً ورجالاً، وتلقفوها تلقف الببغاء، دونما وعي وتمحيص في واقعها وأهدافها. وذلك بتعليمهم أصول الدين الإسلامي ومفاهيمه حسب مستواهم الثقافي والفكري، تحصيناً لهم من تلك الدسائس والشرور.

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً، وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون﴾ (التحريم: ٦).

الحقوق المزيفة

وتمخض العصر الحديث عن ضلالات ومبادىء غزت الشرق الإسلامي، وسممت أفكاره ومشاعره. وكان ذلك بتخطيط وكيد من أعداء الإسلام، لإطفاء نوره الوهاج. واستجاب الأغرار والبلهاء لتلك المفاهيم الوافدة، المناقضة لدينهم وشريعتهم، وطفقوا يحاكونها، وينادون بها كأنها من صميم مبادئهم. وانطمست

تلك الصورة الإسلامية التي كانت بالأمس القريب تشع بالجمال والنور والمثالية، وخلفتها صور مسيخة شوهاء يستبشعها الضمير المسلم، ويستنكرها واقع الإسلام، وغدا يستشعر الغربة والوحشة في ربوعه وبين اتباعه ومعتنقيه. وراحت المفاهيم الجاهلية الأولى تحتل مواقعها من مشاعر المسلمين وضمائرهم، لتحيلها قفراً يباباً من قيم الإسلام ومثله الرفيعة.

وانطلقت حناجر، وصرت أقلام أجيرة، تطالب بالمزيد من تلك الأعراف الجاهلية، لتشيع مفاهيمها الدارسة من جديد، في المحيط الإسلامي، وعلى حساب المرأة المسلمة، والتغاير على حقوقها وتحريرها ومساواتها بالرجل، ونحو ذلك من صور الدعايات المدجلة.

١ ـ السفور:

لقد عزّ على دعاة التحرر أن يروا المرأة المسلمة محصنة بالصون والحجاب، عصية الطلب، بعيدة المنال. فأغروها بالسفور والتبرج، ليستزلوها من علياء برجها وخدرها. واستجابت المرأة لتلك الدعوة الماكرة وراحت تُنظي حجابها وتبرز جمالها ومفاتنها، تستهوي العيون والقلوب، دونما تحرج أو استحياء.

وما خدعت المرأة المسلمة وغرر بها في تاريخها المديد بمثل ذلك الخُداع والتلبيس، متجاهلة عما يترصدها من جراء ذلك من الأخطار والمزالق.

ليس الحجاب كما يصوره المتحللون تخلفاً ورجعية، وإنما هو حشمة وحصانة، تصون المرأة من التبذل والاسفاف، ويقيها تلصص الغواة والداعرين، وتجنبها مزالق الفتن والشرور.

وحسب المسلمين أن يعتبروا بما أصاب الأمم الغربية من ويلات السفور والتبرج، واختلاط الجنسين، ما جعلها في وضع سيء وحالة مزرية، من التسيب الخلقي. وغدت تعاني ألوان المآسي الأخلاقية والصحية والاجتماعية.

الأضرار الخلقية

لقد أحدث التبرج والاختلاط في الأوساط الغربية مضاعفات أخلاقية

خطيرة، تثير الفزع والتقزز. فأصبحوا لا يستنكرون الرذائل الجنسية، ولا يستحيون من آثامها ومعائبها. وراح الوباء الخلقي يجتاحهم ويفتك بهم فتكاً ذريعاً، حتى انطلقت صيحات الغَيارى منهم معلنة بالتذمر والاستنكار، ومنذرة بالخطر الرهيب.

فقد صور (بول بيودر) انهيار الأخلاق في بلاده حيث قال: «لم يعد الآن من الغريب الشاذ وجود العلاقات الجنسية بين الأقارب في النسب، كالأب والبنت، والأخ والأخت في بعض الأقاليم الفرنسية، وفي النواحي المزدحمة في المدن».

وجاء في تقرير (اللجنة الأربعة عشرية) المعنية بالفحص عن مكامن الفجور: «ان كل ما يوجد في البلاد الأمريكية من المراقص والنوادي الليلية، ومجالي الزينة، وأماكن التدريم، وحجرات التدليك، ومراكز تمويج الشعر، قد أصبح جُلها مواطن للفجور ودوراً للبغاء، بل هي أقبح منها وأشنع، لما يرتكب فيها من الرذائل التي لا تصلح للذكر».

ومما يخمنه القاضي (لندسي) الأمريكي: «أن خمساً وأربعين في المائة من فتيات المدارس يدنسن أعراضهن قبل خروجهن منها، وترتفع هذه النسبة كثيراً في مراحل التعليم التالية».

وقال (جورج رائيلي اسكات) في كتابه (تاريخ الفحشاء) وهو يشير إلى حالة بلاده في الغالب «وقد بلغ عدد هؤلاء العاهرات غير المحترفات في هذه الأيام مبلغاً لم يعهد قط فيما قبل، فأولئك يوجدن في كل طبقة من طبقات المجتمع من الدنيا والعليا. . . وقد أصبح تعاطي الفجور وعدم التصون بل اتخاذ الأطوار السوقية، معدوداً عند فتاة العصر، من أساليب العيش المستجدة».

وقد سرت عدوى هذا التفسخ الخلقي إلى الصبية والصبايا من أولئك الأقوام، لتأثرهم بالمحيط الفاسد والمثيرات الجنسية.

يقول الدكتور (راديت هوكو) في كتابه (القوانين الجنسية): «انه ليس من الغريب الشاذ حتى في الطبقات المثقفة المترفة، أن بنات سبع أو ثماني سنين

منهم، يخادن لداتهن من الصبية، وربما تلوثن معهم بالفاحشة».

وقد جاء في تقرير طبيب من مدينة (بالتي مور): «أنه قد رفع إلى المحاكم في تلك المدينة أكثر من ألف مرافعة في مدة سنة واحدة، كلها في ارتكاب الفاحشة مع صبايا دون الثانية عشرة من العمر».

ولم تقف الفوضى الخلقية عند هذا الدرك السافل، فقد تفاقمت حتى أصبحت العلاقات الجنسية الطبيعية... لا تشبع نهمهم الجنسي، فراحوا يتمرغون في مقاذر الشذوذ الجنسي وانحرافاته النكراء. وعاد من المألوف لديهم أن يتزوج الفتى فتىً مثله، بتشجيع من القانون، ومرأى ومسمع من الناس، وهم يباركون هذا العرس!!

ويقول الدكتور (هوكر): «انه لا تزال تحدث في مثل هذه المدارس والكليات ودور التربية للممرضات، والمدارس الدينية، من تسافح الولدين من الجنس الوالد فيما بينهما، وقد تلاشى أوكاد.. ميلهم الطبيعي إلى الجنس المخالف».

والآن فلنسائل الببغاوات من دعاة التحرر والتبرج، أهذا الذي ينشدوه لأنفسهم وأمتهم الإسلامية... أم أنهم لا يفقهون ما ينادون به ويدعون إليه؟

إن كل داعية إلى التبرج والاختلاط هو بلا ريب، معول هدام، في كيان المجتمع الإسلامي، ورائد شر ودعارة لأمته وبلاده.

﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا، لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة، والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ (النور: ١٩).

الأضرار الصحية

وكان من الطبيعي لأمة شاع فيها الفساد، وتلاشت فيها قيم الدين والأخلاق، أن تعاني نتائج شذوذها وتفسخها، فتنهار صحتها كما انهارت أخلاقها من قبل.

وهذا ما حدث فعلاً في الأوساط الغربية، حيث استهدفتها الأمراض

الزهرية، وكبدتها خسائر فادحة في الأرواح والأموال. وجاءت تقارير أطباء الغرب معلنة أبعاد تلك الأمراض ومآسيها الخطيرة في أرقى تلك الأمم وأكثرها تشدقاً بالحضارة والمدنية.

قال الدكتور الفرنسي (لبريد): «إنه يموت في فرنسا ثلاثون ألف نسمة بالزهريّ وما يتبعها من الأمراض الكثيرة، في كل سنة. وهذا المرض هو أفتك الأمراض بالأمة الفرنسية بعد حُمى الدق».

وجاء في دائرة المعارف البريطانية ج ٢٣ ص ٤٥: «انه يعالج في المستشفيات الرسمية هناك (أي القطر الأمريكي) مائتا ألف مريض بالزهري ومائة وستون ألف مصاب بالسيلان البني في كل سنة بالمعدل. وقد اختص بهذه الأمراض الجنسية وحدها ستمائة وخمسون مستشفى، على أنه يفوق هذه المستشفيات الرسمية نتاج الأطباء غير الرسميين الذين يراجعهم ٦١٪ من مرضى الزهري و٨٩٪ من مرضى السيلان».

وجاء في كتاب القوانين الجنسية:

انه «يموت في أمريكا ما بين ثلاثين وأربعين ألف طفل بمرض الزهري الموروث وحده، في كل سنة. وان الوفيات التي تقع بسبب جميع الأمراض - عدا السل - يربو عليها جملة عدد الوفيات الواقعة من مرض الزهري وحده».

وكل هذه الخسائر والمآسي تدفعها الأمم الغربية الداعرة.. ضريبة من صحتها وحياتها جزاءاً وفاقاً، على تفسخها وتمرغها في مقاذر الجنس ومباءته.

الأضرار الاجتماعية

وكان حتماً مقضياً على تلك الأمم المتحللة أن تعاني - إلى جانب خسائرها الأخلاقية والصحية - عللاً اجتماعية خطيرة.

فقد جنت على حياتها الأسرية والاجتماعية، بإغفالها مبادىء العفة والوفاء، واستهتارها بشرائط الزوجية الصالحة. وطفق الزوجان منهم يهيمان في متاهات الغواية والفساد، تنطلق الزوجة خليعة متجملة بأبهى مظاهر الجمال،

وبواعث الفتنة والإغراء، وينطلق الزوج هائماً في مراتع التبذل والإسفاف. وسرعان ما ينزلق هذا أو تلك في مهاوي الرذيلة، حينما تستهوي بهما شخصية جذابة أروع جمالاً وأشد إغراءاً من شريك حياته، فيزورُّ عنه طالباً صيداً جديداً، ومتعة جديدة، بين فتيان الهوى وفتياته السائحات. فتزعزع بذلك كيان الأسرة، وانفرط عقدها، ووهت العلائق الزوجية، وغدت تنفصم لأتفه الأسباب. كما شهدت بذلك تقارير الخبراء.

وقد كتب القاضي (لندسي) في بلدة (دنور) سنة ١٩٢٢:

«أعقب كل زواج تفريق بين الزوجين، وبازاء كل زواجين عرضت على المحكمة قضية الطلاق. وهذه الحال لا تقتصر على بلدة دنور، بل الحق أن جميع البلدان الأمريكية على وجه التقريب تماثلها في ذلك قليلاً أو كثيراً».

ويمضي في كتابته فيقول: «إن حوادث الطلاق والتفريق بين الزوجين لا تزال تكثر وتزداد، وان اطردت الحال على هذا - كما هو المرجو - فلا بد أن تكون قضايا الطلاق المرفوعة إلى المحاكم في معظم نواحي القطر على قدر ما يمنح فيها من الامتيازات للزواج».

وهكذا توالت على الأمم الغربية أعراض الشذوذ واختلاطاته المقيتة فقد زهد الكثيرون منهم في الحياة الزوجية، وآثروا العزوبة إشباعاً لهوسهم الجنسي وتحرراً من قيود الزواج وتكاليفه.

فقد جاء في مقال نشرته جريدة (بدترويت):

«إن ما قد نشأ بيننا اليوم من قلة الزواج، وكثرة الطلاق، وتفاحش العلاقات غير المشروعة بين الرجال والنساء، يدل كله على أننا راجعون القهقرى إلى البهيمية. فالرغبة الطبيعية في النسل إلى التلاشي، والجيل المولود ملقى حبله على غاربه، والشعور بكون تعمير الأسرة والبيت لازماً لبقاء المدنية، والحكم المستقل يكاد ينتفي من النفوس، وبخلاف ذلك أصبح الناس ينشأ فيهم الاغفال عن مآل المدنية والحكومة وعدم النصح لهما».

ولو تحرينا مردّ تلك المآسي التي اجتاحت الغرب لرأيناه ماثلاً في التبرج

والخلاعة والاختلاط، وشيوع المثيرات الجنسية، كالأفلام الداعرة والقصص الخلاعية والأغاني المخنثة، التي مسخت القيم الأخلاقية وأشاعت الاسفاف والتهتك في المجتمع الغربي، كما شهد بذلك القوم أنفسهم.

وقد كتب (أميل بوريسي) في تقريره الذي قدّمه إلى الجلسة العامة الثانية لرابطة منع الفواحش:

«هذه الفوتوغرافات الداعرة المتهتكة تصيب أحاسيس الناس بأشدّ ما يمكن من الهيجان والاختلال، وتحث مشتريها البؤساء على المعاصي والإجرام التي تقشعر من تصورها الجلود. وإنّ أثرها السيء المهلك في الفتية والفتيات لمّا يعجز عنه البيان. فكثير من المدارس والكليات قد خربت حالتها الخلقية والصحية لتأثير هذه الصور المهيجة، ولا يمكن أن يكون للفتيات على الأخص شيء أضرّ وأفتك من هذه»[1].

* * *

ونستنتج من هذا العرض السالف: أنّ الشريعة الإسلامية، إنّما أمرت المرأة المسلمة بالحجاب، ونهتها عن التبرج والاختلاط المريب، حرصاً على كرامتها وصيانتها من دوافع الإساءة والتغرير، ووقاية للمجتمع الإسلامي من المآسي والارزاء التي حاقت بالأمم الغربية، ومسخت أخلاقها وضمائرها وأوردتها موارد الشقاء والهلاك.

انظر كيف أهاب الإسلام بالمرأة المسلمة أن تتحصن بالحجاب، وتتوقى به مزالق الفتن والشرور: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك، ونساء المؤمنين، يدنين عليهن من جلابيبهن، ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين﴾ (الأحزاب: ٥٩).

هذه هي إحدى الآيات الكريمة الناطقة بوجوب الحجاب، والمحرضة عليه، بأسلوب جاد صريح، حيث خاطب الله عز وجل رسوله الأعظم: ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك، وبناتك، ونساء المؤمنين... يدنين عليهن من

(١) اقتبسنا تلك الأقوال المترجمة عن كتاب الحجاب، للأستاذ المودودي.

جلابيبهن﴾ وذلك بإسدال الجلباب ـ وهو ما تستتر به المرأة من ملحفة أو ملاءة ـ على وجوههن وأبدانهن.

ثم بين سبحانه علة الحجاب وجدواه: «ذلك أدنى أن يعرفن، فلا يؤذين» حيث أن الحجاب يستر محاسن المرأة ومفاتنها، ويحيطها بهالةٍ من الحصانة والمنعة، تقيها تلصص الغواة والداعرين وتحرشاتهم الإجرامية العابثة لصون النساء وكرامتهن.

ويمضي القرآن الكريم في تركيز مبدأ الحجاب والحث عليه في آيات متتالية، وأساليب بلاغية فذّة:

﴿يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء، ان اتقيتنّ، فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرض، وقلن قولاً معروفاً. وقرن في بيوتكنّ ولا تبرجّن تبرج الجاهلية الأولى﴾ (الأحزاب: ٣٢ ـ ٣٣).

وهنا يخاطب الله عز وجل، زوجات النبي (ص): ﴿يا نساء النبي لستنّ كأحد من النساء﴾ في الشرف والفضل، فأنتنّ أرفع شأناً وأسمى منزلة منهن، لشرف انتمائكن لرسول الله (ص) ﴿ان اتقيتنّ﴾ معصية الله تعالى ورسوله، وفي هذا الشرط إشعار لهنّ أنّ انتسابهنّ إلى الرسول (ص) فحسب لا يوجب تفوقهن على غيرهن من النساء، إلا بتحليهن بتقوى الله عز وجل، الذي هو مفتاح الفضائل، وقوام حياة الإيمان.

﴿فلا تخضعن بالقول، فيطمع الذي في قلبه مرض﴾ فلا تخاطبن الأجانب بأسلوب لينّ رقيق يستثير نوازع القلوب المريضة بالدنس والفجور.

﴿وقلن قولاً معروفاً﴾ مستقيماً مشعراً بالحشمة والترفع والوقار. ثم أمرهن بالاستقرار في بيوتهن، ونهاهنّ عن التبرج وإظهار المحاسن والزينة للأجانب، كما كنّ يظهرنها النساء الجاهليات ﴿وقرن في بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى﴾. وفي ذلك ضمان لعفاف المرأة وكرامتها، وصيانتها من مزالق الخطيئة، وخوالج الشك والارتياب.

وهكذا يواصل القرآن الكريم غرس الفضيلة والعفة في نفوس المؤمنين

بمُثله العليا، وآدابه الرفيعة:

﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم، ويحفظوا فروجهم، ذلك أزكى لهم، إن الله خبير بما يصنعون. وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن، ويحفظن فروجهن، ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها، وليضربن بخمُرهن على جيوبهن، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن، أو آبائهن، أو آباء بعولتهن أو أبنائهنّ، أو أخوانهن، أو بني أخوانهنّ، أو بني أخواتهن، أو نسائهنّ، أو ما ملكت أيمانهن، أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال، أو الطفل الذي لم يظهروا على عورات النساء. ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ (النور: ٣٠ ـ ٣١).

أمر الله تعالى في هذه الآية الكريمة النبي (ص) أن يصدع بآداب القرآن ووحي السماء، ويوجه المؤمنين على ضوئها توجيهاً هادفاً بناءاً.

﴿قل﴾ يا محمد ﴿للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ بأن ينقصوا من نظراتهم وتطلعاتهم نحو النساء الأجنبيات، لما في ذلك من ضروب الأخطار والأضرار. فكم نظرة طامحة إلى الجمال أورثت حسرة طويلة، واسترقت صاحبها بأسر الحب وعناء الهيام.

وأنت إذا أرسلت طرفك رائداً لقلبك يوماً اتعبتك المناظر
رأيت الذي لا كله أنت قادر عليه ولا عن بعضه أنت صابر

وقد تزج النظرة الآثمة في مهاوي الرذيلة والفساد:

نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء

ثم أمر المؤمنين بحفظ الفروج بعد أمرهم بغض الأبصار ﴿ويحفظوا فروجهم﴾ عن الآثام الجنسية أو يستروها عن الناظر المحترم، وقد أوصد الله تعالى بهذين الأمرين ـ غض الأبصار وحفظ الفروج ـ أخطر منافذ الشرور الخلقية وبوائقها العارمة، وحصن المؤمنين بالعفة والنزاهة ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أطهر لنفوسهم وأخلاقهم، وأنفع لدينهم ودنياهم.

ثم عمد إلى توعية الضمائر، وتصعيد قيمها الأخلاقية بالإيحاء النفسي بهيمنة الله سبحانه عليهم ورقابته لهم ﴿إن الله خبير بما يصنعون﴾ بأبصارهم

وفروجهم وجميع أعمالهم.

ثم عطف الله تعالى على النساء المؤمنات، فأمرهنّ بما أمر به الرجال المؤمنين من غض الأبصار وحفظ الفروج، لاتحاد الجنسين، وتساويهما في الغرائز والميول، وانجذاب كل منهما نحو الآخر.

وخصّ النساء بتوجيهات تنظّم سلوكهن، وتذكي فيهن مشاعر الحشمة والعزة والوقار: ﴿ولا يبدين زينتهن﴾ لا يظهرن مواضع الزينة لغير المحارم، ﴿إلّا ما ظهر منها﴾ كالثياب أو الوجه والكفين، ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ وليسدلن الخمر والمقانع على نحورهن وصدورهن تستراً من الأجانب.

ثم رخّصهن في إبداء زينتهن للمحارم، ومن يؤمن من الافتتان والإغراء منهنّ وعليهن، لنفرة الطباع من ذلك ﴿ولا يبدين زينتهن إلّا لبعولتهنّ، أو آبائهن، أو آباء بعولتهن، أو أبنائهن، أو أبناء بعولتهن، أو إخوانهنّ، أو بني إخوانهن، أو بني أخواتهن، أو ما ملكت أيمانهنّ﴾ وهم الإماء. ﴿أو التابعين غير أولي الأربة من الرجال﴾ وهم الذين يتّبعون الناس طمعاً في برهم ونوالهم من لا يهفو إلى النساء، ولا حاجة له فيهن، كالبله من الرجال أو الشيوخ العاجزين الصلحاء.

﴿أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء﴾ وأريد به جميع الأطفال الذين لا يعرفون عورات النساء لسذاجتهم، وضعف غريزتهم الجنسية.

﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ للاعلام عن خلخالها أو اسماع صوته.

﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ (النور: ٣١). تسعدون في الدارين.

* * *

وهكذا جاءت أحاديث أهل البيت عليهم السلام تحضّ على العفاف، وغض الأبصار عن النظرة المحرمة، فضلاً عن الاختلاط، سيان في ذلك الرجال والنساء.

قال الصادق (ع): «النظرة سهم من سهام إبليس مسموم، وكم نظرة أورثت حسرة طويلة»[١].

وقال (ع): «أول النظرة لك، والثانية عليك، والثالثة فيها الهلاك»[٢].

وقال (ع): «نهى رسول الله (ص) أن يدخل الرجل على النساء إلّا بإذن أوليائهن»[٣].

وعن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا: «ما من أحد إلّا وهو يصيب حظاً من الزنا، فزنا العين النظر، وزنا الفم الغيبة، وزنا اليدين اللمس، صدق الفرج ذلك أم كذب»[٤].

وقال الصادق (ع): «من نظر إلى امرأة فرفع بصره إلى السماء، لم يرتد إليه بصره حتى يزوجه الله من الحور العين»[٥].

وعنه، عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله (ص): «كل عين باكية يوم القيامة إلّا ثلاثة أعين: عين بكت من خشية الله، وعين غضّت عن محارم الله، وعين باتت ساهرة في سبيل الله»[٦].

* * *

منزلة المرأة في الإسلام

أجدني وأنا أتحدث عن الحقوق الزوجية منساقاً إلى التحدث عن منزلة المرأة في الإسلام، ورعايته لها وعطفه عليها، ما جعلها حظّية سعيدة في ظلاله.

ولا يستطيع الباحث أن يتبين أبعاد حظوتها وسعادتها في عهده الزاهر إلا

---

(١) الوافي ج ١٢ ص ١٢٧، عن الكافي.
(٢) الوافي ج ١٢ ص ١٢٧، عن الفقيه.
(٣) الوافي ج ١٢ ص ١٢٣، عن الكافي.
(٤) الوافي ج ١٢ ص ١٢٧، عن الكافي.
(٥) الوافي ج ١٢ ص ١٢٧، عن الفقيه.
(٦) البحار م ٢٣ ص ١٠١ عن خصال الصدوق (ره).

بالمقارنة بينها وبين غيرها من النساء اللاتي سبقنها أو تخلفن عنها في التاريخ، ليستجلي عزتها وتفوقها عليهن.

ولا يستطيع أن يتبين ذلك إلا بدراسته على ضوء المباديء السماوية الخالدة، والقيم المنطقية الأصيلة المبرئة من نوازع الهوى والجهل وسيطرة الأعراف والتقاليد التي لا تصلح أن تكون مقياساً ثابتاً وحكماً عدلاً في تمحيص الحقائق وتقييمها واستجلاء الواقع من المزيف منها، لتلونها بالمحيط الذي نبعت منه والظرف الذي شاعت فيه، فطالما استحسن العرف خلالاً قبيحة واستقبح سجايا كريمة، متأثراً بدوافع هذا أو ذاك.

وإنما يصلح العرف في التحكيم إذا كان مستنيراً بهدي الله تعالى وتوجيهه السديد الحكيم، فإنه آنذاك لا يخطيء في حكمه، ولا يزيغ عن العدل والصواب.

المرأة في التأريخ القديم

لقد اضطرب المعيار الاجتماعي في تقييم المرأة وتحديد منزلتها الاجتماعية في عصور الجاهلية القديمة أو الحديثة. وتأرجح بين الإفراط والتفريط، وبين التطفيف والمغالاة، دون أن يستقر على حال رضي من القصد والاعتدال.

فاعتُبرت حيناً من الدهر مخلوقاً قاصراً منحطاً، ثم اعتُبرت شيطاناً يسوّل الخطيئة ويوحي بالشر، ثم اعتبرت سيدة المجتمع تحكم بأمرها وتصرفه بمشيئتها، ثم اعتبرت عاملة كادحة في سبيل عيشها وحياتها.

وكانت المرأة في أغلب العصور تعاني الشقاء والهوان، مهدورة الحق مسترقة للرجل، يسخرها لأغراضه كيف يشاء.

وهي في تقييم الحضارة الرومانية في تأرجح واضطراب، بين التطفيف والمغالاة: اعتبرتها رقيقاً تابعاً للرجل، يتحكم فيها كما شاء. ثم غالت في قيمها فحررتها من سلطان الأب والزوج، ومنحتها الحقوق الملكية والإرثية وحرية الطلاق، وحرية التبذل والإسفاف، فكانت الرومانية تتزوج الرجل بعد الآخر دونما خجل أو استحياء.

فقد كتب «جوونيل ٦٠ - ١٤٠م» عن امرأة تقلبت في أحضان ثمانية أزواج في خمس سنوات. وذكر القديس «جروم ٣٤٠ - ٤٢٠م» عن امرأة تزوجت في المرة الأخيرة الثالث والعشرين من أزواجها، وكانت هي أيضاً الحادية والعشرين لبعلها[١].

ثم أباحوا لها طرق الغواية والفساد، مما سبب تفسخ المجتمع الروماني ثم سقوطه وانهياره.

وهي في عرف الحضارة اليونانية تعتبر من سقط المتاع، تُباع وتُشترى، وتعتبر رجساً من عمل الشيطان.

وقضت شرائع الهند القديمة (أن الوباء والموت والجحيم والسم والأفاعي والنار.. خير من المرأة) وكان حقها في الحياة ينتهي بانتهاء أجل زوجها الذي هو سيدها ومالكها، فإذا رأت جثمانه يحرق ألقت بنفسها في نيرانه، وإلا حاقت عليها اللعنة الأبدية.

وأما رأي التوراة في المرأة، فقد وضحه سفر الجامعة في الكلمات الآتية: «درت أنا وقلبي لأعلم ولأبحث ولأطلب حكمة وعقلاً، ولأعرف الشر أنه جهالة، والحماقة أنها جنون، فوجدت أمرّ من الموت المرأة، التي هي شباك، وقلبها شراك، ويداها قيود» (الإصحاح ١٤ الفقرة ١٧)[٢].

وكانت المرأة من وجهة نظر المسيحية - خلال العصور الوسطى - مخلوق شيطاني دنس، يجب الابتعاد عنه.

قال «ليكي» في كتاب تاريخ أخلاق أوروبا: «وكانوا يفرون من ظل النساء، ويتأثمون من قربهن والاجتماع بهن، وكانوا يعتقدون أن مصادفتهن في الطريق والتحدث إليهن - ولو كُنّ أمهات وأزواجاً أو شقيقات - تحبط أعمالهم وجهودهم الروحية»[٣].

---

(١) الحجاب للمودودي ص ٢٢.

(٢) مقارنة الأديان ج ٣ الإسلام ص ١٩٦ بتصرف للدكتور أحمد شلبي.

(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيد الندوي ص ١٦٠.

وهكذا كان المجتمع الغربي فيما خلا تلك العصور، يستخف بالمرأة ولا يقيم لها وزناً. (فقد عُقد في فرنسا اجتماع سنة ٥٨٦م يبحث شأن المرأة وما إذا كانت تعد إنساناً أو لا تعد إنساناً. وبعد النقاش، قرر المجتمعون أن المرأة إنسان ولكنها مخلوقة لخدمة الرجل)[١].

وفي انجلترا حرّم «هنري الثامن» على المرأة الإنجليزية قراءة الكتاب المقدس، وظلت النساء حتى سنة ١٨٥٠م غير معدودات من المواطنين، وظللن حتى سنة ١٨٨٢م ليس لهن حقوق شخصية، ولا حق لهن في التملك الخالص، وإنما كانت المرأة ذائبة في أبيها أو زوجها[٢].

المرأة في المجتمع العربي الجاهلي

وقد لخص الأستاذ الندوي حياة المرأة في المجتمع العربي الجاهلي، حيث قال:

«وكانت المرأة في المجتمع الجاهلي عرضة غبن وحيف، تُؤكل حقوقها وتُبتز أموالها، وتحرم من إرثها، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه، وتورث كما يورث المتاع أو الدابة، وكانت المرأة في الجاهلية يطفف معها الكيل، فيتمتع الرجل بحقوقه ولا تتمتع هي بحقوقها، ومن المأكولات ما هو خالص للذكور ومحرم على الإناث، وكان يسوغ للرجل أن يتزوج ما يشاء من النساء من غير تحديد.

وقد بلغت كراهة البنات إلى حدّ الوأد، وكانوا يقتلون البنات بقسوة، فقد يتأخر وأد الموؤدة لسفر الوالد وشغله، فلا يئدها إلا وقد كبرت وصارت تعقل، وكان بعضهم يلقي الأنثى من شاهق»[٣].

المرأة في الحضارة الغربية الحديثة

ولما بلغت الحضارة الغربية الحديثة أوجها، نالت المرأة فيها ـ بعد جهاد

(١)، (٢) مقارنة الأديان، للدكتور أحمد شلبي ج ٣ ص ٢٠٠.
(٣) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، للسيد الندوي ص ٥٧ بتصرف.

شاق وتضحيات غالية ـ حريتها وحقوقها، وغدت تستشعر المساواة بالرجل، وتشاطره الأعمال في الدوائر والمتاجر والمصانع، ومختلف الشؤون والنشاطات الاجتماعية.

وابتهجت المرأة الغربية بهذه المكاسب التي نالتها بالدموع والمآسي، متجاهلة واقع غبنها وخسرانها في هذا المجال. ولو أنها حاكمت وعادلت في ميزان المنطق بين المغانم التي حققتها والمغارم التي حاقت بها... لأحست بالأسى والخيبة والخسران.

فقد خدعها دعاة التحرر في هذه الحضارة المادية، وغرروا بها واستغلوا سذاجتها استغلالاً ماكراً دنيئاً. استغلوها لمضاربة الرجل، ومكايدته حينما بدأ يطالب بمضاعفة أجور العمل وتخفيف ساعاته، فاستجابت لذلك... تعمل أعمال الرجل قانعة بأجر دون أجره.

واستغلوا أنوثتها في الحقل التجاري لمضاعفة الأرباح المادية، لقدرتها على اجتذاب الزبائن وتصريف البضائع، مستثيرين كوامن الجنس في نفوسهم فأي استغلال أنكى وأسوأ من هذا الاستغلال؟

وكان عليها بعد هذا أن تضطلع بمهامها النسوية من الحمل والوضع والتربية والتدبير المنزلي، إلى جانب كفاحها في سبيل العيش كيلا يمسها السغب والحرمان لنكول الرجل عن إعالتها في الغالب.

وبالرغم مما حققته المرأة الأوروبية من صنوف الإنجازات والمكاسب، فإنها تعتبر في المعيار المنطقي خاسرة مخفقة، قد خسرت إزاء تحررها دينها وأخلاقها وكرامتها، وأصبحت في حالة مزرية من التبذل والإسفاف. كما شهد به الغربيون أنفسهم مما أوضحناه سالفاً ونزيده إيضاحاً في الأبحاث التالية.

تحرير المرأة في الإسلام

وندرك من هذا العرض السالف مبلغ التخبط والتأرجح في تقييم المرأة عبر العصور القديمة والحديثة، دون أن تهتدي الأمم إلى القصد والاعتدال، مما

أساء إلى المرأة والمجتمع الذي تعيشه إساءة بالغة.

فلما انبثق فجر الإسلام وأطل على الدنيا بنوره الوضّاء، أسقط تلك التقاليد الجاهلية وأعرافها البالية، وأشاد للإنسانية دستوراً خالداً يلائم العقول النيّرة والفطر السليمة، ويواكب البشرية عبر الحياة.

فكان من إصلاحاته أنه صحح قيم المرأة وأعاد إليها اعتبارها، ومنحها حقوقها المادية والأدبية بأسلوب قاصد حكيم، لا إفراط فيه ولا تفريط، فتبوأت المرأة المسلمة في عهده الزاهر منزلة رفيعة لم تبلغها نساء العالم.

لقد أوضح الإسلام واقع المرأة، ومساواتها بالرجل في المفاهيم الإنسانية، واتحادها معه في المبدأ والمعاد، وحرمة الدم والعرض والمال، ونيل الجزاء الأخروي على الأعمال، ليُسقط المزاعم الجاهلية إزاء تخلف المرأة عن الرجل في هذه المجالات.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى، وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣).

﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ (النحل: ٩٧).

وكان بعض الأعراب يئد البنات ويقتلهن ظلماً وعدواناً، فجاء الإسلام ناعياً ومهدداً على تلك الجريمة النكراء، ومنح البنت شرف الكرامة وحق الحياة ﴿وإذا الموءودة سُئلت، بأي ذنبٍ قتلت﴾ (التكوير: ٨ - ٩).

﴿ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق، نحن نرزقهم وإياكم، إن قتلهم كان خطئاً كبيراً﴾ (الإسراء: ٣١).

وقضت الأعراف الجاهلية أن تسوم المرأة ألوان التحكم والافتئات، فتارة تقسرها على التزويج ممن لا ترغب فيه، أو تعضلها من الزواج، وأخرى تُورث كما يورث المتاع، يتحكم بها الوارث كيف يشاء، فله أن يزوجها ويبتز مهرها، أو يعضلها حتى تفتدي نفسها منه أو تموت، فيرثها كُرهاً واغتصاباً. وقد حررها الإسلام من ذلك الأسر الخانق والعبودية المقيتة، ومنحها حرية اختيار الزوج

الكفؤ، فلا يصح تزويجها إلا برضاها، وحرم كذلك استيراثها قسراً وإكراهاً:

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً، ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن﴾ (النساء: ١٩).

وكانت التقاليد الجاهلية، وحتى الغربية منها، إلى عهد قريب تمنع المرأة حقوق الملكية، كما حرمتها الجاهلية العربية حقوق الإرث، لأن الإرث في عرفهم لا يستحقه إلاّ رجال القبيلة وحماتها المدافعون عنها بالسيف. وقد اسقط الإسلام تلك التقاليد الزائفة. ومنح المرأة حقوقها الملكية والإرثية، وقرر نصيبها من الإرث.. امّاً كانت، أو بنتاً، أو اختاً، أو زوجة:

﴿للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن﴾ (النساء: ٣٢).

﴿للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون، وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون﴾ (النساء: ٧).

وفرض للزوجة على زوجها حق الإعالة، ولو كانت ثرية موسرة.

وقد عرضنا في حقوق الزوجة طرفاً من وصايا أهل البيت عليهم السلام في رعايتها وتكريمها، تعرب عن اهتمام الشريعة الإسلامية بشؤون المرأة ورفع معنوياتها.

واستطاع الإسلام بفضل مبادئه وسمو آدابه أن يجعل المرأة المسلمة قدوة مثالية لبناء الأمم، في رجاحة العقل وسمو الإيمان وكرم الأخلاق، ورفع منزلتها الاجتماعية، حتى استطاعت أن تناقش وتحاجّ الخليفة الثاني إبّان خلافته، وهو يخطب في المسلمين وينهاهم عن المغالاة في المهور، فانبرت له امرأة من صف الناس، وقالت: ما ذاك لك.

فقاله: ولِمَ؟

أجابت: لأن الله تعالى يقول: ﴿وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً، أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ (النساء: ٢٠).

فرجع عمر عن رأيه، وقال: اخطأ عمر وأصابت امرأة.

وقد سجل التاريخ صفحات مشرقة بأمجاد المرأة المسلمة ومواقفها البطولية في نصرة الإسلام، يقصّها الرواة بأسلوب رائع ممتع يستثير الإعجاب والإكبار.

فهذه «نسيبة المازنية» كانت تخرج مع رسول الله (ص) في غزواته، وكان ابنها معها، فأراد أن ينهزم ويتراجع، فحملت عليه، فقالت: يا بني، إلى أين تفر عن الله وعن رسوله؟ فردته.

فحمل عليه رجل فقتله، فأخذت سيف ابنها، فحملت على الرجل فقتلته، فقال رسول الله (ص): بارك الله عليك يا نسيبة.

وكانت تقي رسول الله (ص) بصدرها وثديها، حتى أصابتها جراحات كثيرة[1].

وحجّ معاوية سنة من سنيّه، فسأل عن امرأة من بني كنانة كانت تنزل بالحجون، يقال لها «دراميّة الحجون» وكانت سوداء كثيرة اللحم، فأخبر بسلامتها، فبعث إليها. فجيء بها، فقال: ما حالك يابنة حام؟ قالت: لست لحام إن عبتني، إنّما أنا امرأة من بني كنانة، ثمت من بني أبيك.

قال: صدقت، أتدرين لم بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلاّ الله.

قال: بعثت إليك لأسألك، علامَ أحببت علياً وأبغضتني، وواليته وعاديتني؟

قالت: أو تعفيني يا أمير المؤمنين.

قال: لا أعفيك.

قالت: أما إذا أبيت، فإني أحببت علياً على عدله في الرعية، وقسمه بالسوية. وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر، وطلبتك ما ليس لك بحق. وواليت علياً على ما عقد له رسول الله من الولاء، وعلى حبه للمساكين، وإعظامه لأهل الدين، وعاديتك على سفكك الدماء، وشقك العصا وجورك في

(١) عن سفينة البحار ج ٢ ص ٥٨٥.

القضاء، وحكمك بالهوى.

قال: فلذلك انتفخ بطنك.

قالت: يا هذا، بهند والله يضرب المثل في ذلك لا بي.

قال معاوية: يا هذه، اربعي، فإنّا لـم نقل إلاّ خيراً، فرجعت وسكنت.

فقال لها: يا هذه، هل رأيت علياً؟

قالت: أي والله لقد رأيته.

قال: فكيف رأيتيه.

قالت: رأيته والله لم يفتنه الملك الذي فتنك، ولم تشغله النعمة التي شغلتك.

قال: هل سمعت كلامه.

قالت: نعم والله، كان يجلو القلوب من العمى كما يجلو الزيت الصدأ.

قال: صدقت، فهل لك من حاجة؟

قالت: أو تفعل إذا سألتك؟ قال: نعم.

قالت: تعطيني مائة ناقة حمراء فيها فحلها وراعيها.

قال: تصنعين بها ماذا؟

قالت: أغذو بألبانها الصغار، وأستحيي بها الكبار، وأكتسب بها المكارم، وأصلح بها بين العشائر.

قال: فإن أعطيتك ذلك، فهل أحلّ عندك محل عليّ؟

قالت: ماء ولا كصدّاء، ومرعى ولا كالسعدان، وفتى ولا كمالك.

ثم قال: أما والله لو كان علي حيّاً ما أعطاك منها شيئاً.

قالت: لا والله ولا وبرة واحدة من مال المسلمين.

* * *

واستدعى معاوية امرأة من أهل الكوفة تسمى «الزرقاء بنت عديّ» كانت

تعتمد الوقوف بين الصفوف وترفع صوتها صارخة، يا أصحاب علي، تسمعهم كلامها كالصوارم، مستحثة لهم بقول لو سمعه الجبان لقاتل، والمدبر لأقبل، والمسالم لحارب، والفار لكرّ، والمتزلزل لاستقر.

فلما قدمت على معاوية، قال لها: هل تعلمين لم بعثت إليك؟

قالت: لا يعلم الغيب إلاّ الله سبحانه وتعالى.

قال: ألست الراكبة الجمل الأحمر يوم صفين، وأنت بين الصفوف توقدين نار الحرب، وتحرضين على القتال؟

قالت: نعم. قال: فما حملك على ذلك؟

قالت: يا أمير المؤمنين، انه قد مات الرأس، وبتر الذنب، ولن يعود ما ذهب، والدهر ذو غير، ومن تفكر أبصر، والأمر يحدث بعده الأمر.

قال: صدقت، فهل تعرفين كلامك وتحفظين ما قلت؟

قالت: لا والله ولقد أنسيته.

قال: لله أبوك، فلقد سمعتك تقولين «أيها الناس، ارعوا وارجعوا، إنكم أصبحتم في فتنة، غشتكم جلابيب الظلم، وجارت بكم عن قصد المحجة، فيا لها فتنة عمياء صماء بكماء، لا تسمع لناعقها، ولا تسلس لقائدها. إن المصباح لا يضيء في الشمس، وإن الكواكب لا تنير مع القمر، وإنّ البغل لا يسبق الفرس، ولا يقطع الحديد إلاّ بالحديد، الا من استرشد أرشدناه، ومن سألنا أخبرناه.

أيها الناس: إن الحق كان يطلب ضالته فأصابها، فصبراً يا معشر المهاجرين والأنصار على الغصص، فكأنكم وقد التأم شمل الشتات، وظهرت كلمة العدل، وغلب الحق باطله، فإنه لا يستوي المحق والمبطل. أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون. فالنزال النزال، والصبر الصبر، الا أن خضاب النساء الحناء، وخضاب الرجاء الدماء، والصبر خير الأمور عاقبة. أئتوا الحرب غير ناكصين، فهذا يوم له ما بعده».

ثم قال: يا زرقاء، أليس هذا قولك وتحريضك؟

قالت: لقد كان ذلك.

قال: لقد شاركت علياً في كل دم سفكه.

فقالت: أحسن الله بشارتك أمير المؤمنين، وأدام سلامتك، فمثلك من بشر بخير، وسرّ جليسه.

فقال معاوية: أو يسرك ذلك؟

قالت: نعم والله لقد سرّني قولك، وأنّى لي بتصديق الفعل. فضحك معاوية، وقال: والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب عندي من حبكم له في حياته[1].

وهذه أم وهب ابن عبدالله بن خباب الكلبي، قالت لابنها يوم عاشوراء: قم يا بني، فانصر ابن بنت رسول الله.

فقال: أفعل يا أماه ولا أقصرّ.

فبرز وهو يقول رجزه المشهور، ثم حمل فلم يزل يقاتل، حتى قتل منهم جماعة، فرجع إلى أمّه وامرأته، فوقف عليهما فقال: يا أماه أرضيت؟

فقالت: ما رضيت أو تقتل بين يدي الحسين (ع).

فقالت امرأته: بالله، لا تفجعني في نفسك.

فقالت أمّه: يا بني، لا تقبل قولها وارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله، فيكون غداً في القيامة شفيعاً لك بين يدي الله.

فرجع ولم يزل يقاتل حتى قتل تسعة عشر فارساً واثني عشر راجلاً، ثم قطعت يداه. وأخذت أمه عموداً وأقبلت نحوه وهي تقول: فداك أبي وأمي، قاتل دون الطيبين - حرم رسول الله (ص) -. فأقبل كي يردها إلى النساء، فأخذت بجانب ثوبه «لن أعود أو أموت معك».

فقال الحسين (ع): جزيتم من أهل بيتٍ خيراً، ارجعي إلى النساء،

(١) هاتان القصتان (الثانية والثالثة) عن قصص العرب ج ٢، وقد نقلنا بتصرف واختصار.

رحمك الله، فانصرفت. وجعل يقاتل حتى قتل رضوان الله عليه[١].

هذه لمحة خاطفة عن عرض تاريخي طويل زاخر بأمجاد المرأة المسلمة، ومواقفها البطولية الخالدة، اقتصرنا عليها خشية الإطالة.

وأين من هذه العقائل المصونات، نساء المسلمين اليوم، اللاتي يتشدق الكثيرات منهن بالتبرج، ونبذ التقاليد الإسلامية، ومحاكاة المرأة الغربية، في تبرجها وخلاعتها. فخسرن بذلك أضخم رصيد ديني وأخلاقي تملكه المرأة المسلمة وتعتز به، وغدون عاطلات من محاسن الإسلام، وفضائله المثالية.

المساواة بين الرجل والمرأة

لقد غزت الشرق فيما غزاه من صنوف البدع والضلالات، فكرة المساواة التامة بين الرجل والمرأة، ومشاطرتها له في مختلف نشاطاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية.

وانخدع أغرار المسلمين بهذه الفكرة، وراحوا ينادون بها ويدعون إليها، جهلاً منهم بزيفها ومخالفتها مباديء الفطرة والوجدان، للفوارق العديدة بين الجنسين، واختلاف مؤهلاتهما في مجالات الحياة.

ومتى ثبتت المفارقات بين الرجل والمرأة، تجلى خطأ هذه الفكرة، واستبان ما فيها من تفريط وتضييع لخصائص كل منهما وكفاءته.

فالرجل غالباً: هو أضخم هيكلاً من المرأة، وأصلب عوداً، وأقوى جلداً على معاناة الشدائد والأهوال، كما هو أوسع أفقاً، وأبعد نظراً، وأوفر خبرة في تجارب الحياة.

والمرأة غالباً: هي أجمل صورة من الرجل، وأضعف جسماً وطاقة، وأرق عاطفة، وأرهف حسّاً، تيسيراً لما أعدت له من وظائف الأمومة ورسالتها الإنسانية في الحياة.

ويزداد التغاير والتباين بين الجنسين فيما ينتاب الأناث خاصة، من أعراض

---

(١) نفس المهموم للشيخ عباس القمي (ره) بتصرف وتلخيص.

الحيض والحمل والإرضاع، مما يؤثر تأثيراً بالغاً في حياة المرأة وحالتها الصحية.

فهي تعاني أعراضاً مرضية خلال عاداتها الشهرية، تخرجها عن طورها المألوف.

قال الطبيب (جب هارد): «قلّ من النساء من لا تعتل بعلة في المحاض، ووجدنا أكثرهن يشكين الصداع والنصب والوجع تحت السرة، وقلة الشهوة للطعام، ويصبحن شرسات الطباع، مائلات إلى البكاء. فنظراً لهذه العوارض كلها يصح القول، أن المرأة في محاضها تكون في الحق مريضة، ويتنابها هذا المرض مرة في كل شهر، وهذه التغيرات في جسم المرأة تؤثر لا محالة في قواها الذهنية وفي أفعال أعضائها».

وهكذا أعرب الباحثون عن امتناع المساواة بين الجنسين.

قال الباحث الطبيعي الروسي (انطون نميلاف) في كتابه الذي أثبت فيه عدم المساواة الفطرية بينهما، بتجارب العلوم الطبيعية ومشاهداته: «ينبغي أن لا نخدع أنفسنا بزعم أن إقامة المساواة بين الرجل والمرأة في الحياة العملية أمر هيّن ميسور. الحق أنه لم يجتهد أحد في الدنيا لتحقيق هذه المساواة بين الصنفين مثل ما اجتهدنا في روسيا السوفيتية، ولم يوضع في العالم من القوانين السمحة البريئة من التعصب في هذا الباب مثل ما وضع عندنا، ولكن الحق أن منزلة المرأة قلّما تبدلت في الأسرة، ولا في الأسرة فحسب بل قلما تبدلت في المجتمع أيضاً».

ويقول في مكان آخر: «لا يزال تصور عدم مساواة الرجل والمرأة ذلك التصور العميق راسخاً لا في قلوب الطبقات ذات المستوى الذهني البسيط، بل في قلوب الطبقات السوفيتية العليا أيضاً»[1].

وقال الدكتور (الكسيس كاريل) الحائز على جائزة نوبل: «يجب أن يبذل المربون اهتماماً شديداً للخصائص العضوية والعقلية في الذكر والأنثى، كذا لوظائفهما الطبيعية، فهناك اختلافات لا تُنقض بين الجنسين ولذلك فلا مناص من

---

(١) الحجاب، للمودودي ص ٢٥٦.

أن نحسب حساب هذه الاختلافات في إنشاء عالم متمدن»[1].

ولا يعتبر تفوق الرجل على المرأة في المجالات العملية والنظرية مقياساً عاماً شاملاً لجميع الرجال، فقد تَبُذُّ المرأة الرجل وتفوقه في ذلك، ولكن هذا لا ينفي تخلفها عن أغلب الرجال.

وعزا بعضهم تخلف المرأة عن الرجل إلى التقاليد الاجتماعية، والنظم التربوية التي تكتنف حياتها.

وفاتهم أن تلك التقاليد والنظم قد تلاشت في أغلب الدول المتحللة، وانعدمت فيها الفوارق بين الجنسين، وغدت المرأة تتمتع بجميع فرص التكافؤ التي يتمتع بها الرجل. وبالرغم من ذلك فإنها تعتبر في المرتبة الثانية منه.

ومن هنا ندرك امتناع المساواة المطلقة بين الرجل والمرأة، ونعتبرها ضرباً من الحماقة والسخف.

فهل يسع دعاة المساواة أن يطوروا واقع الرجل ويجعلوه مشاركاً للمرأة في مؤهلاتها الخاصة، ووظائفها النسوية التي يعجز عنها هو، كذلك لا يسعهم أن يسترجلوا المرأة ويمنحوها خصائص الرجل ووظائفه التي تعجز عنها هي:

إن الحكمة الإلهية قد كيفت كلًّا من الجنسين وأعدته إعداداً خاصاً، يؤهله لأداء وظائفه ومهماته في الحياة، فلا مناص من تنويع الأعمال بينهما حسب كفاءتهما ومؤهلاتهما... وكُلٌّ مُيسرٌ لما خُلق له.

فوظيفة الرجل هي: ممارسة الأعمال الشاقة، والشؤون الخارجية عن المنزل، والكدح في توفير وسائل العيش لأسرته، والدأب على حمايتها وإسعادها مادياً وأدبياً، مما تنوء به المرأة ولا تستطيع اتقانه وإجادته.

ووظيفة المرأة هي: أن تكون ربة بيت وراعية منزل، وأمّاً مثالية تُنشيء الأكفاء من الرجال، وهي وحدها التي تستطيع أن تجعل البيت فردوساً للرجل،

---

(١) الإنسان ذلك المجهول ص ١١٧.

يستشعر فيه الراحة من متاعب الحياة، وينعم الأطفال فيه بدفء الحنان ودواعي النمو والازدهار.

فإقحام المرأة في ميادين الرجل، ومنافستها له في أعماله... تضييع لكفاءتها ومؤهلاتها، ثم هو تجميد للرجل عن ممارسة نشاطاته الحيوية التي يجيدها ولا تجيدها المرأة، وتعطيل له عن إنشاء أسرة وتكوين بيت.

وقد أحدثت منافسة المرأة للرجل في وظائفه ونشاطاته الخاصة في الجاهلية الحديثة... شروراً أخلاقية واجتماعية ونفسية خطيرة، وكانت مضارها أكثر من نفعها أضعافاً مضاعفة.

وأصبحت المرأة هناك تعاني مرارة الكفاح ومهانة الابتذال في سبيل العيش، كي لا تمسّها الفاقة لنكول الرجل عن إعالتها، مما عاقها عن أداء وظائفها الخاصة من تدبير المنزل ورعاية الأسرة وتربية الأبناء تربية صالحة.

وبتقاعس المرأة عن أداء واجبها الأصيل، وانخراطها في المجتمع الخليط، أصيبت الأسرة هناك بالتبعثر والتسيب والشقاء، وشاع فيها التفسخ والتهتك والانهيار الخلقي، كما شهد بذلك الباحث الطبيعي الروسي (انطون نيميلاف) في كتابه الآنف الذكر:

«الحق أن جميع العمال قد بدت فيهم أعراض الفوضى الجنسية، وهذه حالة جدّ خطرة، تهدد النظام الاشتراكي بالدمار، فيجب أن نحارب بكل ما أمكن من الطرق، لأن المحاربة في هذه الجبهة ذات مشاكل وصعوبات. ولي أن أدلكم على آلاف من الأحداث، يعلم منها أن الإباحية الجنسية قد سرت عدواها لا في الجهال الأغرار فحسب، بل في الأفراد المثقفين من طبقة العمال»[1].

وحسبُنا هذه الشهادة عِظة وعبرة على بطلان المساواة بين الجنسين، وأضرار اختلاطهما في الوظائف والأعمال، فهل من متعظ؟!

فإقحام المرأة في ميدان أعمال الرجال خطأ فاضح، وجناية كبرى على المرأة

(١) الحجاب، للمودودي ص٢٥٧.

والمجتمع الذي تعيشه، وهدر لكرامتها معاً.

نعم... يستساغ للمرأة أن تمارس أعمالاً تخصها وتليق بها، كتعليم البنات، وتطبيب النساء وتوليدهن، وفي حالة فقدان المرأة من يعولها، أو عجزه عن إعالتها، فإنها والحالة هذه تستطيع مزاولة الأعمال والمكاسب التي يُؤمن عليها من مفاتن المجتمع الخليط، ويُؤمن عليه من فتنتها كذلك.

ولكن الإسلام، صان كرامة المرأة المعوزة، وكفل رزقها من بيت المال، دون أن يحوجها إلى تلك المعاناة، فلو أدى المسلمون زكاة أموالهم ما بقي فقير محتاجاً.

فماذا يريد دعاة المساواة؟ أيريدون إعزاز المرأة وتحريرها من الغبن الاجتماعي؟ فقد حررها الإسلام ورفع منزلتها ومنحها حقوقها المادية والأدبية.

أم يريدون مخادعة المرأة وابتذالها، لتكون قريبة من عيون الذئاب ومغازلاتهم؟

وماذا تريد المرأة المتحررة؟ أتريد المساواة التامة بالرجل، أم تريد حرية الخلاعة والابتذال؟

وكلها غايات داعرة، حرمها الإسلام على المرأة والرجل ليقيهما مزالق الفتن ومآسي الاختلاط.

التمايز بين الجنسين

لقد حرر الإسلام المرأة من تقاليد الجاهلية وأعرافها المقيتة، وأعزها ورفع منزلتها، وقرر مساواتها بالرجل في الإنسانية ووحدة المبدأ والمعاد، وحرمة الدم والعرض والمال، ونيل الجزاء الأخروي على الأعمال.

وحدد قيم المرأة ومنزلتها من الرجل تحديداً عادلاً حكيماً. فهو يساوي بينها وبين الرجل فيما تقتضيه الحكمة والصواب، ويفرّق بينهما في بعض الحقوق وبعض الواجبات والأحكام، حيث يجدر التفريق ويحسن التمايز نظراً لاختلاف خصائصهما ومسؤولياتهما في مجالات الحياة.

وهو في هذا وذاك يستهدف الحكمة والصلاح، والتقييم العادل لطبائع

البشر وخصائصهم الأصيلة. فلم يكن في تمييزه الرجل في بعض الأحكام ليستهين بالمرأة أو يبخس حقوقها، وإنما أراد أن يحقق العدل، ويمنح كلاً منهما ما يستحقه ويلائم كفاءته وتكاليفه.

وسنبحث في المواضيع التالية أهم مواطن التفريق والتمايز بين الرجل والمرأة، لنستجلي حكمة التشريع الإسلامي وسمو مبادئه في ذلك.

١ ـ القوامة:

الأسرة هي الخلية الأولى، التي انبثقت منها الخلايا الاجتماعية العديدة والمجتمع الصغير الذي نما واتسع منه المجتمع العام الكبير.

ومن الثابت أن كل مجتمع ـ ولو كان صغيراً ـ لا بد له من راع كفؤ يرعى شؤونه، وينظم حياته، ويسعى جاهداً في رقيّه وازدهاره.

لذلك كان لا بد للأسرة من راع وقيم، يسوسها بحسن التنظيم والتوجيه ويوفر لها وسائل العيش الكريم، ويحوطها بالعزة والمنعة، وتلك مهمة خطيرة تستلزم الحنكة والدُّربة، وقوة الإرادة، ووفرة التجربة في حقول الحياة.

فأي الشخصين الرجل أو المرأة أحق برعاية الأسرة والقوامة عليها؟

إنّ الرجل بحكم خصائصه ومؤهلاته أكثر خبرةً وحذقاً في شؤون الحياة من المرأة، وأكفأ منها على حماية الأسرة ورعايتها أدبياً ومادياً، وأشدّ قوة وجَلداً على تحقيق وسائل العيش ومستلزمات الحياة. لذلك كان هو أحق برعاية الأسرة والقوامة عليها. وهذا ما قرره الدستور الإسلامي الخالد ﴿الرجال قوامون على النساء بما فضّل الله بعضهم على بعض، وبما أنفقوا من أموالهم﴾ (النساء: ٣٤).

وليس معنى القوامة هو التحكم بالأسرة وسياستها بالقسوة والعنف، فذلك منافٍ لأخلاق الإسلام وآدابه. والقوامة الحقة هي التي ترتكز على التفاهم والتآزر والتجاوب الفكري والعاطفي بين راعي الأسرة ورعيته.

﴿ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف، وللرجال عليهن درجة﴾ (البقرة: ٢٢٨).

أمـا المرأة فـإنها بحكـم أنوثتهـا، رقيقة العـاطفة، مـرهفة الحس، سريعـة التأثر، تتغلب عـواطفها عـلى عقلها ومشـاعرهـا. وذلك مـا يؤهلها لأداء رسـالة الأمومة، ووظائفها المستلزمة لتلك الخلال، ويقصيها عن مركـز القيادة في الأسرة الذي يتطلب الحنكة، واتزان العواطف، وقوة الجَلَد والحزم، المتوفرة في الرجل، وهذا ما يُؤثره عليها في رعاية الأسرة والقوامة عليها.

هذا إلى أن المرأة الســويّة بحكم أنـوثتها تستخف بـالزوج المـائع الـرخو، وتكبره إذا كان ذا شخصية قوية جذّابة، تستشعر في ظلال رجولته مفاهيم العزة والمنعة، وترتاح إلى حسن رعايته وتدبيره.

٢ ـ إيثار الرجل على المرأة في الإرث:

وهكـذا قضت حكمة التشريع الإسلامي أن تُؤثـر الـرجـل عـلى المـرأة، بضِعف نصيبهـا من الإرث، مما حسبـه المغفلون انتقاصـاً لكرامـة المـرأة وبخسـاً لحقوقها.

لا.... لم يكن الإسلام ليستهين بـالمرأة أو يبخس حقـوقها، وهـو الذي أعزها ومنحها حقوقهـا الأدبية والمـادية، وإنمـا ضاعف نصيب الـرجل عليهـا في الإرث تحقيقاً للعدل والإنصاف، ونظراً لتكاليفه ومسؤولياته الجسيمة.

فالرجل مكلف بالإنفـاق على زوجتـه وأسرته وتـوفير مـا تحتاجـه من طعام وكسـاء وسكن، وتعليم وتطبيب، والمـرأة معفـوة من كـل ذلـك. وكـذلـك هـو مسؤول عن حماية الإسلام والجهاد في نصرتـه، والمرأة غـير مكلفة بـه. والرجـل مكلف بالإسهام في دية العاقلة ونحوها من الالتزامات الاجتماعية، والمـرأة معفاة منها.

وعلى ضوء هذه الموازنة بين الجهد والجزاء، نجد أن من العدل والإنصاف تفوّق الرجل على المرأة في الإرث، وأنها أسعد حالاً، وأوفر نصيباً منه، لتكـاليفه الأسريـة والاجتماعيـة، التي هي غير مسؤولـة عنهـا. وهـذا مـا شرعـه الإسـلام ﴿للذكر مثل حظ الانثيين﴾ (النساء: ١١) عـلى أن تفضيل الـرجل عـلى المرأة في

الإرث لا يعمّ حقوقها الملكية، وأموالها المكتسبة، فإنها والرجل سيان، ولا يحق له أن يبتز فلساً واحداً منها إلا برضاها وإذنها.

٣ ـ الشهادة:

وهكذا تجلت حكمة التشريع الإسلامي في تقييم شهادة المرأة، واعتبار شهادة امرأتين بشهادة رجل واحد. وقد أراد الإسلام بهذا الإجراء أن يصون شهادة المرأة عن التزوير والافتراء، ليحفظ حقوق المتخاصمين عن البخس والضياع.

فالمرأة سرعان ما تستبد بها عواطفها الجيّاشة، وشعورها المرهف، وانفعالها السريع، فتزيغ عن العدل، وتتناسى الحق والواجب، متأثرة بنوازعها نحو أحد المتداعيين، قريباً لها أو عزيزاً عليها، وتفادياً من ذلك، قرن الإسلام بين المرأتين في الشهادة، لتكون إحداهما مذكرة للأخرى ورادعة لها عن الزيغ والممالاة ﴿واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء، أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى﴾ (البقرة: ٢٨٢).

هذا إلى أن الطب الحديث قد اكتشف أن بعض النساء إبان عادتهن الشهرية، قد تضعف طاقاتهن الذهنية ويغدون آنذاك مظنة للنسيان، كما أوضحته التقارير السالفة، في بحث المساواة[1].

وهذا ما يؤيد ضرورة اقتران امرأتين في الشهادة، إذ باقترانهما وتذكير إحداهما للأخرى يتجلى الحق ويتضح الواقع.

٤ ـ تعدد الزوجات:

وما فتيء أعداء الإسلام يشنون الحملات الظالمة على الدين الإسلامي وشريعته الغراء، في صور من النقد اللاذع، والتنديد الرخيص، الكاشف عن

---

(١) انظر ص ٤٨٦ من هذا الكتاب (قول الطبيب جب هارد).

حقدهم وكيدهم للإسلام.

فمن ذلك تشنيعهم على الإسلام بإباحته تعدد الزوجات، وأنها على زعمهم اضرار بالزوجة وإرباك لحياتها.

وقد جهل الناقدون أو تجاهلوا أنّ الإسلام لم يكن المشرع الأول لذلك، فقد شرعته الأديان السماوية والقوانين الوضعية قبل الإسلام بآماد وقرون مديدة.

«فلا حجر على تعدد الزوجات في شريعة قديمة سبقت قبل التوراة والإنجيل، ولا حجر على تعدد الزوجات في التوراة أو في الإنجيل، بل هو مباح مأثور عن الأنبياء أنفسهم، من عهد إبراهيم الخليل إلى عهد الميلاد. ولم يرد في الإنجيل نص واحد يحرم ما أباحه العهد القديم للآباء والأنبياء، ولمن دونهم من الخاصة والعامة. وما ورد في الإنجيل يشير إلى الإباحة في جميع الحالات، والاستثناء في حالة واحدة، وهي: حالة الأسقف حين لا يطيق الرهبانية فيقنع بزوجة واحدة اكتفاء بأهون الشرور...

وقال (وسترمارك) العالم الثقة في تاريخ الزواج: أنّ تعدد الزوجات باعتراف الكنيسة بقي إلى القرن السابع عشر، وكان يتكرر كثيراً في الحالات التي لا تحصيها الكنيسة والدولة...

فالإسلام لم يأت ببدعة فيما أباح من تعدد الزوجات، وإنما الجديد الذي أتى به: أنه أصلح ما أفسدته الفوضى من هذه الإباحة، المطلقة من كل قيد، وانه حسب حساب الضرورات التي لا يغفل عنها الشارع الحكيم، فلم يحرم أمراً قد تدعو إليه الضرورة الحازبة. ويجوز أن تكون إباحته خير من تحريمه في بعض ظروف الأسرة، أو بعض الظروف الاجتماعية العامة»[1].

إنّ الذين استنكروا إباحة تعدد الزوجات في التشريع الإسلامي، قد مارسوه فعلاً بطرق الغواية والعلاقات الأثيمة بالخليلات والعشيقات، وتجاهلوا

(١) عن كتاب حقائق الإسلام، للأستاذ العقاد، بتصرف.

واقعهم السيء وتحللهم من القيم الأخلاقية، كأنما يحلو لهم أن يتنكبوا النهج السوي المشروع، ويتعسفوا الطرق الموبوءة بالفساد.

ولو أنهم فكروا وأمعنوا النظر بتجرد وإنصاف في حكمة ذلك التشريع الإسلامي، لأيقنوا أنه العلاج الوحيد لحل المشاكل والأزمات التي قد تنتاب الفرد وتنتاب المجتمع ويصلحها إصلاحاً فريداً لا بديل له ولا محيص عنه.

أ - المبررات:

ونستطيع أن نستجلي أهداف الشريعة الإسلامية في تعدد الزوجات على ضوء المبررات التالية:

١ - قد تمرض الزوجة جسمياً أو عقلياً، وتعجز آنذاك عن آداء رسالتها الزوجية، ولا تستطيع تلبية رغبات الزوج، ورعاية الأسرة والأبناء، مما يفضي بهم إلى القلق والتسيب.

ولا ريب أنها أزمة خانقة تستدعي العلاج الحاسم الحكيم، وهو لا يخلو من فروض ثلاثة:

أ - إما أن يُترك الزوج هملاً يعاني مرارة الحرمان من حقوقه الزوجية، ويغدو عرضة للتردي في مهاوي الرذيلة والإثم، وتترك الأسرة كذلك نهباً للفوضى والتبعثر. وهذا إجحاف بالزوج والأسرة، وإهدار لحقوقهما معاً.

ب - واما أن يتخلص الزوج من زوجته المريضة بالطلاق، والتخلي عنها، ويدعها تقاسي شدائد المرض ووحشة النبذ والانفراد، وهذا ما يأباه الوجدان لمنافاته مبادىء الإنسانية وسجايا النبل والوفاء.

ج - وإما أن يتسرى الزوج على زوجه المريضة، متخذاً زوجة أخرى تلبي رغباته، وتلمّ شعث الأسرة، وتحيط الأولى بحسن الرعاية واللطف، وهذا هو أفضل الحلول وأقربها إلى الرشد والصواب.

٢ - وقد تكون الزوجة عقيمة محرومة من نعمة النسل والإنجاب، فماذا يصنع الزوج والحالة هذه، أيظل محروماً من الأبناء يتحرق شوقاً إليهم، وتلهفاً

عليهم مستجيباً لغريزة الأبوة ووخزها الملح في النفس. فإن هو صبر على ذلك الحرمان آثراً هوى زوجته على هواه، فذلك نبل وتضحية وإيثار. أو يتسرى عليها بأخرى تنجب له أبناءً يملؤون فراغه النفسي، ويكونون له قرة عين وسلوة فؤاد. وهذا هو منطق الفطرة والغريزة الذي لا يحيد عنه إلا نفر قليل من الناس.

٣ ـ والنساء ـ في الغالب ـ أوفر عدداً وأكثر نفوساً من الرجال، وذلك لأمرين:

أ ـ ان الرجال أكثر تعرضاً لأخطار العمل وأحداث الوفاة من النساء، لممارستهم الأعمال الشاقة الخطيرة، المؤدية إلى ذلك، كالمعامل والمناجم والمطافي ونحوها، مما يسبب تلفهم وقلتهم عن النساء.

أضف إلى ذلك، أن الرجال أضعف مناعة من النساء وأكثر إصابة بعدوى الأوبئة والأمراض، مما يجعلهم أقل عدداً منهن «ويعزو علماء الحياة ذلك إلى ما تتميز به المرأة على الرجل بدنياً. وإلى أن الأمراض كلها تقريباً تهلك من الرجال أكثر مما تهلك من النساء، ولذا فإن في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر (٧,٧٠٠,٠٠٠ أرملة)، ويتنبأ مكتب التعداد الأمريكي بأن هذه الفئة سيرتفع عددها في أمريكا بمعدل مليونين كل ١٠ سنين.

وان الدكتورة (ماريون لانجر) العالمة الاجتماعية المتخصصة في استشارات الزواج تقول: أنّ لدى المجتمع حلّين ممكنين فقط لتغطية النقص المتزايد في الرجال أما تعدد الزوجات، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال...»[1].

ب ـ الحروب:

فإنها تفني أعداداً ضخمة من الرجال وتسبب هبوط نسبتهم عن النساء هبوطاً مريعاً. فقد كان المصابون في الحرب العالمية الأولى (واحداً وعشرين

(١) الإسلام والعلم الحديث، عن مجلة المختار (عدد فبراير ١٩٥٨).

مليون نسمة) بين قتيل وجريح. وكانت ضحايا الحرب العالمية الثانية (خمسين مليون نسمة).

وقد أحدث ذلك فراغاً كبيراً في صفوف الرجال وأثار أزمة عالمية تستدعي العلاج الحاسم الناجع.

أما الأمم الغربية، فقد وقفت إزاء هذه الأزمة موقف العاجز الحائر في علاجها وملافاتها... لمنعها تعدد الزوجات، فرحت تعالجه عن طريق الفساد الخلقي، مما دنسها وأشاع فيها البغاء وكثرة اللقطاء، وعمتها الفوضى الأخلاقية.

وأما الإسلام، فقد عالج ذلك علاجاً فذاً فريداً يلائم الفطرَ البشرية، ومقتضيات الظروف والحالات. حيث أباح التعدد وقاية للفرد والمجتمع من تلك المآسي التي عانتها الأمم المحرِّمة له، ﴿فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع، فإن خفتم أن لا تعدلوا فواحدة﴾ (النساء: ٣).

وحين شرع الإسلام التعدد لم يطلقه ارسالاً وجزافاً، فقد اشترط فيه العدل والمساواة بين الأزواج صيانة لحقوق المرأة وكرامتها.

بيد أن ذلك العدل مشروط في مستلزمات الحياة الماديّة، كالمطعم والملبس والمسكن، ونحوها من المآرب الحسيّة المتاحة للإنسان، والداخلة في نطاق وسعه وقدرته.

أما النواحي الوجدانية والعاطفية، كالحب والميل النفسي، فإنها خارجة عن طوق الإنسان، ولا يستطيع العدل فيها والمساواة، لوهنه إزاء سلطانها الآسر، ﴿ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم﴾ (النساء: ١٢٩).

وقد يعترض البعض أنّ المرأة الغربية قادرة على ممارسة الأعمال وكسب المعاش، فهي غنية عن الزواج.

وهو زعم باطل يكذبه واقع الفطرة الإنسانية وغرائزها الراسخة في النفس. فحاجة المرأة إلى الرجل ليست مقصورة على المآرب المادية فحسب، وإنما هي حاجة نفسية ملحة تستكمل به كيانها وتشعر بوجودها كحاجة الرجل إليها على سواء.

٤ ـ ومن مبررات التعدد أنه قد يتصف بعض الرجال بطاقة جنسية عارمة، تتطلب المزيد من التنفيس والإفضاء وتستدعي الأزواج، فإن تيسر له ذلك، وإلاّ نفسَّ عن طاقته بالدعارة والفساد، كما حدث ذلك في الأمم التي حرمت التعدد المشروع، فابتلت بالتعدد الموبوء من الخليلات والعشيقات.

الطلاق في الإسلام

وهكذا انطلقت حناجر لاغية، تتشدق بانتقاد الإسلام على تشريع الطلاق، بأنه يهدد كيان المرأة وسعادتها، فتغدو بنزوة من نزوات الرجل ولوثة من لوثاته الغاضبة، طريدة كسيرة القلب مهدورة الكيان.

وهذا من صور التجني والتشنيع على الإسلام، إذ لم يكن هو المشرع الأول للطلاق، ولا المقنن الوحيد له، وإنّما كان شائعاً في أغلب الأمم ومن أقدم العصور. وكان آنذاك بأسلوب فوضوي يهدر حقوق الزوجة وكرامتها، ويجعلها طريدة شريدة هائمة حيث تشاء.

فقد شاع عند اليونانيين دون قيد أو شرط، وأباحهُ الرومانيون دينياً ومدنياً بعد أن حرمته الأجيال الأولى منهم.

وحينما جاءت الشريعة الموسوية قلّصت من نطاق الطلاق وأباحته في حالات ثلاث: الزنا والعقم والعيب الخَلقي والخُلقي.

وأما الشريعة المسيحية فقد حرمته إلاّ في حالتين: اقتراف أحد الزوجين أو كلاهما جريمة الفسق، أو في حالة العقم.

وهذا ما دفع الأمم الغربية الحديثة، بضغط الحاجة الملحة إلى تقنين الطلاق المدني وجعله قانوناً ثابتاً، وإن خالف دينها وشريعتها.

ولما أطل الإسلام بعهده الزاهر وتشريعه الكافل، أقرّ الطلاق وأحاطه بشروط من التدابير الوقائية والعلاجية، لتقليصه وملافاة أزماته ومشاكله.

فهو أبغض الحلال إلى الله عز وجل، ولكن الضرورة تبيح المحذور، فهناك حالات يتسع الخلاف فيها بين الزوجين ويشتد الخصام وتغدو الحياة

الزوجية آتوناً مستعراً بالشحناء والبغضاء، مما يتعذر فيها التفاهم والوفاق.

وهنا يعالج الإسلام هذه الحالة المتوترة والجو المكفهر المحموم بحكمة وتدرج بالغين، فهو «لا يسرع إلى رباط الزوجية المقدس فيفصمه لأول وهلة، ولأول بادرة من خلاف، انه يشد على هذا الرباط بقوة، ويستمسك به في استماتة، فلا يدعه يفلت إلا بعد المحاولة واليأس.

انه يهتف بالرجال ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن، فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً﴾ (النساء: ١٩)، فيميل بهم إلى التريث والمصابرة حتى في حالة الكراهية.

فإن تجاوز الأمر مسألة الكره والحب، إلى النشوز والنفور، فليس الطلاق أول خاطر يهدي إليه الإسلام، بل لا بد من محاولة يقوم بها الأخرون وتوفيق يحاوله الخيّرون ﴿وإن خفتم شقاق بينهما، فابعثوا حكماً من أهله، وحكماً من أهلها، أن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما. إن الله كان عليماً خبيراً﴾ (النساء: ٣٥) ﴿وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً، فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما، والصلح خير﴾ (النساء: ١٢٨). فإن لم تجد هذه الوساطة فالأمر إذن جدّ، وهناك ما لا تستقيم معه هذه الحياة، وإمساك الزوجين على هذا الوضع محاولة فاشلة، ويزيدها الضغط فشلاً. ومن الحكمة التسليم بالواقع وإنهاء هذه الحياة ـ على كره من الإسلام ـ فإن أبغض الحلال إلى الله الطلاق.

ولعل هذه التفرقة تثير في نفس الزوجين رغبة جديدة لمعاودة الحياة فكثيراً ما نرى حسنات الشيء عندما نحرمه، والفرصة لم تضع، ﴿الطلاق مرتان، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان﴾ (البقرة: ٢٢٩) وهناك فترة العدة في حال الدخول بالزوجة، وعليه أن ينفق عليها في هذه الفترة ولا يقتر. وفي خلالها يجوز له ـ إن كان قد ندم ـ أن يراجع زوجه، وأن يستأنفا حياتها بلا أي إجراء جديد.

فإن تركت مدة العدة تمضي دون مراجعة، ففي استطاعتها أن يستأنفا هذه الحياة متى رغبا. ولكن بعقد جديد.

وتلك هي التجربة الأولى وهي تكشف لكلا الزوجين عن حقيقة عواطفهما، وعن جدية الأسباب التي انفصلا بسببها، فإذا تكررت هذه الأسباب، أو جدّ سواها، واندفع الزوج إلى الطلاق مرة أخرى، فعندئذٍ لا تبقى سوى فرصة واحدة، هي الثالثة.

فإذا كانت الثالثة، فالعلة إذن عميقة والمحاولة غير مجدية، ومن الخير له ولها أن يجرب كل منهما طريقه، ومن الخير كذلك أن يتلقى الزوج - إن كان عابثاً - نتيجة عبثه أو تسرعه ﴿فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجاً غيره﴾ (البقرة: ٢٣٠)[١].

فـماذا ينقم الثرثارون على الإسلام بتشريع الطلاق؟ أيريدون إلغاءه وتحريمه، لتشيع المآسي في المجتمع الإسلامي، التي عاشتها الأمم الكاثوليكية، التي حرمت الطلاق وحرمت تعدد الزوجات، مما اضطرهم إلى اتخاذ العشيقات والأخدان، وتعسف مسالك الغواية والآثام الخلقية؟

حقوق الأقرباء

فضل الأقرباء:

الأقرباء: هم الأسرة التي ينتمي إليها الإنسان، والدوحة التي تفرع منها وهم ألصق الناس نسباً به، وأشدهم عطفاً عليه، وأسرعهم إلى نجدته ومواساته.

وقد وصفهم أمير المؤمنين (ع) فقال: «يا أيها الناس أنه لا يستغني الرجل وإن كان ذا مال عن عشيرته؟ ودفاعهم عنه بأيديهم وألسنتهم، وهم أعظم الناس حيطة من ورائه، وألمّهم لشعثه، وأعطفهم عليه عند نازلة إذا نزلت به»[٢].

---

(١) نقل بتصرف واختصار عن كتاب السلام العالمي، لسيد قطب ص ٦٤ - ٦٧.
(٢) نهج البلاغة.

وأفضل الأقرباء وأجدرهم بالإعجاب والثناء هم: المتحابون المتعاطفون المتآزرون على تحقيق أهدافهم ومصالحهم.

وكلما استشعر الأرحام وتبادلوا مشاعر التضامن والتعاطف كانوا أعز قدراً، وأمنع جانباً، وأشد قوة على مجابهة الأعداء ومعاناة الشدائد والأزمات.

من أجل ذلك أولت الشريعة الإسلامية شؤون الأسرة عناية بالغة، ورعتها بالتنظيم والتوجيه لمكانتها الاجتماعية وأثرها في إصلاح المجتمع الإسلامي وازدهار حياته.

صلة الرحم

وفي طليعة المبادىء الخلقية التي فرضتها الشريعة وأكدت عليها صلة الأرحام، وهم (المتحدون في النسب) وإن تباعدت أواصر القربى بينهم وذلك بالتودد إليهم والعطف عليهم وإسداء العون المادي لهم ودفع المكاره والشرور عنهم ومواساتهم في الأفراح والأحزان.

وإليك طرفاً من نصوص أهل البيت (ع) في صلة الأرحام ورعايتهم:

عن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«أوصي الشاهد من أمتي والغائب منهم ومن في أصلاب الرجال وأرحام النساء إلى يوم القيامة أن يصل الرحم وإن كان منه على مسيرة سنة فإنّ ذلك من الدين»[1].

وعن علي بن الحسين (ع) قال: قال رسول الله (ص): -

«من سره أن يمد الله في عمره، وأن يبسط في رزقه، فليصل رحمه، فإنّ الرحم لها لسان يوم القيامة ذلق تقول: يا رب صل من وصلني واقطع من قطعني»[2].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٣ عن الكافي.
(٢) البحار، كتاب العشرة ص ٢٧ عن عيون أخبار الرضا وصحيفة الرضا (ع).

وعن الرضا عن آبائه عليهم السلام قال: قال رسول الله (ص): -

«من ضمن لي واحدة ضمنت له أربعة: يصل رحمه، فيحبه الله تعالى، ويوسع عليه رزقه، ويزيد في عمره، ويدخله الجنة التي وعده»[١].

وقال أبو عبدالله (ع): «ما نعلم شيئاً يزيد في العمر إلاّ صلة الرحم، حتى أنّ الرجل يكون أجله ثلاث سنين، فيكون وصولاً للرحم، فيزيد الله في عمره ثلاثين سنة فيجعلها ثلاثاً وثلاثين سنة فيكون قاطعاً للرحم فينقصه الله تعالى ثلاثين سنة، ويجعل أجله إلى ثلاث سنين»[٢].

وقال (ع):

«صل رحمك ولو بشربة من ماء، وأفضل ما يوصل به الرحم كف الأذى عنها. وصلة الرحم منسأة في الأجل محبة في الأهل»[٣].

وقال (ع): -

«إن صلة الرحم والبر ليهونان الحساب، ويعصمان من الذنوب، فصلوا أرحامكم، وبرّوا بأخوانكم ولو بحسن السلام وردّ الجواب»[٤].

وقال أبو جعفر (ع): -

«صلة الأرحام تزّكي الأعمال، وتنمي الأموال، وتدفع البلوى، وتيسر الحساب، وتنسيء في الأجل»[٥].

وعن أبي عبدالله (ع): «أن رجلاً أتى النبي (ص) فقال: يا رسول الله أهل بيتي أبوا إلا توثباً عليّ وقطيعة لي وشتيمة فأرفضهم؟

قال (ص): إذاً يرفضكم الله جميعاً.

قال: فكيف أصنع؟

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.
(٤) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.
(٥) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.

قال (ص): تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، فإنك إذا فعلت ذلك كان لك من الله عليهم ظهيراً»[١].

وقد أحسن بعض الشعراء المتقدمين حيث قال:

وإن الذي بيني وبين بني أبي وبين بني عمي لمختلف جدا
فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجدا
وإن ضيعوا غيبي حفظت غيوبهم وإن هم هووا عني هويت لهم رشدا
لهم جل مالي إن تتابع لي غنىً وإن قلّ مالي لم أكلفهم رفدا

خصائص صلة الرحم

ولا غرابة أن نلمس في هذه النصوص قوة التركيز والتأكيد على صلة الرحم، وذلك لما تنطوي عليه من جليل الخصائص والمنافع.

فالأسرة الرحمية تضم عناصر وأفراداً متفاوتين حالاً وأقداراً، فيهم الغني والفقير، والقوي والضعيف، والوجيه والخامل، وهي بأسرها فرداً وجماعة لا تستطيع أن تنال أماني العزة والمنعة والرخاء، وتجابه مشاكل الحياة ومناوأة الأعداء بجلد وثبات إلا بالتضامن والتعاطف اللذين يشدان أزرها ويجعلانها جبهة متراصة لا تزعزعها أعاصير المشاكل والأحداث، ولا يستطيع مكابدتها الأعداء والحساد.

وقد جسد أكثم بن صيفي هذا الواقع في حكمته الشهيرة حيث:

«دعى أبناءه عند موته، فاستدعى أضمامة من السهام، فتقدم إلى كل واحد منهم أن يكسرها فلم يقدر أحد على كسرها.

ثم بددها فتقدم إليهم أن يكسروها فاستسهلوا كسرها، فقال:

كونوا مجتمعين ليعجز من ناوأكم عن كسركم كعجزكم عن كسرها مجتمعة، فإنكم إن تفرقتم سهل كسركم وأنشد:

كونوا جميعاً يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٤ عن الكافي.

تــأبى القــداح إذا اجتمعن تكســراً وإذا افــترقــن تــكسرت أفــرادا

هــذا إلى ما في صلة الـرحم من جليل الخصـائص والآثـار التي أوضحتهـا النصوص السـالفة.

فهي:

مدعاة لحب الأقرباء وعطفهم وإيثارهم وموجبة لطيلة العمر، ووفرة المال، وزكـاة الأعمال الصـالحة ونحـوها في الـرصيـد الأخـروي، ومنجـاة من صروف الأقدار والبلايا.

قطيعة الرحم

وهي:

فعل ما يسخط الرحم ويؤذيه قولاً أو فعلاً، كسبِّه واغتيابـه وهجره وقـطع الصلات المادية وحرمانه من مشاعر العطف والحنان.

وتعتبر الشريعة الإسلامية قطيعة الرحم جرماً كبيراً وإثماً ماحقاً توعد عليها الكتاب والسنة.

قـال تعـالى: ﴿فهـل عسيتم أن تـوليتم أن تفسـدوا في الأرض وتقـطعـوا أرحامكم﴾ (محمد: ٢٢).

وقال سبحانه: ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقـه، ويقطعـون ما أمــر الله بــه أن يــوصــل، ويفســدون في الأرض أولئــك هم الخــاسرون﴾ (البقرة: ٢٧).

وقال رسول الله (ص): «أربعـة أسرع شيء عقوبـة: رجل أحسنت إليـه فكافأك بالإحسان إساءة، ورجل لا تبغي عليه وهو يبغي عليك، ورجل عاهدته على أمر فوفيت له وغدر بك، ورجل وصل قرابته فقطعوه»[1].

وعن أبي جعفر (ع) قال: في كتـاب عـلي (ع) «ثـلاث خصـال لا يمـوت

---

(١) الوافي ج ١٤ ص ٤٧ من وصية النبي (ص) لعلي (ع).

صاحبهن أبداً حتى يرى وبالهن: البغي، وقطيعة الرحم، واليمين الكاذبة يبارز الله بها.

وإن أعجل الطاعات ثواباً لصلة الرحم، وإن القوم ليكونون فجاراً فيتواصلون فتنموا أموالهم ويثرون، وإن اليمين الكاذبة وقطيعة الرحم لتذران الديار بلاقع من أهلها، وتثقل الرحم، وإن ثقل الرحم انقطاع النسل»[١].

وعن بعض أصحابنا عن أبي عبدالله (ع) قال: قلت له:

«إن أخوتي وبني عمي قد ضيقوا عليّ الدار وألجأوني منها إلى بيت ولو تكلمت أخذت ما في أيديهم.

قال: فقال لي: اصبر فإن الله سيجعل لك فرجاً.

قال: فانصرفت، ووقع الوباء سنة (١٣١هـ) فماتوا والله كلهم فما بقي منهم أحد.

قال: فخرجت فلما دخلت عليه قال:

ما حال أهل بيتك؟

قال: قلت: قد ماتوا والله كلهم فما بقي منهم أحد.

فقال: هو بما صنعوا بك وبعقوقهم إياك وقطع رحمهم بتروا، أتحب أنهم بقوا وأنهم ضيقوا عليك، قال: قلت أي والله»[٢].

وفي خبر شعيب العقرقوفي في دخول يعقوب المغزلي على موسى بن جعفر (ع) وقوله (ع) له: يا يعقوب قدمت أمس ووقع بينك وبين أخيك شر في موضع كذا وكذا حتى شتم بعضكم بعضاً، وليس هذا ديني ولا دين آبائي ولا نأمر بهذا أحداً من الناس، فاتق الله وحده لا شريك له، فإنكما ستفترقان بموت، أما إن أخاك سيموت في سفره قبل أن يصل إلى أهله، وستندم أنت على ما كان منك، وذلك أنكما تقاطعتما فبتر الله أعماركما.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١٥٦ عن الكافي.

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٥١٦ عن الكافي.

فقال له الرجل: فأنا جعلت فداك متى أجلي؟

فقال (ع): أما إن أجلك قد حضر، حتى وصلت عمتك بما وصلتها به في منزل كذا وكذا فزيد في أجلك عشرون.

قال شعيب: فأخبرني الرجل ولقيته حاجاً أن أخاه لم يصل إلى أهله حتى دفنه في الطريق»[1].

مساويء قطيعة الرحم

ونستنتج من هذه النصوص أن لقطيعة الرحم مغبة سيئة وآثاراً خطيرة تنذر القاطع وتعاجله بالفناء، وقصف الأعمار، ومحق الديار، والخسران المبين في دينه ودنياه.

حقوق الأصدقاء

فضل الأصدقاء

الإنسان مدني بالطبع، لا يستطيع اعتزال الناس والانفراد عنهم، لأن اعتزالهم باعث على استشعار الغربة والوحشة والإحساس بالوهن والخذلان إزاء طوارىء الأحداث وملمات الزمان.

من أجل ذلك كان الإنسان توّاقاً إلى اتخاذ الخلان والأصدقاء، ليكونوا له سنداً وسلواناً، يسرون عنه الهموم ويخففون عنه المتاعب، ويشاطرونه السراء والضراء.

وقد تضافرت دلائل العقل والنقل على فضل الأصدقاء والترغيب فيهم، وإليك طرفاً منها:

قال أمير المؤمنين (ع) في حديث له: «عليك بأخوان الصدق، فأكثر من اكتسابهم، فإنهم عدة عند الرخاء، وجنة عند البلاء»[2].

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٥١٦ عن الكافي.

(٢) البحار كتاب العشرة ص ٥١ عن أمالي الشيخ الصدوق.

وقال الصادق (ع): «لقد عظمت منزلة الصديق حتى أن أهل النار يستغيثون به ويدعونه قبل القريب الحميم».

قال الله سبحانه مخبراً عنهم: ﴿فما لنا من شافعين ولا صديق حميم﴾[1] (الشعراء: ١٠٠ - ١٠١).

وقال بعض الحكماء:

إن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا، زينة في الرخاء، وعدة في الشدة، ومعونة على خير المعاش والمعاد.

وقيل لحكيم: أيما أحب إليك، أخوك أم صديقك؟

فقال: إنما أحب أخي إذا كان صديقاً لي.

واقع الصداقة والأصدقاء

قد يحسب الناس أن الصديق هو من يحسن مجاملتهم ويظهر البشاشة والتودد إليهم، ويعتبرونه خلاً وفياً وصديقاً حميماً، فإذا اختبروه في واقعة أسفر عن صديق مزيف، وخل مخادع عاطل من خلال الصداقة الحقة وواقعها الأصيل.

ومن هنا كثرت شكايات الأدباء قديماً وحديثاً من تنكر الأصدقاء وجفائهم وخذلانهم رغم ما يكنونه لهم من حب وإخلاص.

وأغلب الظن أن سبب تلك المأساة أمران:

الأول: الجهل بواقع الصداقة والأصدقاء وعدم التمييز بين خصائص وخلال الواقعيين من المزيفين منهم.

الثاني: اتصاف أغلب الأصدقاء بنقاط الضعف الشائعة في الأوساط الاجتماعية من التلون والخداع وعدم الوفاء التي سرعان ما يكشفها محك الاختبار. وقد أوضح أمير المؤمنين (ع) واقع الأصدقاء وابعاد صداقتهم فيما رواه أبو جعفر الباقر (ع) فقال:

---

(١) البحار كتاب العشرة ص ٥١ عن أمالي ابن الشيخ الطوسي.

«قام رجل بالبصرة إلى أمير المؤمنين (ع) فقال:
يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الأخوان.
فقال (ع): الأخوان صنفان: أخوان الثقة، وأخوان المكاشرة.
فأما أخوان الثقة: فهم الكف والجناح، والأهل والمال، فإذا كنت من أخيك على حد الثقة، فابذل له مالك، وبدنك، وصاف من صافاه وعاد من عاداه، واكتم سره وعيبه، واظهر منه الحسن، واعلم أيها السائل أنهم أقل من الكبريت الأحمر.
وأما أخوان المكاشرة: فإنك تصيب لذتك منهم، فلا تقطعن ذلك منهم، ولا تطلبن ما وراء ذلك من ضميرهم، وابذل لهم ما بذلوا لك من طلاقة الوجه، وحلاوة اللسان»[1].
وقال الصادق (ع): «لا تكون الصداقة إلا بحدودها، فمن كانت فيه هذه الحدود أو شيء منها فانسبه إلى الصداقة، ومن لم يكن فيه شيء منها، فلا تنسبه إلى شيء من الصداقة:
فأولها: أن تكون سريرته وعلانيته لك واحدة.
والثانية: أن يرى زينك زينه وشينك شينه.
والثالثة: أن لا تغيره عليك ولاية ولا مال.
والرابعة: أن لا يمنعك شيئاً تناله مقدرته.
والخامسة: وهي تجمع هذه الخصال أن لا يسلمك عند النكبات»[2].
وقال بعض الحكماء: المودات ثلاث:
مودة في الله عز وجل لغير رغبة ولا رهبة، فهي التي لا يشوبها غدر ولا خيانة.
ومودة مقارنة ومعاشرة، ومودة رغبة أو رهبة.
وهي: شر المودات، وأسرعها انتقاضاً.

(١) الوافي ج ٣ ص ١٠٤ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٠٤ عن الكافي.

وقال مهيار الديلمي:

ما أنا من صبغة أيامكم ولا الذي ان قلبوه انقلبا
ولا ابن وجهين ألمّ حاضراً من الصديق وألوم الغيبا
قلبي للأخوان شطوا أو دنوا وللهوى ساعف دهر أو نبا
من عاذري من متلاش كلما أذنب يوماً وعذرت أذنبا
يضحك في وجهي ملء فمه وإن أغب وذكر اسمي قطبا
يطير لي حمامة فإن رأى خصاصة دب ورائي عقربا
ما أكثر الناس وما أقلهم وما أقل في القليل النجبا

اختيار الصديق

للصديق أثر بالغ في حياة صديقه وتكييفه فكرياً وأخلاقياً، لما طبع عليه الإنسان من سرعة التأثر والانفعال بالقرناء والأخلاء، ما يحفزه على محاكاتهم والاقتباس من طباعهم ونزعاتهم.

من أجل ذلك كان التجاوب قوياً بين الأصدقاء، وكانت صفاتهم سريعة العدوى والانتقال، تنشر مفاهيم الخير. والصلاح تارة، ومفاهيم الشر والفساد أخرى، تبعاً لخصائصهم وطبائعهم الكريمة أو الذميمة، وإن كانت عدوى الرذائل أسرع انتقالاً وأكثر شيوعاً من عدوى الفضائل.

فالصديق الصالح: رائد خير، وداعية هدى، يهدي إلى الرشد والصلاح.

والصديق الفاسد: رائد شر، وداعية ضلال، يقود إلى الغي والفساد. وكم انحرف أشخاص كانوا مثاليين هدياً وسلوكاً، وضلوا في متاهات الغواية والفساد، لتأثرهم بالقرناء والأخلاء المنحرفين.

وهذا ما يحتم على كل عاقل أن يتحفظ في اختيار الأصدقاء، ويصطفي منهم من تحلى بالخلق المرضي والسمعة الطيبة والسلوك الحميد.

خلال الصديق المثالي

وأهم تلك الخلال وألزمها فيه هي:

١ ـ أن يكون عاقلاً لبيباً مبرءاً من الحمق. فإن الأحمق ذميم العشرة مقيت الصحبة، مجحف بالصديق، وربما أراد نفعه فاضره وأساء إليه لسوء تصرفه وفرط حماقته، كما وصفه أمير المؤمنين (ع) في حديث له فقال:

«وأما الأحمق فإنه لا يشير عليك بخير ولا يرجى لصرف السوء عنك ولو أجهد نفسه، وربما أراد منفعتك فضرك، فموته خير من حياته وسكوته خير من نطقه، وبعده خير من قربه»[1].

٢ ـ أن يكون الصديق متحلياً بالإيمان والصلاح وحسن الخلق، فإن لم يتحل بذلك كان تافهاً منحرفاً يوشك أن يغوي أخلاءه بضلاله وانحرافه.

انظر كيف يصور القرآن ندم النادمين على مخادنة الغاوين والمضللين وأسفهم ولوعتهم على ذلك:

﴿ويوم يَعضّ الظالم على يديه يقول: يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا، يا ويلتا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً، لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ (الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩).

وعن الصادق (ع) عن آبائه قال: قال رسول الله (ص):

«المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

وعن أبي جعفر (ع) عن أبيه عن جده (ع) قال:

قال أمير المؤمنين (ع): «مجالسة الأشرار تورث سوء الظن بالأخيار، ومجالسة الأخيار تلحق الأشرار بالأخيار، ومجالسة الأبرار للفجار تلحق الأبرار بالفجار، فمن اشتبه عليكم أمره، ولم تعرفوا دينه، فانظروا إلى خلطائه، فإن كانوا أهل دين الله، فهو على دين الله، وإن كانوا على غير دين الله فلا حظ له من دين الله، ان رسول الله (ص) كان يقول:

«من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يواخين كافراً، ولا يخالطن فاجراً،

(١) البحار. كتاب العشرة. ص ٥٦ عن الكافي.
(٢) البحار. كتاب العشرة ص ٥٢ عن أمالي أبي علي بن الشيخ الطوسي.

ومن آخى كافراً، أو خالط فاجراً كان كافراً فاجراً»[١].

وهكذا يحذر أهل البيت عليهم السلام من مخادنة أنماط من الرجال اتسموا بأخلاق ذميمة وسجايا هابطة باعثة على النفرة وسوء الخلة.

وعن أبي عبدالله عن أبيه عليهما السلام قال: قال لي أبي علي بن الحسين (ع):

«يا بني انظر خمسة فلا تصاحبهم، ولا تحادثهم، ولا ترافقهم، فقلت: يا ابه من هم عرفنيهم. قال:

إياك ومصاحبة الكذّاب فإنه بمنزلة السراب يقرب لك البعيد ويبعد لك القريب.

وإياك ومصاحبة الفاسق فإنه بايعك بأكلة أو أقل من ذلك.

وإياك ومصاحبة البخيل فإنه يخذلك في ماله أحوج ما تكون إليه.

وإياك ومصاحبة الأحمق فإنه يريد أن ينفعك فيضرك.

وإياك ومصاحبة القاطع لرحمه فإني وجدته ملعوناً في كتاب الله عز وجل في ثلاث مواضع... الخبر»[٢].

وقال أبو العتاهية:

أصحب ذو العقل وأهل الدين فالمرء منسوب إلى القرين

وقال أبو نؤاس:

ولقد نهزت مع الغواة بدلوهم واسمت سرح اللهو حيث أساموا

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فإذا عصارة كل ذاك أثام

٣ ـ أن يكون بين الصديقين تجاوب عاطفي ورغبة متبادلة في الحب والمؤاخاة، فذلك أثبت للمودة وأوثق لعرى الإخاء، فإن تلاشت في أحدهما نوازع الحب والخلة وهت علاقة الصداقة وغدا المجفو منها الحريص على توثيقها

---

(١) البحار. كتاب العشرة. ص ٥٣ عن كتاب صفات الشيعة للصدوق.

(٢) الوافي ج ٣ ص ١٠٥ عن الكافي.

عرضة للنقد والازدراء.

قال أمير المؤمنين (ع): «زهدك في راغب فيك نقصان عقل (حظ) ورغبتك في زاهد فيك ذل نفس»[١].

وقال الشهيد الأول رحمه الله:

غنينا بنا عن كل من لا يريدنا وإن كثرت أوصافه ونعوته
ومن صدّ عنا حسبه الصدّ والقلا ومن فاتنا يكفيه أنّا نفوته

وقال الطغرائي:

جامل أخاك إذا استربت بودّه وانظر به عقب الزمان العائد
فإن استمر به الفساد فخلّه فالعضو يقطع للفساد الزائد

مقاييس الحب

وقد تلتبس مظاهر الحب في الاخلاء خاصة والناس عامة، وتخفى سماته وعلائمه، ويغدو المرء آنذاك في شك وارتياب من ودّهم أو قلاهم، وقد وضع أهل البيت عليهم السلام مقاييس نفسية تستكشف دخائل الحب والبغض في النفوس وتجلوا أسرارها الخفية.

قال الراوي: سمعت رجلاً يسأل أبا عبدالله (ع) فقال: الرجل يقول أودك، فكيف أعلم أنه يودني؟

فقال (ع): امتحن قلبك، فإن كنت توده فإنه يودك»[٢].

وقال (ع) في موطن آخر:

«انظر قلبك، فإن أنكر صاحبك، فاعلم أنه أحدث»[٣] يعني قد أحدث ما يوجب النفرة وضعف المودة.

وعن أبي جعفر (ع) قال:

---

(١) نهج البلاغة.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٠٦ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٠٦ عن الكافي.

«لما احتضر أمير المؤمنين (ع) جمع بنيه، حسناً وحسيناً وابن الحنفية والأصاغر فوصّاهم، وكان في آخر وصيته: ـ يا بنيّ عاشروا الناس عشرة، إن غبتم حنّوا إليكم، وإن فقدتم بكوا عليكم، يا بنيّ إن القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة، وتتناجى بها، وكذلك هي في البغض، فإذا أحببتم الرجل من غير خير سبق منه إليكم فارجوه، وإذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه إليكم فاحذروه»[1].

الصداقة بين المدّ والجزر

اختلف العقلاء في أيّهما أرجح وأفضل، الإكثار من الأصدقاء أو الإقلال منهم.

ففضل بعضهم الإكثار منهم والتوفر عليهم، لما يؤمل فيهم من جمال المؤانسة وحسن المؤازرة والتأييد.

ورجح آخرون الإقلال منهم، لما ينجم عن استكثارهم من ضروب المشاكل المؤدية إلى التباغض والعداء، كما قال ابن الرومي:

عدوك من صديقك مستفاد ... فلا تستكثرن من الصحاب
فإنّ الداء أكثر ما تراه ... يكون من الطعام أو الشراب

والحق أنّ قيم الأصدقاء ليست منوطة بالقلة أو الكثرة، وإنما هي فيما يتحلون به من صفات النبل والإخلاص والوفاء، التي لا تجتمع إلاّ في المثاليين منهم، وهم فئة قليلة نادرة تتألق في دنيا الأصدقاء تألق اللآليء بين الحصا.

وصديق مخلص وفيّ خير من ألف صديق عديم الإخلاص والوفاء، كما قال الإسكندر: المستكثر من الأخوان من غير اختيار كالمستوفر من الحجارة، والمقلّ من الأخوان المتخير لهم كالذي يتخير الجوهر.

حقوق الأصدقاء

وبعد أن أوضح أهل البيت عليهم السلام فضل الأصدقاء الأوفياء،

(١) البحار كتاب العشرة ص ٤٦ عن أمالي الشيخ أبي علي ابن الشيخ الطوسي.

رسموا لهم سياسة وآداباً وقرروا حقوق بعضهم على بعض، ليوثقوا أواصر الصداقة بين المؤمنين، ومن ثم لتكون باعثاً على تعاطفهم وتساندهم. وإليك طرفاً من تلك الحقوق:

١ ـ الرعاية المادية:

قد يقع الصديق في أزمة اقتصادية خانقة، ويعاني مرارة الفاقة والحرمان ويغدو بأمّس الحاجة إلى النجدة والرعاية المادية، فمن حقه على أصدقائه النبلاء أن ينبروا لإسعافه، والتخفيف من أزمته بما تجود به أريحيتهم وسخاؤهم، وذلك من ألزم حقوق الأصدقاء وأبرز سمات النبل والوفاء فيهم، وقد مدح الله أقواماً تحلوا بالإيثار وحسن المواساة فقال تعالى:

﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة﴾ (الحشر: ٩).

وقال الإمام موسى بن جعفر (ع) لرجل من خاصته:

«يا عاصم كيف أنتم في التواصل والتواسي؟

قلت: على أفضل ما كان عليه أحد.

قال (ع): أيأتي أحدكم إلى دكان أخيه أو منزله عند الضائقة فيستخرج كيسه ويأخذ ما يحتاج إليه فلا ينكر عليه؟ قال: لا.

قال (ع): «فلستم على ما أحب في التواصل»[1].

وعن أبي إسماعيل قال: قلت لأبي جعفر (ع): «جعلت فداك، إن الشيعة عندنا كثير، فقال (ع):

فهل يعطف الغني على الفقير؟ وهل يتجاوز المحسن عن المسيء؟ ويتواسون. فقلت: لا.

فقال عليه السلام:

ليس هؤلاء شيعة، الشيعة من يفعل هذا»[2].

---

(١) البحار كتاب العشرة ص ٤٦ عن كتاب قضاء الحقوق للصوري.

(٢) البحار كتاب العشرة ص ٧١ عن الكافي.

وقال أبو تمام:

أولى البرية حقاً أن تراعيه　عند السرور الذي أساك في الحزن
إنّ الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا　من كان يألفهم في المنزل الخشن

وقال الواقدي:

كان لي صديقان: أحدهما هاشمي، وكنا كنفس واحدة، فنالتني ضيقة شديدة وحضر العيد، فقالت امرأتي: أما نحن في أنفسنا فنصبر على البؤس والشدة، وأما صبياننا هؤلاء فقد قطعوا قلبي رحمة لهم، لأنهم يرون صبيان الجيران وقد تزينوا في عيدهم، وأصلحوا ثيابهم، وهم على هذه الحال من الثياب الرثّة! فلو احتلت بشيء تصرفه في كسوتهم! فكتبت إلى صديقي الهاشمي أسأله التوسعة عليّ، فوجه إليّ كيساً مختوماً، ذكر أن فيه ألف درهم، فما استقر قراري حتى كتب إليّ الصديق الآخر يشكو مثل ما شكوت إلى صاحبي، فوجهت إليه الكيس بحاله، وخرجت إلى المسجد فأقمت فيه ليلي مستحياً من امرأتي.

فلما دخلت عليها استحسنت ما كان مني، ولم تعنفني عليه.

فبينما أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمي ومعه الكيس كهيئته، فقال لي:

أصدقني عما فعلته فيما وجهت إليك؟

فعرفته الخبر على وجهه، فقال: إنك وجهت إلي وما أملك على الأرض إلا ما بعثت به إليك، وكتبت إلى صديقنا أسأله المواساة فوجه إلي بكيسي! فتواسينا الألف أثلاثاً!

ثم نمي الخبر إلى المأمون فدعاني، فشرحت له الخبر، فأمر لنا بسبعة آلاف دينار، لكل واحدٍ ألفا دينار وللمرأة ألف دينار![1]

٢ ـ الرعاية الأدبية:

وهكذا تنتاب الصديق ضروب الشدائد والارزاء ما تسبب إرهاقه وبلبلة حياته، ويغدو آنذاك مفتقراً إلى النجدة والمساندة لإغاثته وتفريج كربه.

(١) قصص العرب ج ١ ص ٢٩٠.

فحقيق على أصدقائه الأوفياء أن يسارعوا إلى نصرته والذب عنه، لساناً وجاهاً، لإنقاذه من أعاصير الشدائد والأزمات، ومواساته في ظرفه الحالك.

هذا هو مقياس الحب الصادق والعلامة الفارقة بين الصديق المخلص من المزيف.

قال أمير المؤمنين (ع):

«لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث: في نكبته، وغيبته، ووفاته»[1].

وقال الشريف الرضي:

يعرّفك الأخوان كل بنفسه وخير أخ من عرّفتك الشدائد

* * *

٣ ـ المداراة:

والأصدقاء مهما حسنت أخلاقهم، وقوت علائق الودّ بينهم فإنهم عرضة للخطأ والتقصير، لعدم عصمتهم عن ذلك. فإذا ما بدرت من أحدهم هناة وهفوة في قول أو فعل، كخلف وعد، أو كلمة جارحة أو تخلف عن مواساة في فرح أو حزن ونحو ذلك من صور التقصير.

فعلى الصديق إذا ما كان واثقاً بحبهم وإخلاصهم أن يتغاضى عن إساءتهم ويصفح عن زللهم حرصاً على صداقتهم واستبقاءاً لودّهم، إذ المبالغة في نقدهم وملاحاتهم، باعثة على نفرتهم والحرمان منهم.

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعدّ معائبه

انظر كيف يوصي أمير المؤمنين (ع) ابنه الحسن (ع) بمداراة الصديق المخلص والتسامح معه والحفاظ عليه:

«احمل نفسك من أخيك عند صرفه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة، وعند جموده على البذل، وعند تباعده على الدنو، وعند شدته

---

(١) نهج البلاغة.

على اللين، وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبد، وكأنه ذو نعمة عليك.

وإياك أن تضع ذلك في غير موضعه أو تفعله بغير أهله، لا تتخذن عدو صديقك صديقا فتعادي صديقك، وامحض أخاك النصيحة حسنة كانت أو قبيحة، وتجرع الغيظ. فإني لم أر جرعة أحلى منها عاقبة ولا ألذ مغبّة، ولِنْ لمن غالظك فإنه يوشك أن يلين لك، وخذ على عدوك بالفضل فإنه أحلى الظفرين، وإن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية ترجع إليها إن بدا له ذلك يوماً ما، ومن ظن بك خيراً فصدق ظنّه. ولا تضيعن حق أخيك اتكالاً على ما بينك وبينه. فإنه ليس لك بأخ من أضعت حقه»[1].

وقال الإمام الحسن (ع) لبعض ولده:

«يا بني لا تواخي أحداً حتى تعرف موارده ومصادره، فإذا استبطنت الخبرة ورضيت العشرة فآخه على إقالة العثرة، والمواساة في العسرة»[2].

وقال أبو فراس الحمداني:

لم أواخذك بالجفاء لأني ... واثق منك بالوداد الصريح
فجميل العدو غير جميل ... وقبيح الصديق غير قبيح

وقال بشار بن برد:

إذا كنت في كل الأمور معاتباً ... صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه
فعش واحداً أو صِل أخاك فإنه ... مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ... ظمئت وأي الناس تصفو مشاربه

وقال ابو العلاء المعري:

من عاش غير مداج من يعاشره ... أساء عشرة أصحاب وأخدان
كم صاحب يتمنى لو نعيت له ... وإن تشكيت راعاني وفدّاني

ومن أروع صور مداراة الأصدقاء وأجملها وقعاً في النفوس: الإغضاء عن

(١) نهج البلاغة. في وصيته لابنه الحسن (ع).
(٢) تحف العقول.

إساءتهم والصفح عن مسيئهم.

ولذلك مظاهر وأساليب رائعة:

١ ـ أن يتناسى الصديق الإساءة ويتجاهلها ثقة بصديقه، وحسن ظن بـه، واعتزازاً بإخائه، وهذا ما يبعث المسيء على إكبار صديقه وودّه والحرص على صداقته.

٢ ـ أن يتقبل معذرة صديقه عند اعتذاره منه، دونما تشدد أو تعنت في قبولها. فذلك من سمات كرم الأخلاق وطهارة الضمير والوجدان.

٣ ـ أن يستميل صديقه بالعتاب العاطفي الرقيق، استجلاباً لودّه، فترك العتاب قد يشعر بإغفاله وعدم الاكتراث به، أو يوهمه بحنق الصديق عليه وإضمار الكيد له.

ولكن العتاب لا يجدي نفعاً ولا يستميل الصديق إلا إذا كان عاطفياً رقيقاً كاشفاً عن حب العاتب ورغبته في استعطاف صديقه وإستدامة وده. إذ العشرة فيه والإفراط منه يحدثان رد فعل سيء يضاعف نفار الصديق ويفصم عرى الود والإخاء.

لذلك حثت الشريعة الإسلامية على الصفح والتسامح عن المسيء وحسن مداراة الأصدقاء خاصة والناس عامة.

قال تعالى: ﴿ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم، واستغفر لهم، وشاورهم في الأمر﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وقال سبحانه: ﴿إدفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم، وما يلقاها إلا الذين صبروا، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم﴾ (حم السجدة: ٣٤ ـ ٣٥).

وعن أبي عبدالله (ع) قال: «قال رسول الله (ص): «أمرني ربي بمداراة الناس كما أمرني بأداء الفرائض»[١].

---

(١) الوافي. ج ٣ ص ٨٦ عن الكافي.

وقال (ص): «أعقل الناس أشدهم مداراة للناس»(١).

والجدير بالذكر أن من أقوى عوامل ازدهار الصداقة وتوثيق أواصر الحب والإخلاص بين الأصدقاء، هو أن يتفادى كل منهم جهده عن تصديق النمامين والوشاة المغرمين بغرس بذور البغضاء والفرقة بين الأحباب وتفريق شملهم، وفصم عرى الإخاء بينهم. وهؤلاء هم شرار الخلق كما وصفهم رسول الله (ص) حيث قال:

«ألا أنبئكم بشراركم؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: المشاؤون بالنميمة المفرقون بين الأحبة، الباغون للبراء المعايب»(٢).

* * *

الاعتدال في حب الصديق والثقة به

ومن الحكمة أن يكون العاقل معتدلاً في محبة الأصدقاء والثقة بهم والركون إليهم دون إسراف أو مغالاة، فلا يصح الإفراط في الاطمئنان إليهم واطلاعهم على ما يخشى إفشاءه من أسراره وخفاياه.

فقد يرتد الصديق ويغدو عدواً لدوداً، فيكون آنذاك أشد خطراً وأعظم ضرراً من الخصوم والأعداء.

وقد حذرت وصايا أهل البيت عليهم السلام وأقوال الحكماء والأدباء نظماً ونثراً من ذلك:

قال أمير المؤمنين (ع): «أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكون بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكون حبيبك يوماً ما»(٣).

وقال الصادق (ع) لبعض أصحابه:

«لا تطلع صديقك من سرك إلا على ما لو اطلع عليه عدوك لم يضرك فإن

(١) معاني الأخبار للصدوق.

(٢) البحار كتاب العشرة ص ١٩١ عن الكافي.

(٣) نهج البلاغة.

الصديق قد يكون عدوك يوماً ما»[١].

قال المعري:

خف من تودّ كما تخاف معادياً ... وتمار فيمن ليس فيه تمار
فالرزء يبعثه القريب وما درى ... مضر بما تجنى يدا أغمار

وقال أبو العتاهية:

ليخل امرؤ دون الثقات بنفسه ... فما كل موثوق به ناصح الحب

حقوق الجوار

التآزر والتعاطف

لقد جهد الإسلام في حث المسلمين وترغيبهم في التآزر والتعاطف، ليجعلهم أمة مثالية في اتحادها وتعاضدها على تحقيق أهدافها، ودفع الأزمات والأخطار عنها.

ودأب على غرس تلك المفاهيم السامية في نفوس المسلمين ليزدادوا قوة ومنعة وتجاوباً في أحاسيس الود ومشاعر الإخاء.

﴿محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ (الفتح: ٢٩).

﴿وتعاونوا على البر والتقوى، ولا تعاونوا على الإثم والعدوان﴾ (المائدة: ٢).

وكان من ذلك تحريض المسلمين على حسن الجوار ورعاية الجار، لينشيء من المتجاورين جماعة متراصة متعاطفة تتبادل اللطف والإحسان، وتتعاون على كسب المنافع ودرىء المضار، ليستشعروا بذلك الدعة والرخاء والقوة على معاناة المشاكل والأحداث.

ولقد أوصى القرآن الكريم برعاية الجار والإحسان إليه فقال:

﴿واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى

(١) البحار، كتاب العشرة ص ٤٩ عن أمالي الصدوق.

واليتامى والمساكين وابن السبيل والجار ذي القربى، والجار الجنب، والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم﴾ (النساء: ٣٦).

والمراد ـ بالجار ذي القربى ـ الجار القريب داراً أو نسباً ـ والجار الجنب ـ هو البعيد جواراً أو نسباً.

وعن أبي عبدالله (ع) قال: «قال رسول الله (ص): كل أربعين داراً جيران من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله»[1].

و ـ الصاحب بالجنب ـ الرفيق في السفر، أو الزميل في التعلم، أو في الحرفة.

و ـ ابن السبيل ـ المسافر أو الضيف.

ـ وما ملكت أيمانكم ـ الأهل والخدم.

وناهيك في حرمة الجار وضرورة رعايته قول النبي (ص) فيه: «ما زال جبرئيل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه»[2].

وعن أبي عبدالله (ع) قال: قال رسول الله (ص):

«حسن الجوار يعمر الديار، وينسيء في الأعمار»[3].

وقال الصادق (ع): «ليس منا من لم يحسن مجاورة من جاوره»[4].

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع، وما من أهل قرية يبيت فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[5].

وقال الصادق (ع): «إن يعقوب لما ذهب منه بنيامين نادى. يا رب أما ترحمني، أذهبت عيني، وأذهبت ابني. فأوحى الله تعالى إليه: لو أمتهما لأحييتهما لك حتى أجمع بينك وبينهما، ولكن تذكر الشاة التي ذبحتها وشويتها وأكلت،

---

(١) الوافي، ج ٣ ص ٩٧ عن الكافي.
(٢) الوافي، ج ٣ ص ٩٦ عن الفقيه.
(٣)، (٤)، (٥) الوافي ج ٣ ص ٩٦ عن الكافي.

وفلان إلى جانبك صائم لم تنله منها شيئاً»[1].

وفي رواية أخرى قال: «وكان بعد ذلك يعقوب ينادي مناديه كل غداة من منزله على فرسخ، ألا من أراد الغداء فليأت إلى يعقوب. وإذا أمسى نادى: ألا من أراد العشاء فليأت إلى يعقوب»[2].

حقوق الجار

وخلاصتها أن يساس الجار باللطف وحسن المداراة كابتدائه بالسلام وعيادته في المرض، وتهنئته في الأفراح، وتعزيته في المصائب، وعدم التطلع إلى حرمه، والاغضاء عن هفواته، وكف الأذى عنه، وإعانته مادياً إذا كان معوزاً، وإعارة ما يستعيره من الأدوات المنزلية، ونصحه إذا ما زاغ وانحرف عن الخط المستقيم.

ومن طريف ما يحكى في حسن الجوار:

«إن رجلاً كان جاراً لأبي دلف ببغداد، فأدركته حاجة، وركبه دين فادح حتى احتاج إلى بيع داره، فساوموه فيها، فسمى لهم ألف دينار، فقالوا له: إن دارك تساوي خمسمائة دينار. فقال: أبيع داري بخمسمائة، وجوار أبي دلف بخمسمائة، فبلغ أبا دلف الخبر، فأمر بقضاء دينه ووصله، وقال: لا تنتقل من جوارنا. فانظر كيف صار الجوار يباع كما تباع العقار».

حقوق المجتمع الإسلامي

فضل المجتمع الإسلامي

كان المجتمع الإسلامي إبّان رقيه وازدهاره، نموذجاً فذاً ونمطاً مثالياً بين المجتمعات العالمية المتحضرة، بخصائصه الرفيعة، ومزاياه الغر التي بوأته قمم المفاخر والأمجاد، وأنشأت من أفراده أسرة إسلامية مرصوصة الصف، خفّاقة

---

(١)، (٢) الوافي ج ٣ ص ٩٦ عن الكافي.

اللواء، مرنهوبة الجانب، مرهـوبة بالفضائل والمكرمات.

لقد كان فذاً في عقيدتـه التي حوت أسرار التـوحيد وأوضحت خصـائص الألوهية وصفـاتها الحقـة، وجلّت واقع النبـوة والأنبياء، وفصلت حقـائق المعاد، وما يجيش به من صور النعيم والعذاب.

حوت كل ذلك، وصورته تصويراً رائعاً يستهوي العقول والقلوب ويقنـع الضمائر حتى باركها الله واصطفاها بيـن العقائد والأديان.

﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ (آل عمران: ٨٥).

وكان فذاً في شريعته الغراء، تلك التي تكاملت بها شرائـع السماء وبلغت قمـة الوحي الإلهي مـا جعلها الشريعـة الخالـدة عبر الحيـاة، والدستـور الأمثـل للبشرية جمعاء.

وكان فذاً في أخلاقه، فقد ازدهرت في ربـوعه القيم الأخـلاقية وتكـاملت حتى أصبحت طابعاً مميزاً للمسلم الحق كما وصفه الرسول الأعظم (ص) بقوله:

«المؤمن من أمنه الناس على أموالهم ودمـائهم، والمسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه، والمهاجر من هجر السيئات»[١].

وكان مثلاً رفيعاً في آدابه الاجتماعية:

قال أمير المؤمنـين (ع): «يا بني اجعـل نفسك ميـزاناً بينـك وبين غـيرك، فأحبب لغيرك ما تحب لنفسك، وأكره له ما تكره لهـا، ولا تظلم كـما لا تحب أن تـظلم، وأحسن كما تحب أن يُحسن إليـك، واستقبح من نفسـك ما تستقبـح من غيرك، وارض من الناس بما ترضـاه لهم من نفسك، ولا تقـل ما لا تعلم، وإن قلّ ما تعلم، ولا تقل مالا تحب أن يقال لك»[٢].

وكان فريداً في تآخيه: فقد أعلن مبدأ المؤاخاة وحققه بين أفـراده بأسلوب

---

(١) الوافي ج ١٤ ص ٤٨ عن الفقيه.

(٢) نهج البلاغة، من وصيته لابنه الحسن (ع).

لم تستطع تحقيقه سائر الشرائع والمبادىء ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ (الحجرات: ١٠) وأصبح المجتمع أسرة واحدة تستشعر روح الإخاء، وتتجاوب في عواطفها ومشاعرها، وكان ذلك من أعظم منجزات الإسلام وفتوحاته الإصلاحية.

وكان مثالياً في أريحته وتكافله: فالمسلم معني بشؤون المجتمع والاهتمام بمصالحه والعطف على بؤسائه ومعوزيه.

فعن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1].

وعنه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «الخلق عيال الله، وأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على بيت سروراً»[2].

حقوق المجتمع الإسلامي

للفرد قيمته ومنزلته في المجتمع، بصفته لبنة في كيانه، وغصناً من اغصان دوحته، وبمقدار ما يسعد الفرد، وينال حقوقه الاجتماعية يسعد المجتمع، وتشيع فيه دواعي الطمأنينة والرخاء، وبشقائه وحرمانه يشقى المجتمع وتسوده عوامل البلبلة والتخلف.

لذلك كان حتماً مقضياً على المجتمع رعاية مصالح الفرد، وصيانة كرامته ومنحه الحقوق الاجتماعية المشروعة، ليستشعر العزة والسكينة والرخاء في إطار أسرته الاجتماعية، وإليك أهم تلك الحقوق:

١ ـ حق الحياة:

وهو حق طبيعي مقدس يجب رعايته وصيانته، ويعتبر الإسلام هدره والاعتداء عليه جناية نكراء وجرماً عظيماً يتوعد عليه بالنار: ﴿ومن يقتل مؤمناً متعمداًفجزاؤه جهنم خالداً فيها، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً﴾ (النساء: ٩٣).

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٩ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٩٩ عن الكافي.

ولم يكتف الإسلام بإنذار السفاكين، ووعيدهم بالعقاب الأخروي، فقد شرع القصاص من القاتل عمداً، والدية عليه خطأً، حماية لدماء المسلمين، وحسماً لأحداث القتل وجرائمه ﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب لعلكم تتقون﴾ (البقرة: ١٢٩).

وليس للإنسان أن يفرط في حياته ويزهقها بالانتحار، وإنما يجب عليه حفظها وصيانتها من الأضرار والمهالك ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة: ١٩٥).

وقد بالغ الإسلام في قدسية الأرواح وحمايتها، حتى حرّم قتل الجنين وإجهاضه تخلصاً منه، وفرض الدية على قاتله.

٢ ـ حق الكرامة:

لقد شرف الله المؤمن وحباه بصنوف التوقير والإعزاز، وألوان الدعم والتأييد. فحفظ كرامته، وصان عرضه، وحرّم ماله ودمه، وضمن حقوقه، ووالى عليه ألطافه، حتى أعلن في كتابه الكريم عنايته بالمؤمن ورعايته له في الحياة العاجلة والآجلة: ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وابشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما توعدون﴾ (حم السجدة: ٣٠ ـ ٣١).

﴿الذين آمنوا وكان يتقون، لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة﴾ (يونس: ٦٣ ـ ٦٤).

﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ (غافر: ٥١).

وحرّم الإسلام بعد هذا كل ما يبعث على استهانة المؤمن وخدش كرامته وتلويث سمعته باغتيابه والتجسس عليه، والسخرية منه ليطهر المجتمع الإسلامي من عوامل التباغض والفرقة. وليشع في ربوعه مفاهيم العزة والكرامة.

﴿يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن، إنّ بعض الظن إثم، ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً، أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه﴾ (الحجرات: ١٢).

﴿يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم، ولا نساء من نساء عسى أن يكنّ خيراً منهنّ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب، بئس الإسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون﴾ (الحجرات: ١١).

وهكذا حرص الإسلام على إعزاز المؤمن وحماية شرفه وكرامته حتى بعد وفاته، فجعل حرمته ميتاً كحرمته حياً، وفرض على المسلمين تجهيزه بعد الممات وتغسيله وتكفينه والصلاة عليه ودفنه، وحرم كلما يثلب كرامته كالمثلة به ونبش قبره، واستغابته والطعن فيه.

وقد جهد الإسلام في حماية المسلمين وضمان كرامتهم فرداً ومجتمعاً مادياً وأدبياً:

فشرع الحدود والديات صيانة لأرواحهم وأموالهم وحرماتهم، وردعاً للمجرمين العابثين بأمن المجتمع ومقدراته.

﴿ولكم في القصاص حياة يا أولي الألباب، لعلكم تتقون﴾ (البقرة: ١٢٩).

﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً، أن يقتّلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض﴾ (المائدة: ٣٣).

وبالغ الإسلام في عقوبة الزاني لاستهتاره بقدسية أعراض الناس، وانتهاكه صميم كرامتهم وشرفهم.

﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مئة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ (النور: ٢).

وقرر الحد الصارم على السارق حسماً لأجرامه وحرصاً على أمن المسلمين واطمئنانهم.

﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءً بما كسبا نكالاً من الله﴾ (المائدة: ٣٨).

وهكذا أعلن أهل البيت عليهم السلام شرف المؤمن وعزته، وأحاطوه بهالة من التوقير والإجلال وألوان الحصانة والصيانة:

فعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «سباب المؤمن فسوق، وقتاله كفر، وأكل لحمه معصية، وحرمة ماله كحرمة دمه»[1].

وعن أبي عبدالله (ع) قال:

قال رسول الله (ص): «قال الله عز وجل: من أهان لي ولياً، فقد أرصد لمحاربتي. وما تقرب إلي عبد بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وإنه ليتقرب إلي بالنافلة حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي يبطش بها، إن دعاني أجبته، وإن سألني أعطيته، وما ترددت عن شيء أنا فاعله كترددي عن موت عبدي المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته»[2].

وعنه (ع) قال:

قال رسول الله (ص): «يا معشر من أسلم بلسانه، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه، لا تذموا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في بيته»[3].

وعنه عليه السلام قال:

قال رسول الله (ص): «من أذاع فاحشة كان كمبتدئها ومن عيّر مؤمناً بشيء لم يمت حتى يركبه»[4].

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٤١ عن الكافي.
(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤١ عن الكافي.
(٣) البحار كتاب العشرة ص ١٧٧ عن الكافي.
(٤) الوافي ج ٣ ص ١٦٣ عن الكافي.

٣ ـ حق الحرية :

والحرية هي : انعتاق الإنسان وتحرره من أسر الرق والطغيان، وتمتعه بحقوقه المشروعة. وهي من أقدس الحقوق وأجلها خطراً، وأبلغها أثراً في حياة الناس.

لذلك أقر الإسلام هذا الحق وحرص على حمايته وسيادته في المجتمع الإسلامي.

وليست الحرية كما يفهمها الأغرار هي التحلل من جميع النظم والضوابط الكفيلة بتنظيم المجتمع، وإصلاحه وصيانة حقوقه وحرماته، فتلك هي حرية الغاب والوحوش الباعثة على فساده وتسيبه. وإنما الحرية الحقة هي :

التمتع بالحقوق المشروعة التي لا تناقض حقوق الآخرين ولا تجحف بهم. وإليك طرفاً من الحريات :

أ ـ الحرية الدينية :

فمن حق المسلم أن يكون حراً طليقاً في عقيدته وممارسة عباداته، وأحكام شريعته. فلا يجوز قسره على نبذها أو مخالفة دستورها، ويعتبر ذلك عدواناً صارخاً على أقدس الحريات، وأجلها خطراً في دنيا الإسلام والمسلمين، وعلى المسلم أن يكون صلباً في عقيدته، صامداً إزاء حملات التضليل التي يشنها أعداء الإسلام، لإغواء المسلمين وإضعاف طاقاتهم ومعنوياتهم.

ب ـ الحرية المدنية :

ومن حق المسلم الرشيد أن يكون حراً في تصرفاته، وممارسة شؤونه المدنية، فيستوطن ما أحب من البلدان، ويختار ما شاء من الحرف والمكاسب ويتخصص فيما يهوى من العلوم، وينشيء ما أراد من العقود، كالبيع والشراء والإجارة والرهن ونحوها. وهو حر في مزاولة ذلك على ضوء الشريعة الإسلامية.

ج ـ حرية الدعوة الإسلامية:

وهذه الحرية تخص الأكفاء من المسلمين القادرين على نشر التوعية الإسلامية، وإرشاد المسلمين وتوجيههم وجهة الخير والصلاح. وذلك ما يبعث على تصعيد المجتمع الإسلامي ورقيه دينياً وثقافياً واجتماعياً، ويعمل على وقايته وتطهيره من شرور الرذائل والمنكرات.

﴿ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون﴾ (آل عمران: ١٠٤).

وقال رسول الله (ص):

«لا يزال الناس بخير ما أمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، وتعاونوا على البر، فإذا لم يفعلوا ذلك نزعت منهم البركات، وسلط بعضهم على بعض، ولم يكن لهم ناصر في الأرض ولا في السماء»[1].

٤ ـ حق المساواة:

كانت الأمم العالمية تعيش حياة مزرية، تسودها الأثرة والأنانية، وتفرقها نوازع الامتيازات الطبقية. فكان التفاوت الطبقي من أبرز مظاهر العرب الجاهليين. إذ كانوا يضطهدون الضعفاء ويستعبدونهم كالأرقاء، ولا يؤاخذون الأشراف على جناية أو جرم تمييزاً لهم عن سوقة الناس.

وحسبك ما كان عليه ملوك العرب يومذاك من الأنانية واستذلال الناس.

فكان عمر بن هند ملكاً عربياً: وقد عود الناس أن يكلمهم من وراء حجاب، وقد استكثر على سادة القبائل أن تأنف أمهاتهم من خدمته في داره.

وكان النعمان بن المنذر قد بلغ به العسف أن يتخذ لنفسه يوماً للرضى، يغدق فيه النعم على كل قادم إليه خبط عشواء، ويوماً للغضب يقتل فيه كل طالع عليه من الصباح إلى المساء.

ومن القصص المشهورة: قصة (عمليق) ملك طسم وجديس. كان

(١) الوافي ج ٩ ص ٢٩ عن التهذيب.

يستبيح كل عروس قبل أن تزف إلى عروسها»[١].

وهكذا كانت الأمم الغربية في تمايزها الطبقي حتى قيام الثورة الفرنسية التي طفقت تنادي بالمساواة وتحفّز عليها مما أيقظ الغربيين وأثار فيهم شعور المساواة.

ولكنّ رواسب الطبقية لا تزال عالقة في نفوس الغربيين تستشف من خلال أقوالهم وتصرفاتهم:

فالألمانية النازية: تقدس الجنس الآري، وتفضله على سائر الأجناس البشرية.

والأمم الأمريكية: لا يزال الصراع فيها قائماً بين البيض والسود من جراء أنانية البيض وترفعهم عن مخالطة السود، ومشاركتهم في المدارس والمطاعم وسائر مرافق الحياة.

وهكذا درجت بريطانيا على إشاعة التفاوت الطبقي بين البيض والملونين في جنوب أفريقيا، حيث جعلت البيض سادة مدللين، والسود أرقّاء مستعبدين لهم.

وكذلك نجد التمايز والتفاوت واضحين في ظلال الحكم الشيوعي بين العامل ورئيسه، والجندي وقائده، والفنانين والكادحين. ولم يستطع رغم تشدقه بالمساواة: محو الطبقية بين أتباعه.

المساواة في الإسلام

لقد شرع الإسلام مبدأ المساواة، ونشر ظلاله في ربوع المجتمع الإسلامي بأسلوب مثالي فريد، لم تستطع تحقيقه سائر الشرائع والمبادىء. فأفراد المجتمع ذكوراً وإناثاً، بيضاً وسوداً، عرباً وعجماً، أشرافاً وسوقة أغنياء وفقراء. كلهم في شرعة الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا يتفاضلون إلا بالتقوى والعمل الصالح.

---

(١) حقائق الإسلام. للعقاد ص ١٥٠.

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣).

والقوانين الإسلامية والفرائض الشرعية نافذة عليهم جميعاً دون تمايز وتفريق بين الأجناس والطبقات. وما أنفك النبي (ص) عن تركيز مبدأ المساواة وتصعيده حتى استطاع تطويره والتسامي به إلى المؤاخاة الروحية بين المؤمنين.

﴿إنما المؤمنون أخوة﴾ (الحجرات: ١٠).

حسبك في ذلك أن الملوك كانوا يحسبون أنهم فوق مستوى البشر، ويترفعون عنهم في أبراج عاجية يطلون منها زهواً وكبراً على الناس.

يأمر القرآن الكريم سيد المرسلين أن يعلن واقعه للناس:

﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي إنما إلهكم إله واحد﴾ (الكهف: ١١٠).

لذلك كان هو (ص)، وذريته الأطهار؛ المثل الأعلى في تطبيق مبدأ المساواة والدعوة إليه قولاً وعملاً.

قال (ص): «إن الله تبارك وتعالى قد أذهب بالإسلام نخوة الجاهلية وتفاخرها بآبائها، ألا إن الناس من آدم، وآدم من تراب، وأكرمهم عند الله أتقاهم»[1].

ويحدثنا الرواة: أنه (ص) كان في سفر فأمر بإصلاح شاة، فقال رجل: يا رسول الله عليّ ذبحها، وقال آخر عليّ سلخها، وقال آخر عليّ طبخها، فقال (ص): وعليّ جمع الحطب. فقالوا: يا رسول الله نحن نكفيك، فقال: قد علمت أنكم تكفوني، ولكن أكره أن أتميز عليكم، فإن الله يكره من عبده أن يراه متميزاً بين أصحابه وقام فجمع الحطب[2].

ويحدث الرواة: أن سوادة بن قيس قال للنبي (ص) في أيام مرضه: يا

---

(١) الوافي ج ١٤ في وصية النبي (ص) لعلي (ع).
(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٤١٥.

رسول الله إنك لما أقبلت من الطائف استقبلتك، وأنت على ناقتك العضباء، وبيدك القضيب الممشوق، فرفعت القضيب وأنت تريد الراحلة فأصاب بطني، فأمره النبي (ص) أن يقتص منه فقال: اكشف لي عن بطنك يا رسول الله، فكشف عن بطنه. فقال سوادة: أتأذن لي أن أضع فمي على بطنك، فأذن له فقال: أعوذ بموضع القصاص من رسول الله (ص) النار يوم النار، فقال (ص): يا سوادة بن قيس أتعفو أم تقتص؟ فقال: بل أعفو يا رسول الله، فقال: اللهم أعف عن سوادة بن قيس كما عفى عن نبيك محمد»[1].

وهكذا كان أمير المؤمنين (ع):

قال الصادق (ع): «لما وليَ علي (ع) صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

إني لا أرزؤكم من فيئكم درهماً ما قام لي عذق بيثرب، فلتصدقكم أنفسكم، أفتروني مانعاً نفسي ومعطيكم؟

قال: فقام إليه عقيل كرّم الله وجهه فقال له: الله! لتجعلني وأسود بالمدينة سواء. فقال (ع): اجلس أما كان هنا أحد يتكلم غيرك؟ وما فضلك عليه إلا بسابقة أو تقوى»[2].

«ومشى إليه ثلة من أصحابه عند تفرق الناس عنه، وفرار كثير منهم إلى معاوية طلباً لما في يديه من الدنيا، فقالوا: يا أمير المؤمنين أعط هذه الأموال وفضل هؤلاء الأشراف من العرب وقريش على الموالي والعجم ومن تخاف عليه من الناس فراره إلى معاوية.

فقال لهم أمير المؤمنين (ع): أتأمروني أن أطلب النصر بالجور لا والله ما أفعل، ما طلعت شمس ولاح في السماء نجم، والله لو كان مالهم لي لواسيت بينهم، وكيف وإنما هي أموالهم»[3].

---

(١) سفينة البحار ج ١ ص ٦٧١.

(٢) البحار م ٩ ص ٥٣٩ عن الكافي.

(٣) البحار م ٩ ص.٥٣٣ (بتصرف وتلخيص).

«وقال عمر بن الخطاب للناس يوماً: ما قولكم لو أن أمير المؤمنين شاهد امرأة على معصية ـ يعني أتكفي شهادته في إقامة الحد عليها ـ؟.

فقال له علي بن أبي طالب: يأتي بأربعة شهود أو يجلد حد القذف شأنه في ذلك شأن سائر المسلمين[1].

وقد انبهر الكاتب الغربي ـ جب ـ بمبدأ المساواة في الإسلام، وراح يعرب عن إعجابه وإكباره لذلك، فقال في كتابه ـ مع الإسلام ـ:

ليس هناك أية هيئة سوى الإسلام يمكن أن تنجح مثله نجاحاً باهراً في تأليف هذه الأجناس البشرية المتنافرة في جبهة واحدة أساسها المساواة.

وإذا وضعت منازعات دول الشرق والغرب العظمى موضع الدرس فلا بد من الالتجاء إلى الإسلام لحزم النزاع.

وبتقرير مبدأ المساواة استشعر المسلمون مفاهيم العزة والكرامة، ومعاني الوئام والصفاء، وغدوا قادة الأمم وروادها إلى العدل والحرية والمساواة.

وفي الوقت الذي قرر الإسلام فيه المساواة، فإنه قررها بأسلوب منطقي حكيم يلائم العقول النيرة والفطر السليمة ويساير مبادئه الخالدة في إشاعة العدل، وإتاحة فرص التكافؤ بين عامة المسلمين، وإناطة التفاضل والتمايز بينهم فيما هو مقدور لهم وداخل في إمكاناتهم من أعمال الخير والصلاح دون ما كان خارجاً عن طاقتهم وإرادتهم من وفرة المال أو سعة الجاه.

﴿إن أكرمكم عند الله أتقاكم﴾ (الحجرات: ١٣).

فهو يشرع المساواة تحقيقاً لمبادئه العادلة البنّاءة ويقرر التمايز كذلك نظراً لبعض القيم والكفاءات التي لا يجوز إغفالها وهدرها.

﴿قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون﴾ (الزمر: ٩).

لذلك فضل الله الأنبياء بعضهم على بعض، لاختلاف كفاءاتهم وجهادهم في سبيل الله تعالى، وإصلاح البشر وإسعادهم.

---

(١) عن كتاب حقوق الإنسان بين تعاليم الإسلام وإعلان الأمم المتحدة ص ٢٧ لمحمد الغزالي.

﴿تلك الرسل فضلّنا بعضهم على بعض، منهم من كلّم الله، ورفع بعضهم درجات﴾ (البقرة: ٢٥٣).

وفضل العلماء على الجهال، والمؤمنين بعضهم على بعض، لتفاوتهم في مدارج العلم والتقى والصلاح.

﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾ (المجادلة: ١١).

وهكذا فاضل بين الناس في الرزق، لاختلاف كفاءاتهم وطاقاتهم في إجادة الأعمال، ووفرة الانتاج، فليس من العدل مساواة الغبي بالذكي والكسول بالمجد والعالم المخترع بالعامل البسيط، إذ المساواة والحالة هذه مدعاة لخفق العبقريات والمواهب وهدر الطاقات والجهود.

﴿نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنياورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ورحمة ربك خير مما يجمعون﴾ (الزخرف: ٣٢).

٥ - حق العلم:

للفرد قيمته وأثره في المجتمع بصفته عضواً من أعضائه، ولبنة في كيانه، وعلى حسب كفاءته ومؤهلاته الفكرية والجسمية تقاس حياة المجتمع وحالته رقيّاً أو تخلفاً، ازدهاراً أو خمولاً، للتفاعل القوي بين الفرد والمجتمع.

من أجل ذلك دأبت الأمم المتحضرة على تربية أبنائها وتثقيفهم بالعلم، حتى فرضوا التعليم الإجباري ويسروه مجاناً في مراحله الأولى، دعما لحضارتهم وتصعيداً لكفاءاتهم.

وقد كان المسلمون إبّان حضارتهم مثلاً رفيعاًوقدوة مثالية في إشاعة العلم لطلابه وتمجيد العلماء وتكريمهم، حتى استطاعت المعاهد الإسلامية أن تخرج أمّة من أقطاب العلم وإعلامه.

كانوا قادة الفكر وبناة الحضارة الإسلامية، وروّاد الأمم إلى العلم

والعرفان، وعليهم تتلمذ الغرب ومنهم اقتبس علمه وحضارته.

قال (سديو) في كتابه تاريخ العرب:

- كان المسلمون في القرون الوسطى منفردين في العلم والفلسفة والفنون وقد نشروها أينما حلت أقدامهم، وتسربت عنهم إلى أوروبا، فكانوا هم سبباً لنهضتها وارتقائها.

وقال جوستاف لوبون في كتابه حضارة العرب:

- ثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق، وأن أوروبا مدينة للعرب بحضارتها.

وكان من أقوى بواعث ازدهار العلوم الإسلامية واتساع آفاقها، أن حق التعليم - في المجتمع الإسلامي - كان مضموناً ومتاحاً لكل طالب مهما كان عنصره ومستواه شريفاً أو وضيعاً، غنياً أو فقيراً، عربياً أو أعجمياً.

وأن الشريعة الإسلامية كما فرضت على كل مسلم طلب العلم والتحلي به والانتفاع بثماره اليانعة، حتّمت على العالم أن ينشر علمه ويذيعه بين المسلمين ولا يكتمه عنهم.

قال الباقر (ع): «عالم ينتفع بعلمه، أفضل من سبعين ألف عابد»[1].

فلم يعرف المسلمون تلك الإثرة العلمية التي اتصف بها رجال الدين الغربيون حتى قيام النهضة الحديثة، وبذلك أصبح المسلمون مشعلاً وهاجاً بالعلم والعرفان.

٦ - حق الملكية:

لم يشهد التاريخ فتنة أثارت الجدل الحاد والنزاع الضاري كفتنة المال والملكية في هذا العصر، فقد انقسم العالم فيها إلى فريقين متناحرين: أحدهما يبيح الملكية الفردية بغير حد أو شرط، وهو الفريق الرأسمالي.

وثانيهما يستنكرها ويمنعها وهو الفريق الاشتراكي. وغدا العالم من جراء

(١) الوافي ج ١ ص ٤٠ عن الكافي.

هذين المبدأين المتناقضين يعاني ضروب الأزمات والمشاكل.

وقد حسم الإسلام هذه الفتنة، وعالجها علاجاً ناجحاً حكيماً، لا تجد البشرية أفضل منه أو بديلاً عنه لتحقيق سعادتها وسلامتها.

فهو: لا يمنع الملكية الفردية، ولا يبيحها من غير شرط.

لا يمنعها: لأن الإنسان مفطور على غريزة التملك، وحبّ النفع الذاتي، وهما نزعتان راسختان في النفس، لا يستطيع الانفكاك منهما والتخلي عنهما، وإن تجاهلتهما النظريات الخيالية التي لا تؤمن بغرائز الإنسان وميوله الفطرية.

هي حق طبيعي يحقق كرامة الفرد، ويشعره بوجوده، ويحرره من عبودية السلطة التي تحتكر أرزاق الناس وتستعبدهم بها.

هي حق يفجر في الإنسان طاقات المواهب والعبقريات، وينفخ فيه روح الأمل والرجاء، ويحفزه على مضاعفة الجهود ووفرة الانتاج وتحسينه.

وفي الوقت الذي منح الإسلام حق الملكية فإنه لم يمنحه على طرائق الجاهلية الرأسمالية التي تجيز اكتساب المال واستثماره بأيّ وجه كان، حلالاً أم حراماً. مما يوجب اجتماع المال واكتنازه في أيدٍ قليلة وحرمان أغلب الناس منه، ووقوعهم في أسر الأثرياء يتحكمون فيهم ويستغلون جهودهم كما يشاؤون.

إنّه أباح الملكية بأسلوب يضمن صالح الفرد، ويضمن صالح الجماعة ولا يضر بهذا ولا بأولئك، وذلك بما وضع لها من شروط.

١ - فهو لا يجيز اكتساب المال وتملكه إلاّ بطرق مشروعة محللة، وحرم ما سوى ذلك كالربا والرشا والاحتكار، واكتناز المال الذي فرض الله فيه نصيباً للفقراء، أو ابتزازه غصباً.

٢ - شرع قانون الإرث الموجب لتفتيت الثراء وتوزيعه على عدد من الورّاث في كل جيل.

٣ - شرع الفرائض المالية لإعانة الفقراء وإنعاشهم، كالزكاة والخمس والكفارات ورد المظالم.

وقد استطاع الإسلام بمبادئه الاقتصادية الحكيمة أن يشيع بين المسلمين

روح التعاطف والتراحم، ويحقق العدل الاجتماعي فيهم، فلا تجد بينهم جائعاً إزاء متخم، ولا عارياً إزاء مكتس بالحرير.

٧ ـ حق الرعاية الإسلامية:

كان من أبرز خصائص المجتمع الإسلامي ومزاياه، ذلك التجاوب العاطفي، والأحاسيس الأخوية المتبادلة بين أفراده، ما جعلهم كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضاً، أو كالجسد الواحد إذا اشتكى عضو تألمت له سائر الأعضاء.

فما كان للمسلم الحق أن يتغاضى عن الاهتمام بشؤون مجتمعه، ورعاية مصالحه العامة، والحرص على رقيه وازدهاره. كما قال النبي (ص):

«من أصبح لا يهتم بأمور المسلمين فليس بمسلم»[1].

وقال (ص): «ما آمن بي من بات شبعان وجاره جائع، وما من أهل قرية فيهم جائع ينظر الله إليهم يوم القيامة»[2].

وما كان للمجتمع الإسلامي أن يتغاضى عن رعاية أفراده البؤساء، وهم يعانون مرارة الفاقة ومضض الحرمان، دون أن يتحسس بمشاعرهم ويتطوع لإغاثتهم والتخفيف من ضُرهم.

وحسبك في شرف المؤمن وضرورة دعمه وإسناده، دعوة أهل البيت عليهم السلام وحثهم على توقيره وإكرامه ورعايته مادّياً ومعنوياً ما لو طبقه المسلمون اليوم لكانوا أسعد الأمم، وأرغدهم عيشاً وأسماهم منعة وجاهاً.

وإليك نماذج من وصاياهم في ذلك:

أ ـ إطعامه وسقيه:

قال علي بن الحسين (ع): «من أطعم مؤمناً من جوع أطعمه الله من ثمار

(١) الوافي ج ٣ ص ٩٩ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٩٦ عن الكافي.

الجنة، ومن سقى مؤمناً سقاه الله من الرحيق المختوم»[١].

وقال الصادق (ع): «من أطعم مؤمناً حتى يشبعه لم يدر أحد من خلق الله ماله من الأجر في الآخرة، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل إلا الله رب العالمين.

ثم قال: من موجبات المغفرة إطعام المسلم السغبان، ثم تلا قول الله تعالى: ﴿أو إطعام في يوم ذي مسغبة، يتيماً ذا مقربة، أو مسكيناً ذا متربة﴾[٢].

وعن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من سقى مؤمناً شربة من ماء من حيث يقدر على الماء، أعطاه الله بكل شربة سبعين ألف حسنة، وإن سقاه من حيث لا يقدر على الماء، فكأنما أعتق عشر رقاب من ولد إسماعيل»[٣].

ب ـ إكساء المؤمن:

وقال الصادق (ع): «من كسا أخاه كسوة شتاء أو صيف كان حقاً على الله أن يكسوه من ثياب الجنة، وأن يهون عليه من سكرات الموت وأن يوسع عليه في قبره وأن يلقى الملائكة إذا خرج من قبره بالبشرى، وهو قوله تعالى في كتابه: ﴿وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون﴾[٤] (الأنبياء: ١٠٣).

وقال (ع): «من كسا أحداً من فقراء المسلمين ثوباً من عرى، أو أعانه بشيء مما يقوته من معيشته وكّل الله تعالى به سبعة آلاف ملك من الملائكة يستغفرون لكل ذنب عمله إلى أن ينفخ في الصور.

وعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «من كسا أحداً.. الحديث مثله ـ إلّا أن فيه سبعين ألف ملك[٥].

ج ـ قضاء حاجة المؤمن:

عن المفضل عن أبي عبدالله (ع) قال: قال لي: «يا مفضل اسمع ما أقول

(١) الوافي ج ٣ ص ١٢٠ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٢٠ عن الكافي.
(٣)، (٤)، (٥) الوافي ج ٣ ص ١٢١ عن الكافي.

لك، واعلم أنه الحق، وافعله واخبر به علية أخوانك، قلت: جعلت فداك وما علية أخواني؟

قال: الراغبون في قضاء حوائج أخوانهم، قال: ثم قال:

ومن قضى لأخيه المؤمن حاجة قضى الله تعالى له يوم القيامة مائة ألف حاجة، من ذلك أولها الجنة، ومن ذلك أن يدخل قرابته ومعارفه وأخوانه الجنة، بعد أن لا يكونوا نصاباً»[١].

وقال الصادق (ع):

«ما قضى مسلم لمسلم حاجة إلاّ ناداه الله تعالى: عليّ ثوابك، ولا أرضى لك بدون الجنة»[٢].

وقال (ع): «إن المؤمن منكم يوم القيامة ليمر به الرجل له المعرفة به في الدنيا وقد أمر به إلى النار، والملك ينطلق به، قال: فيقول له: يا فلان أغثني فقد كنت أصنع إليك المعروف في الدنيا، وأسعفك في الحاجة تطلبها مني، فهل عندك اليوم مكافأة؟ فيقول المؤمن للملك الموكل به خل سبيله، قال: فيسمع الله قول المؤمن، فيأمر الملك أن يجبر قول المؤمن فيخلي سبيله»[٣].

د ـ مسرة المؤمن:

عن أبي عبدالله (ع) عن أبيه عن علي بن الحسين (ع) قال: قال رسول الله (ص): «إن أحب الأعمال إلى الله تعالى إدخال السرور على المؤمنين»[٤].

وعن أبي عبد الله (ع) قال: قال رسول الله (ص): «الخلق عيال الله، فأحب الخلق إلى الله من نفع عيال الله، وأدخل على أهل بيت سروراً»[٥].

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١١٧ عن الكافي.

(٢) الوافي ج ٣ ص ١١٨ عن الكافي.

(٣) البحار، كتاب العشرة، ص ٨٦ عن ثواب الأعمال للصدوق.

(٤) الوافي ج ٣ ص ١١٧ عن الكافي.

(٥) الوافي ج ٣ ص ٩٩ عن الكافي.

وقال الصادق (ع): «من أدخل على مؤمن سروراً خلق الله من ذلك السرور خلقاً فليقاه عند موته فيقول له: ابشر يا ولي الله بكرامة من الله ورضوان، ثم لا يزال معه حتى يدخله قبره، فيقول له مثل ذلك فإذابعث يلقاه فيقول له مثل ذلك، ثم لا يزال معه عند كل هول يبشره ويقول له مثل ذلك، فيقول له: من أنت رحمك الله؟ فيقول له: أنا السرور الذي أدخلته على فلان»[1].

هـ - زيارة المؤمن:

عن أبي عزة قال: سمعت أبا عبدالله (ع) يقول: «من زار أخاه في الله، في مرض أو صحة، لا يأتيه خداعاً ولا استبدالاً، وكّل الله به سبعين ألف ملك ينادونه في قفاه إن طبت وطابت لك الجنة، فأنتم زوار الله، وأنتم وفد الرحمن حتى يأتي منزله»[2].

وقال (ع): «إن ضيفان الله عز وجل: رجل حج واعتمر فهو ضيف الله حتى يرجع إلى منزله، ورجل كان في صلاته فهو كنف الله حتى ينصرف، ورجل زار أخاه المؤمن في الله عز وجل فهو زائر الله في ثوابه وخزائن رحمته».

الحاكمون وواجباتهم

الإنسان مدني بالطبع، لا يستغني عن أفراد نوعه، والانس بهم والتعاون معهم على إنجاز مهام الحياة، وكسب وسائل العيش.

وحيث كان أفراد البشر متفاوتين في طاقاتهم وكفاءاتهم الجسمية والفكرية فيهم القوي والضعيف والذكي والغبي، والصالح والفاسد، وذلك ما يثير فيهم نوازع الأثرة والأنانية والتنافس البغيض على المنافع والمصالح، مما يسبب بلبلة المجتمع، وهدر حقوقه وكرامته.

---

(١) الوافي ج ٣ ص ١١٧ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٠٧ عن الكافي.

لذلك كان لا بد للأمم من سلطة راعية ضابطة، ترعى شؤونهم وتحمي حقوقهم، وتشيع الأمن والعدل والرخاء فيهم.

ومن هنا نشأت الحكومات وتطورت عبر العصور من صورها البدائية الأولى حتى بلغت طورها الحضاري الراهن. وكان للحكام أثر بليغ في حياة الأمم والشعوب وحالاتها رقياً أو تخلفاً، سعادة أو شقاءً، تبعاً لكفاءة الحكام وخصائصهم الكريمة أو الذميمة.

فالحاكم المثالي المخلص لأمته هو: الذي يسوسها بالرفق والعدل والمساواة، ويحرص على إسعادها ورفع قيمتها المادية والمعنوية.

والحاكم المستبد الجائر هو: الذي يستعبد الأمة ويسترقها لأهوائه ومآربه ويعمد على إذلالها وتخلفها. وقد أوضحت آثار أهل البيت عليهم السلام أهمية الحكام وآثارهم الحسنة أو السيئة في حياة الأمة، فأثنت على العادلين المخلصين منهم، ونددت بالجائرين وأنذرتهم بسوء المغبة والمصير.

فعن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله (ص): «صنفان من أمتي إذا صلحا صلحت أمتي، وإذا فسدا فسدت. قيل يا رسول الله ومن هما؟ قال: الفقهاء والأمراء»[1].

وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبي (ص) قال: «تكلم النار يوم القيامة ثلاثة: أميراً وقارئاً وذا ثروة من المال. فتقول للأمير: يا من وهب الله له سلطاناً فلم يعدل، فتزدرده كما يزدرد الطير حب السمسم.

وتقول للقارىء: يا من تزين للناس وبارز الله بالمعاصي فتزدرده.

وتقول للغني: يا من وهب الله له دنيا كثيرة واسعة فيضاً، وسأله الحقير اليسير فرضاً فأبى إلا بخلاً فتزدرده»[2].

ولم يكتف أهل البيت عليهم السلام بالإعراب عن سخطهم على الظلم والظالمين ووعيدهم حتى اعتبروا أنصارهم والضالعين في ركابهم شركاء معهم في الإثم والعقاب.

---

(١)، (٢) البحار، كتاب العشرة. ص ٢٠٩ عن الخصال.

فعن الصادق عن أبيه عليهما السلام قال: قال رسول الله (ص): «إذا كان يوم القيامة نادى مناد. أين الظلمة وأعوانهم، ومن لاق لهم دواة، أو ربط لهم كيساً، أو مد لهم مدة قلم؟ فاحشروهم معهم»[1].

والطغاة مهما تجبروا وعتوا على الناس، فإنهم لا محالة مؤاخذون بما يستحقونه من عقاب عاجل أو آجل، فالمكر السيىء لا يحيق إلا بأهله ولعنة التاريخ تلاحق الطواغيت وتمطرهم بوابل الذم واللعن وتنذرهم بسوء المغبّة والمصير، وفي التاريخ شواهد جمّة على ذلك.

منها ما حكاه الرواة عن ابن الزيات: إنه كان قد اتخذ في أيام وزارته تنوراً من حديد، وأطراف مساميره محدودة إلى داخل وهي قائمة مثل رؤوس المسال، وكان يعذّب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال، فكيف ما انقلب واحد منهم أو تحرك من حرارة العقوبة تدخل المسامير في جسمه، فيجدون لذلك أشدّ الألم ولم يسبقه أحد إلى هذه المعاقبة.

فلما تولى المتوكل الخلافة اعتقل ابن الزيات، وأمر بإدخاله التنور وقيده بخمسة عشر رطلاً من الحديد، فأقام في التنور أربعين يوماً ثم مات[2].

ومنها: الحجاج بن يوسف الثقفي:

فإنه تأمّر على الناس عشرين سنة، وأحصي من قتله صبراً سوى من قُتل في عساكره وحروبه فوجد - مائة ألف وعشرين ألفاً - وفي حبسه خمسون ألف رجل، وثلاثون ألف إمرأة، منهنّ ستة عشر ألفاً مجردة، وكان يحبس النساء والرجال في موضع واحد، ولم يكن للحبس ستر يستر الناس من الشمس في الصيف، ولا من المطر والبرد في الشتاء.

ثم لاقى جزاء طغيانه وإجرامه خزياً ولعناً وعذاباً، وكانت عاقبة أمره أنه ابتلي بالآكلة في جوفه، وسلط الله عز وجل عليه الزمهرير، فكانت الكوانين المتوقدة بالنار تجعل حوله، وتُدنى منه حتى تحرق جلده وهو لا يحس بها حتى هلك عليه لعائن الله.

---

(١) البحار، كتاب العشرة ص ٢١٨ عن ثواب الأعمال للصدوق.

(٢) سفينة البحار ج ١ ص ٥٧٤.

حقوق الرعية على الحاكم

والحاكم بصفته قائد الأمة وحارسها الأمين مسؤول عن رعايتها وصيانة حقوقها، وضمان أمنها ورخائها، ودرء الأخطار والشرور عنها. وإليك أهم تلك الحقوق:

أ ـ العدل: وهو أقدس واجبات الحكام، وأجلّ فضائلهم، وأخلد مآثرهم، فهو أساس المُلك، وقوام حياة الرعية، ومصدر سعادتها وسلامها. وكثيراً ما يوجب تمرد الناس على الله تعالى، وتنكبهم عن طاعته ومنهاجه تسلط الطغاة عليهم واضطهادهم بألوان الظلامات كما شهدت بذلك أحاديث أهل البيت عليهم السلام.

فعن الصادق (ع) عن آبائه عن علي بن أبي طالب (ع) قال: قال رسول الله (ص): «قال الله جل جلاله: أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الملوك وقلوبهم بيدي، فأيما قوم أطاعوني جعلت قلوب الملوك عليهم رحمة، وأيماقوم عصوني جعلت قلوب الملوك عليهم سخطة، ألا لا تشغلوا أنفسكم بسب الملوك، توبوا إليّ أعطف قلوبهم عليكم»[1].

وقد بحثت في القسم الأول من هذا الكتاب موضوع العدل وفضائله وأنواعه فراجعه هناك.

ب ـ الصلاح: ينزع غالب الناس إلى تقليد الحكام والعظماء تشبهاً بهم ومحاكاة لهم، ورغبة في جاههم ومكانتهم.

ولهذا وجب اتصاف الحاكم بالصلاح وحسن الخلق وجمال السيرة والسلوك ليكون قدوة صالحة ونموذجاً رفيعاً تستلهمه الرعية وتسير على هديه ومنهاجه.

وانحراف الحاكم وسوء أخلاقه وأفعاله يدفع غالب الرعية إلى الإنحراف وزجها في متاهات الغواية والضلال، فيعجز الحاكم آنذاك عن ضبطها وتقويمها.

ونفسك فاحفظها من الغي والردى فمتى تغواها تغوي الذي بك يقتدي

---

(١) البحار، كتاب العشرة ص ٢١٠ عن أمالي الشيخ الصدوق.

وفي التاريخ شواهد جمّة على تأثر الشعوب بحكامها، وانطباعها بأخلاقهم وسجاياهم حميدة كانت أو ذميمة كما قيل: - الناس على دين ملوكهم.

جـ - الرفق: ويجدر بالحاكم أن يسوس الرعية بالرفق وحسن الرعاية، ويتفادى سياسة العنف والإرهاب، فليس شيء أضرّ بسمعة الحاكم وزعزعة كيانه من الاستبداد والطغيان.

وليس شيء أضرّ بالرعية، وادعى إلى إذلالها وتخلفها من أن تساس بالقسوة والاضطهاد.

فعن أبي جعفر (ع) قال: قال رسول الله (ص): «إنّ الرفق لم يوضع على شيء إلاّ زانه، ولا نزع من شيء إلاّ شانه»(١).

وقال الصادق (ع): «من كان رفيقاً في أمره نال ما يريد من الناس»(٢).

وقال أمير المؤمنين (ع) في عهده إلى مالك الأشتر: «وأشعر قلبك الرحمة للرعية، والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكوننّ سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم، فإنهم صنفان: إما أخ لك في الدين، وإما نظير لك في الخلق، يفرط منهم الزلل، وتعرض لهم العلل، ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ، فاعطهم من عفوك وصفحك مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه، فإنك فوقهم، ووالي الأمر عليك فوقك، والله فوق من ولاّك، وقد استكفاك أمرهم وابتلاك بهم».

وبديهي أن الرفق لا يجمل وقعه ولا يحمد صنيعه إلاّ مع النبلاء الأخيار، أما الأشرار العابثون بأمن المجتمع وحرماته فإنهم لا يستحقون الرفق ولا يليق بهم، إذ لا تجديهم إلاّ القسوة الزاجرة والصرامة الرادعة عن غيّهم وإجرامهم.

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته   وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا   مضر كوضع السيف في موضع الندى

---

(١) الوافي ج ٣ ص ٨٦ عن الكافي.
(٢) الوافي ج ٣ ص ٨٧ عن الكافي.

مظاهر الرفق

وللرفق صور رائعة ومظاهر خلّابة، تتجلى في أقوال الحاكم وأفعاله.

أ ـ فعليه أن يكون عف اللسان، مهذب القول، مجانباً للبذاء.

ب ـ وأن يكون عطوفاً على الرعية يتحسس بآلامها ومآسيها. فإذا داهمها خطر، وحاق بها بلاء سارع لنجدتها ومواساتها والتخفيف من بؤسها وعنائها.

جـ ـ وأن يتفادى ارهاق الرعية بالأتاوات الباهضة، والضرائب الفادحة الباعثة على شقائها وعنتها.

آثار الرفق

للرفق خصائص وآثار طيبة تفيء على الحاكم والمحكوم بالخير والوئام. فهو مدعاة حب الرعية للراعي وإخلاصها له وتفانيها في سبيله.

كما هو عاصم للرعية عن الملق والنفاق الناجمين عن رهبة الحاكم المتجبر والخوف من بطشه وفتكه. وقد مدح الله رسوله الأعظم بالرفق والعطف فقال تعالى:

﴿فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك﴾ (آل عمران: ١٥٩).

د ـ اختيار الأعوان:

لا يستطيع الحاكم مهما أوتي من قدرة وكفاءة أن يستقل بسياسة الرعية، ويضطلع بمهام الحكم وإدارة جهازه، فهو لا يستغني عن أعوان يؤازرونه على تحقيق أهدافه وإنجاز أعماله.

ولهؤلاء الأعوان أثر كبير وخطير في توجيه الحاكم وتكييف أخلاقه وآرائه حسبما تتصف به من خلال وميول رفيعة أو وضيعة.

لذلك كان على الحاكم أن يختار بطانته وأعوانه من ذوي الكفاءة والنزاهة والصلاح، لتمحضه النصيحة، وتؤازره على إسعاد الرعية وتحقيق آماله وأمانيها،

دونما نزوع إلى إثرة أو محاباة تضر بصالح الرعية وتجحف بحقوقها.

هـ ـ محاسبة العمال والموظفين: كثيراً ما يزهو الموظف بمنصبه ونفوذه، ويستحوذ عليه الغرور فيتحدى الناس، ويتعالى عليهم، ويمتهن كرامتهم ويهمل أعمالهم ولا ينجزها إلا بدافع من الطمع أو المحاباة، الخوف أو الرجاء مما يعرقل مهماتهم ويستثير سخطهم وحنقهم على جهاز الحكم. لهذا يجب على الحاكم مراقبة الموظفين ومحاسبتهم على أعمالهم ومكافأة المحسن منهم على إحسانه، ومعاقبة المسيء على إساءته، ليؤدي كل فرد منهم واجبه نحو المجتمع، وليستشعر الناس مفاهيم العزة والكرامة والرخاء.

وبذلك تتسق شؤون الرعية، ويسودها العدل، وتنجو من مآسي الملق والتزلف إلى الموظفين بالرشا وألوان الشفاعات.

و ـ إسعاد الرعية:

والحاكم بوصفه قائد الأمة وراعيها الأمين، فهو مسؤول عن رعايتها والعناية بها، والحرص على إسعادها ورقيّها مادياً وأدبياً. وذلك: بتفقد شؤون الرعية، ورعاية مصالحها وضمان حقوقها وإشاعة الأمن والعدل والرخاء فيها، وتصعيد مستوياتها العلمية والصحية والاجتماعية والأخلاقية والعمرانية: بنشر العلم وتحسين طرق الوقاية والعلاج وتهذيب الأخلاق والاهتمام بالتنمية الصناعية والزراعية والتجارية، بالأساليب العلمية الحديثة واستغلال الموارد الطبيعية، وتشجيع المواهب والطاقات على الإبداع في تلك المجالات على أفضل وجه ممكن.

وبذلك تتوطد دعائم الملك، وتعلو أمجاد الأمم، وتتوثق أواصر الودّ والإخلاص بين الحاكم والمحكوم، ويتبوأ الحاكم عرش القلوب. ويحظى بخلود الذكر وطيب الثناء.

وقد عرضت في حقوق المجتمع الإسلامي طرفاً من حقوق أفراده تندرج في حقوق الرعية على الحاكم، باعتباره المسؤول الأول عن رعايتها وصيانة حقوقها، وضمان أمنها ورخائها.

حقوق الحاكم على الرعية

الحاكم العادل هو: قطب رحى الأمة، ورائد نهضتها، وباني أمجادها، وحارسها الأمين. وهو عنصر فعّال من عناصر المجتمع، وجزء أصيل لا يتجزأ عنه، لهذا وجب أن يكون التجاوب في العواطف والمشاعر قوياً بين الحاكم والمحكوم، والراعي والرعية، ليستطيع الأول أداء رسالته الإصلاحية لأمته، وتحقيق أهدافها وأمانيها، ولتنال الأمة في ظلال حكمه مفاهيم الطمأنينة والحرية والرخاء.

لذلك كان للحاكم حقوق على الرعية إزاء حقوقها عليه، وكان على كل منهما رعاية حقوق الآخر، والقيام بواجبه نحوه.

وهذا ما أوضحه أمير المؤمنين (ع) حيث قال:

«فليست تصلح الرعية إلّا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلّا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عزّ الحق بينهم، وقامت مناهج الدين واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن، فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالي برعيته، اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى وعطلت الأحكام، وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار، وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله عند العباد»[1].

وإليك مجملاً من حقوق الحاكم:

١ ـ الطاعة: للحاكم حق الطاعة على رعيته فيما يرضي الله عز وجل، حيث لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

والطاعة هي: المشجع الأول للحاكم على إخلاصه للرعية، وتحسسه

---

(١) نهج البلاغة. من كلام له (ع) في حق الحاكم على المحكوم.

بمشاعرها وآلامها، ودأبه على إسعادها وتحقيق آمالها وأمانيها.

أما التمرد والعصيان والخذلان فهي خلال مقيتة تستفز الحاكم وتستثير نقمته على الرعية، وبطشه بها، وتقاعسه على إصلاحها ورقيها، ومن ثم إحباط جهوده الهادفة البناءة في سبيلها.

انظر كيف يوصي الإمام موسى بن جعفر (ع) شيعته بطاعة الحاكم: «يا معشر الشيعة لا تذلوا رقابكم بترك طاعة سلطانكم، فإن كان عادلاً فاسألوا الله إبقاءه، وإن كان جائراً فاسألوا الله إصلاحه، فإن صلاحكم في صلاح سلطانكم، وإن السلطان العادل بمنزلة الوالد الرحيم، فأحبّوا له ما تحبون لأنفسكم، واكرهوا له ما تكرهون لأنفسكم»[1].

٢ - المؤازرة: والحاكم مهما سمت كفاءته ومواهبه، فإنه قاصر عن الاضطلاع بأعباء الملك، والقيام بواجبات الرعية وتحقيق منافعها العامة، ومصالحها المشتركة إلا بمؤازرة أكفائها، ودعمهم له، ومعاضدتهم إيّاه بصنوف الجهود والمواهب المادية والمعنوية، الجسمية والفكرية. وبمقدار تجاوبها وتضامنها يستتب الأمن، ويعم الرخاء ويسعد الراعي والرعية.

٣ - النصيحة: كثيراً ما يستبد الغرور بالحاكم، وتستحوذ عليه نشوة الحكم وسكرة السلطان، فينزع إلى التجبر والطغيان، واستعباد الرعية، وخنق حريتها، وامتهان كرامتها، واستباحة حرماتها، وسومها سوء المذلة والهوان.

وهذا ما يحتم على الغيارى من قادة الرأي، وأعلام الأمة أن يبادروا إلى نصحه وتقويمه، والحدّ من طغيانه، فإن أجدى ذلك، وإلاّ فقد أعذر المصلحون وقاموا بواجب الإصلاح.

وقد جاء في الحديث عن الصادق عن آبائه عليهم السلام عن النبي (ص) قال:

«السلطان ظل الله في الأرض، يأوي إليه كل مظلوم، فمن عدل كان له الأجر، وعلى الرعية الشكر، ومن جار كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر حتى

---

(١) البحار. كتاب العشرة ص ٢١٨ عن أمالي الشيخ الصدوق.

يأتيهم الأمر»[١].

أما في العصر الحاضر وقد تطورت فيه أساليب الحياة، ووسائل الإصلاح، فلم يعد الحكام يستسيغون العظة والنصح ولا تجديهم نفعاً.

من أجل ذلك فقد استجازت الحكومات المتحضرة نقد حكامها المنحرفين عن طريق البرلمانات والصحف والمذكرات التي تندد بإثرتهم وأنانيتهم، وتنذرهم عليها بلعنة الشعب، وثورته الماحقة على الطغاة والمستبدين.

حاجات الجسم والنفس

يتألف الإنسان من عنصرين: عنصر الجسد، وعنصر الروح، وهما مترابطان ترابطاً وثيقاً، ومتفاعلان تفاعلاً قوياً، لا ينفك أحدهما عن الثاني إلّا بتصرم العمر، ونهاية الحياة. وسعادة الإنسان وهناؤه الجسمي والفكري منوط بصحة هذين العنصرين وسلامتهما معاً. لهذا كان على ناشد السعادة ومبتغيها أن يعني بهما عناية فائقة تضمن صحتهما وازدهارهما، وصيانتهما من المضار.

ولكل من الجسم والروح أشواقه وحاجاته:

فحاجات الجسم هي: المآرب المادية الموجبة لنموه وصحته وحيويته، كالغذاء والشراب والكساء ونحوها من ضرورات الحياة.

وحاجات الروح هي: الأشواق الروحية والنفسية التي تتعشقها الروح، وتهفو إليها، كالمعرفة، والحرية والعدل، وراحة الضمير ورخاء البال وما إلى ذلك من المثل العليا والأماني الروحية. ولا مناص من تلبية هذه المرآب والرغائب الجسمية والروحية لتحقيق صحة الجسم والروح، وضمان هنائهما المرجو.

فحرمان الجسم من أشواقه يفضي به إلى الضعف والسقم والانحلال وحرمان الروح والنفس من أمانيها، يقودها إلى الحيرة والقلق والشقاء.

---

(١) البحار. كتاب العشرة. ص ٢١٤ عن أمالي الشيخ أبي علي ابن الشيخ الطوسي.

والسعادة الحقة منوطة بصحة الجسم والنفس وازدهارهما معاً ورعاية حقوقهما المادية والروحية.

حقوق الجسد

وتتلخص هذه الحقوق في رعاية القوانين الصحية، واتباع الآداب الإسلامية الكفيلة بصحة الجسم وحيويته ونشاطه. كالاعتدال في الطعام والشراب وتجنب الكحول والعادات الضارة، كالخمر والحشيش والأفيون والتوقي من الشهوات الجنسية الآثمة، واعتياد النظافة، وممارسة الرياضة البدنية، ومعالجة الأمراض الصحية ونحو ذلك من مقومات الصحة وشرائطها مما هو معروف لغالب الناس لتوفر التوعية الصحية، والنصائح الطبية في حقول الإعلام الصحفي والإذاعي. فلا أجد حاجة إلى تفصيله والاطناب فيه.

حقوق النفس

بيد أن صحة النفس ووسائل وقايتها وعلاجها، وعوامل رقيّها وتكاملها، ورعاية حقوقها وواجباتها، يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون لقلة احتفائهم بالقيم الروحية والمفاهيم النفسية، وجهلهم بعلل النفس وانحرافاتها. وما تعكسه من آثار سيئة على حياة الناس.

فالأمراض الجسمية تبرز سماتها وأعراضها على الجسم في صور من الشحوب والهزال والانهيار.

أما العلل النفسية والروحية فإن مضاعفاتها لا يتبينها إلاّ العارفون من الناس، حيث تبدو في صور مقيتة من جموح النفس، وتمردها على الحق، ونزوعها إلى الآثام والمنكرات، وهيامها بحب المادة وتقديسها وعبادتها، ونبذها للقيم الروحية ومثلها العليا. مما يوجب مسخها وهبوطها إلى درك الحيوان.

من أجل ذلك كانت العلل الروحية والنفسية أصعب علاجاً، وأشدّ عناءً من العلل الجسمية، لعسر علاج الأولى، ويسر الثانية في الغالب.

وكانت عناية الحكماء والأولياء بتهذيب النفس، وتربية الوجدان أضعاف عنايتهم بالجسد.

وهذا ما يحتم على كل واع مستنير أن يعني بتركيز نفسه، وتصعيد كفاءتها، وتهذيب ملكاتها، ووقايتها من الشذوذ والانحراف، وذلك برعاية حقوقها، وحسن سياستها وتوجيهها.

وإليك طرفاً من طلائع حقوق النفس:

١ ـ تثقيف النفس:

وذلك: بتنويرها بالمعرفة الإلهية والعقيدة الحقة، وتزويدها بالمعارف النافعة التي تنير للإنسان سبل الهداية وتوجهه وجهة الخير والسداد. وهذه هي أسمى غايات النفس وأشواقها.

فهي تصبو إلى العقيدة، وتهفو إلى الإيمان بالله عز وجل، وتتعشق العلم، وتهفو إلى استجلاء الحقائق، واستكشاف أسرار الكون وألغاز الحياة. تتطلع إلى ذلك تطلّع الظمآن إلى الماء، وتلتمس الذي لنفسها كما يلتمسه هو سواء بسواء. فإن ظفرت بذلك أحست بالطمأنينة والارتياح، وإن فقدته شعرت بالقلق والسأم.

٢ ـ إصلاح السريرة:

للإنسان صورتان: صورة ظاهرية تتمثل في إطار جسده المادي، وصورة باطنية تتمثل فيها خصائصه النفسية، وسجاياه الخلقية.

وكما تكون الصورة الظاهرية هدفاً للمدح أو الذم، ومدعاة للحب أو الكره نظراً لصفاتها الجميلة أو القبيحة. كذلك الصورة الباطنية يعروها المدح والذم، وتبعث على الإعجاب أو الإستنكار، تبعاً لما تتسم به من طيبة أو خبث، من تلألوء أو ظلام.

وكما يهتم العقلاء بتجميل صورهم المادية، وإظهارها بالمظهر اللائق الجذّاب. كذلك يجدوا الاهتمام بتجميل صورهم الباطنية، وتزيينها بالطيبة وصفاء السريرة وجمال الخلق. لتغدو وضاءة مشعة بألوان الخير والجمال. وذلك

بتطهيرها من أوضار الرياء والنفاق، والحسد والمكر ونحوها من السجايا الهابطة المقيتة.

من أجل ذلك حرّض أهل البيت عليهم السلام على تهذيب النفس وإصلاح السريرة، وحسن الطوية لتكون ينبوعاً ثراً فياضاً بشرف الفضائل وحسن الأخلاق.

فعن الصادق عن آبائه عليهم السلام قال: «قال أمير المؤمنين (ع): كانت الفقهاء والحكماء إذا كاتب بعضهم بعضاً، كتبوا بثلاث ليس معهن رابعة:

من كانت الآخرة همّه كفاه الله همه من الدنيا، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله عز وجل أصلح الله له فيما بينه وبين الناس»[1].

وقال الصادق (ع): «ما من عبد يسر خيراً إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له خيراً، وما من عبد يسّر شراً، إلا لم تذهب الأيام حتى يظهر الله له شراً»[2].

وعنه (ع) قال: قال رسول الله (ص): «سيأتي على الناس زمان، تخبث فيه سرائرهم، وتحسن فيه علانيتهم، طمعاً في الدنيا، لا يريدون به ما عند ربهم، يكون دينهم رياءً، لا يخالطهم خوف، يعمهم الله بعقاب، فيدعونه دعاء الغريق، فلا يستجيب لهم»[3].

٣ ـ ضبط النفس:

تنزع النفس بغرائزها وشهواتها إلى الشذوذ والانحراف، وتخدع أربابها بسحرها الفاتن وأهوائها المضللة، حتى تجمح بهم في متاهات الغواية والضلال ﴿إن النفسَ لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي﴾ (يوسف: ٥٣).

(١) البحار م ١٤ ج ٢ ص ٢٠٤ عن الخصال والأمالي وثواب الأعمال للصدوق (ره).
(٢) الوافي ج ٣ ص ١٤٧ عن الكافي.
(٣) الوافي ج ٣ ص ١٤٨ عن الكافي.

وهذا ما يحفز كل واع مستنير، أن يُعني بضبط نفسه، والسيطرة عليها وتحصينها ضد المعاصي والآثام، وترويضها على طاعة الله تعالى، واتباع شرعته ومنهاجه.

وقد حثّ القرآن الكريم على ضبط النفس، والحدّ من جماحها وتوجيهها شطر الخير والصلاح.

قال تعالى: ﴿ونفس وما سوّاها، فألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكّاها، وقد خاب من دسّاها﴾ (الشمس: ٧ ـ ١٠).

وقال تعالى: ﴿وأما من خاف مقام ربه، ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى﴾ (النازعات: ٤١). ﴿فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا، فإن الجحيم هي المأوى﴾ (النازعات: ٣٧).

وهكذا حرض أهل البيت عليهم السلام على ضبط النفس، وقمع نزواتها، معتبرين ذلك أفضل صور الجهاد.

فعن موسى بن جعفر عن آبائه عليهم السلام قال. «قال أمير المؤمنين (ع): إن رسول الله (ص) بعث سرية، فلما رجعوا قال: مرحباً بقوم قضوا الجهاد الأصغر وبقي عليهم الجهاد الأكبر. قيل: يا رسول الله وما الجهاد الأكبر؟

قال (ص): جهاد النفس. ثم قال: أفضل الجهاد من جاهد نفسه التي بين جنبيه»[1].

وعن عبدالله بن الحسن، عن أمه فاطمة بنت الحسين بن علي (ع) عن أبيها (ع) قال: قال رسول الله (ص): «ثلاث خصال، من كُنّ فيه، استكمل خصال الإيمان: الذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل، وإذا غضب لم يخرجه الغضب من الحق، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له»[2].

(١) سفينة البحار ج ١ ص ١٩٧ عن معاني الأخبار للصدوق.
(٢) سفينة البحار ج ٢ ص ٥٥٠ عن الخصال للصدوق.

٤ ـ محاسبة النفس:

والمراد منها هو: محاسبة النفس في كل يوم عما عملته من الطاعات والمعاصي، والموازنة بينهما، فإن رجحت كفة الطاعات، شكر المحاسب الله على توفيقه لها، وفوزه بشرف طاعته ورضاه.

وإن رجحت كفة المعاصي أدّب المحاسب نفسه بالتقريع والتأنيب على إغفال الطاعة، والنزوع للآثام.

قال الإمام موسى بن جعفر (ع): «ليس منا من لم يحاسب نفسه في كل يوم، فإن عمل حسنة استزاد الله تعالى، وإن عمل سيئة استغفر الله تعالى منها وتاب إليه»[1].

وقد بحثت هذا الموضوع في القسم الأول من هذا الكتاب فراجعه هناك.

هذه لمحات خاطفة من حقوق النفس، تفاديت الأطناب فيها خشية السأم والملل.

وقد وقع الفراغ من هذه الأبحاث على يد مؤلفها مهدي بن المغفور له العلامة الحجة السيد علي الصدر ابن آية الله العظمى السيد حسن الصدر أعلى الله مقامهما ـ في ليلة الأربعاء ١٧ شوال سنة ١٣٩٠هـ والحمد لله أولاً وآخراً.

تم الكتاب بعون الله الوهاب

(١) الوافي ج ٣ ص ٦٢ عن الكافي.

فهرس تفصيلي

الموضوع	الصفحة
القسم الاول	
الاخلاق العامة	
كلمة مؤسسة النعمان	٥
مقدمة الكتاب	٩
حسن الخلق	١٣
سوء الخلق	١٩
الأخلاق بين الاستقامة والانحراف	٢٠
علاج سوء الخلق	٢١
الصدق	٢١
مآثر الصدق	٢٢
أقسام الصدق	٢٤
الكذب	٢٤
مساوىء الكذب	٢٥
دواعي الكذب	٢٦
أنواع الكذب	٢٦
أضرار اليمين الكاذبة	٢٧
علاج الكذب	٢٩
مسوغات الكذب	٢٩
الحلم وكظم الغيظ	٣٠
الغضب	٣٥
بواعث الغضب	٣٦
أضرار الغضب	٣٧
الغضب بين المدح والذم	٣٧
علاج الغضب	٣٨
التواضع	٤٠
التكبر	٤٣
مساوىء التكبر	٤٥
بواعث التكبر	٤٦
درجات التكبر	٤٧
أنواع التكبر	٤٧
علاج التكبر	٤٨
القناعة	٤٩
محاسن القناعة	٥٠

الموضوع	الصفحة
الحرص	٥١
مساوىء الحرص	٥٢
علاج الحرص	٥٣
الكرم	٥٣
محاسن الكرم	٥٤
مجالات الكرم	٥٥
بواعث الكرم	٥٧
الايثار	٥٧
البخل	٥٩
مساوىء البخل	٦٠
صور البخل	٦١
علاج البخل	٦١
العفة	٦٤
حقيقة العفة	٦٥
الاعتدال المطلوب	٦٥
محاسن العفة	٦٦
الشره	٦٦
مساوىء الشره	٦٧
علاج الشره	٦٨
الأمانة والخيانة	٦٨
محاسن الأمانة ومساوىء الخيانة	٧٠
صور الخيانة	٧٠
التآخي	٧١
التآخي الروحي	٧١
نماذج من التآخي	٧٢
العصبية	٧٤
حقيقة العصبية	٧٦
غوائل العصبية	٧٦
العدل	٧٧
أنواع العدل	٧٧
محاسن العدل	٧٩
الظلم	٨٢
أنواع الظلم	٨٤
وخامة الظلم	٨٨
علاج الظلم	٨٨
الاخلاص	٨٩
فضيلة الاخلاص	٩٠
عوائق الاخلاص	٩٠
كيف تكسب الاخلاص	٩١
الرياء	٩٢
أقسام الرياء	٩٣
دواعي الرياء	٩٤
حقائق	٩٤
مساوىء الرياء	٩٦
علاج الرياء	٩٧
علاج الرياء العملي	٩٧
العُجب	٩٨
مساوىء العجب	٩٩
علاج العُجب	٩٩
اليقين	١٠٠
خصائص الموقنين	١٠٢
درجات الإيمان	١٠٣
أنواع الإيمان	١٠٣
الصبر	١٠٥
أقسام الصبر	١٠٧
الصبر على طاعة الله	١٠٩

الموضوع	الصفحة
الصبر على النِعَم	١١٠
محاسن الصبر	١١١
كيف تكسب الصبر	١١١
الشكر	١١٢
أقسام الشكر	١١٤
فضيلة الشكر	١١٥
كيف نتحلى بالشكر	١١٧
التوكل	١١٧
حقيقة التوكل	١١٩
درجات التوكل	١٢٠
محاسن التوكل	١٢٠
كيف تكسب التوكل	١٢٠
الخوف من الله تعالى	١٢٣
الخوف بين المد والجزر	١٢٤
محاسن الخوف	١٢٥
كيف نستشعر الخوف	١٢٦
طرف من قصص الخائفين	١٢٧
الرجاء من الله تعالى	١٢٧
واقع الرجاء	١٣٢
الحكمة في الترجي والتخويف	١٣٣
الغرور	١٣٣
أ ـ الاغترار بالدنيا	١٣٤
القانون الخالد	١٣٧
مساوىء الاغترار بالدنيا	١٣٩
علاج هذا الغرور	١٣٩
ب ـ غرور العلم	١٤٢
ج ـ غرور الجاه	١٤٤
الجاه بين المدح والذم	١٤٥
د ـ غرور المال	١٤٦
المال بين المدح والذم	١٤٦
هـ ـ غرور النسب	١٤٨
الحسد	١٤٩
بواعث الحسد	١٥٠
مساوىء الحسد	١٥١
علاج الحسد	١٥٢
الغيبة	١٥٣
التصامم عن الغيبة	١٥٤
بواعث الغيبة	١٥٥
مساوىء الغيبة	١٥٥
مسوغات الغيبة	١٥٦
علاج الغيبة	١٥٧
كفّارة الغيبة	١٥٨
البهتان	١٥٨
النميمة	١٥٩
بواعث النميمة	١٦٠
مساوىء النميمة	١٦٠
كيف تعامل النّمام	١٦٠
السعاية	١٦١
الفحش والسب والقذف	١٦٢
بواعث البذاء	١٦٤
مساوىء المهاترات	١٦٤
السخرية	١٦٤
الكَلِم الطيب	١٦٥
غوائل الذنوب	١٦٩
التوبة	١٧٤
حقيقة التوبة	١٧٤

الموضوع	الصفحة

فضائل التوبة ١٧٥
وجوب التوبة وفوريتها ١٧٧
تجديد التوبة ١٧٧
منهاج التوبة ١٧٩
قبول التوبة ١٨٠
أشواق التوبة ١٨٠
محاسبة النفس ومراقبتها ١٨١
دستور المحاسبة ١٨٢
اغتنام فرصة العمر ١٨٤
العمل الصالح ١٨٧
طاعة الله وتقواه ١٨٩
حقيقة الطاعة والتقوى ١٩١
الثبات على المبدأ ١٩٤

القسم الثاني
في الحقوق والواجبات

تمهيد ٢٠٧
الحقوق الإلهية ٢٠٩
١ ـ العبادة ٢٠٩
٢ ـ الطاعة ٢١١
٣ ـ الشكر ٢١٢
٤ ـ التوكل ٢١٢
حقوق النبي ﷺ ٢١٣
١ ـ طاعته ٢١٤
٢ ـ محبته ٢١٥
٣ ـ الصلاة عليه ٢١٧
٤ ـ مودة أهل بيته الطاهرين ٢١٩
حقوق الائمة الطاهرين (ع) ٢٢٤
١ ـ معرفتهم ٢٢٤
٢ ـ موالاتهم ٢٢٥
٣ ـ طاعتهم ٢٢٧
٤ ـ أداء حقهم من الخمس ٢٢٨
٥ ـ الإحسان إلى ذريتهم ٢٢٩
٦ ـ مدحهم ونشر فضائلهم ٢٣٠
٧ ـ زيارة مشاهدهم ٢٣٣
حقوق العلماء ٢٣٥
فضل العلم والعلماء ٢٣٥
١ ـ توقيرهم ٢٣٧
٢ ـ برهم ٢٣٨
٣ ـ الاهتداء بهم ٢٣٩
حقوق الأساتذة والطلاب ٢٤٠
حقوق الطلاب ٢٤١
حقوق الوالدين والاولاد ٢٤٤
حقوق الوالدين ٢٤٤
برّ الوالدين ٢٤٥
عقوق الوالدين ٢٤٩
مساوىء العقوق ٢٥٠
حقوق الاولاد ٢٥٣
حكمة التأديب ٢٥٤
المدرسة الاولى للطفل ٢٥٥
منهاج التأديب ٢٥٥
الحقوق الزوجية ٢٥٦
فضل الزواج ٢٥٦
١ ـ فوائد الزواج ٢٥٨
٢ ـ ومن منافع الزواج ٢٥٨

الموضوع	الصفحة
٣ ـ ومن آثار الزواج	٢٥٨
السعادة الزوجية	٢٥٩
الزوج المثالي	٢٥٩
الزوجة المثالية	٢٦٠
رعاية الحقوق	٢٦١
حقوق الزوج	٢٦٢
١ ـ الطاعة	٢٦٢
٢ ـ المداراة	٢٦٣
٣ ـ الصيانة	٢٦٥
حقوق الزوجة	٢٦٥
١ ـ النفقة	٢٦٦
التوسعة على العيال	٢٦٦
٢ ـ حسن العشرة	٢٦٧
٣ ـ الحماية	٢٦٨
الحقوق المزيفة	٢٦٨
١ ـ السفور	٢٦٩
الأضرار الخلقية	٢٦٩
الأضرار الصحية	٢٧١
الأضرار الاجتماعية	٢٧٢
منزلة المرأة في الإسلام	٢٧٨
المرأة في التاريخ القديم	٢٧٩
المرأة في المجتمع العربي الجاهلي	٢٨١
المرأة في الحضارة الغربية الحديثة	٢٨١
تحرير المرأة في الإسلام	٢٨٢
المساواة بين الرجل والمرأة	٢٨٩
التمايز بين الجنسين	٢٩٣
١ ـ القوامة	٢٩٤
٢ ـ إيثار الرجل على المرأة في الإرث	٢٩٥
٣ ـ الشهادة	٢٩٦
٤ ـ تعدد الزوجات	٢٩٦
أ ـ المبررات	٢٩٨
ب ـ الحروب	٢٩٩
الطلاق في الإسلام	٣٠١
حقوق الأقرباء	٣٠٣
فضل الأقرباء	٣٠٣
صلة الرحم	٣٠٤
خصائص صلة الرحم	٣٠٦
قطيعة الرحم	٣٠٧
مساوىء قطيعة الرحم	٣٠٩
حقوق الاصدقاء	٣٠٩
فضل الاصدقاء	٣٠٩
واقع الصداقة والاصدقاء	٣١٠
اختيار الصديق	٣١٢
خلال الصديق المثالي	٣١٢
مقاييس الحب	٣١٥
الصداقة بين المد والجزر	٣١٦
حقوق الاصدقاء	٣١٦
١ ـ الرعاية المادية	٣١٧
٢ ـ الرعاية الأدبية	٣١٨
٣ ـ المداراة	٣١٩
الاعتدال في حب الصديق والثقة به	٣٢٢
حقوق الجوار	٣٢٣
التآزر والتعاطف	٣٢٣

الموضوع	الصفحة

حقوق الجار ٣٢٥
حقوق المجتمع الإسلامي ٣٢٥
فضل المجتمع الإسلامي ٣٢٥
حقوق المجتمع الإسلامي : ٣٢٧
١ ـ حق الحياة ٣٢٧
٢ ـ حق الكرامة ٣٢٨
٣ ـ حق الحرية ٣٣١
٤ ـ حق المساواة ٣٣٢
المساواة في الإسلام ٣٣٣
٥ ـ حق العلم ٣٣٧
٦ ـ حق الملكية ٣٣٨
٧ ـ حق الرعاية الإسلامية ٣٤٠
الحاكمون وواجباتهم ٣٤٣
حقوق الرعاية على الحاكم ٣٤٦
مظاهر الرفق ٣٤٨
آثار الرفق ٣٤٨
حقوق الحاكم على الرعية ٣٥٠
حاجات الجسم والنفس ٣٥٢
حقوق الجسد ٣٥٣
حقوق النفس ٣٥٣
١ ـ تثقيف النفس ٣٥٤
٢ ـ اصلاح السريرة ٣٥٤
٣ ـ ضبط النفس ٣٥٥
٤ ـ محاسبة النفس ٣٥٧